

د. أحمد المتوكل

**المنهج الوظيفي
في
الفكر اللغوي العربي**

الأصول والامتداد

دار الأمان
الرباط

د. أحمد المتوكل

**المنهج الوظيفي
في
الفكر اللغوي العربي**

الأصول والامتداد

دار الأمان
الرباط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي
الأصول و الامتداد

المؤلف : أحمد المنوكل

الناشر : مكتبة دار الأمان 14، ساحة المأمونية الرباط

الهاتف: 037.72.32.76 – فاكس: 037.20.00.55

الحقوق : جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى : 1427هـ/2006م

المطبعة : مطبعة الكرامة - الرباط

الإيداع القانوني : 2006/2573

ردمك : X-62-941-9981

فهرس الكتاب

13	تصدير
	الفصل الأول:
	المقاربة الوظيفية مبادئها ومنهجها.
19	0- المدخل
19	1- المبادئ العامة :
19	1-1 أدوات اللغة
20	1-2 وظيفة اللغة الأداة
21	1-3 اللغة والاستعمال
22	1-4 سياق الاستعمال
24	1-5 اللغة والمستعمل
26	1-6 القدرة اللغوية
27	1-7-1 الأدوات وبنية اللغة
27	1-7-1-1 مشروعية الوظيفة
28	1-7-1-2 البنية والتواصل الأمثل
31	1-7-1-3 البنية وأهداف التواصل
32	1-7-1-4 البنية وأنماط التواصل
33	1-8-1 الأدوات وتطور اللغة
35	1-9-1 الإداية والكليات اللغوية
35	1-10-1 الإداية واكتساب اللغة
36	2- أدوات اللغة وصياغة النحو
36	2-1 مفهوم النحو

36 1-1-2- النحو / اللسانيات
38 2 1 2 النحو فرعاً
39 3-1-2- النحو النموذج
39 2-2- مبدأ الانسجام وبناء النحو
41 3-2- وظيفة التواصل وهندسة النحو
43 3- الوظيفة بين المفهوم والمصادق
43 1. 3 النظرية الوظيفية المثلى
44 1-1-3- المنطلق
44 2-1-3- الهدف
45 1 2 1 3 الكفاية اللغوية
46 3-2-1- الكفاية الإجرائية
47 3-1-3- النمذجة
48 2. 3 النظريات الوظيفية: المنجز والمرتب
48 3-1-2- النظريات اللسانية
49 3-1-1-2- التفاوت في المنطلق
50 3-2-1-2- التفاوت في الهدف
51 3-2-1-3- التفاوت في النمذجة
53 3-2-2-2- المدرس اللغوي القديم

الفصل الثاني

الوظيفية في اللسانيات العربية الحديثة

59 0- مدخل
59 1- المنحى الوظيفي بالمغرب: تذكير وتدقيق
63 2- نظرية النحو الوظيفي: ثابت الأسس ومتغير النماذج
63 1-2 الأسس المنهجية
64 2-1-1- الكفاية التداولية
66 2 1 2- الكفاية النفسية

68 2-1-3-الكفاية النمطية
71 2-2-النماذج
71 2-2-1-النموذج النواة
74 2 2 2 روافد الكفاية وتطور التمذجة
74 2-2-2-1-الرافد التداولي: النموذج المعياري
77 2 2 2 2-الرافد النمطي: نحو الطبقات القالبي
83 2-2-2-3-الرافد النفسي: نحو الخطاب الوظيفي
87 3- النظرية الوظيفية واللغة العربية
87 3.1- بناء نحو اللغة العربية الوظيفي
88 3.1.1- نحو اللغة العربية النواة
88 3.1.1.1- المعجم والاشتقاق
91 3.1.1.2- الوظائف
92 3-1-1-2-1- الوظائف التركيبية
93 3 1 1 2-2- الوظائف التداولية
94 3-1-1-2-1- الوظائف الداخنية
95 3-1-1-2-2- الوظائف الخارجية
98 3 1 1-3- الوظائف والبنية الصرفية - التركيبية
98 3-1-1-3- الإعراب
99 3-1-1-3-2- الرتبة
101 3 1 1 4-4- بنية الجملة وأقسامها
101 3-1-1-4-1- الجمل الربطية
103 3 1 1 4-2- الجمل المركبة
108 3-1-2- بعد النحو النواة: إغناء وتطوير
108 3-1-2-1- المكونات
108 3 1 2 1 1- البنية التحتية
108 3-1-1-2-1- الدلالة
114 3-1-1-2-1- التداول
121 3 1 1 2-1-3- الدلالة والتداول: من التوحد إلى الانشطار

122 1-3 2-1-2 - البنية الصرفية - التركيبية
123 1-3 1-2-1 2 1 - مسائل عامة
126 1-3 2 1-2-1 - بنية المحمول ..
134 1-3 2-1 1 2-3 - بنية الجملة
139 1-3 2-1-2 4 2-1-2 - بنية المركب الاسمي
140 1-3 2-2-1 2 - انحال
142 4- اللغة العربية ونظرية النحو الوظيفي
143 4 1- إسهامات في الكفاية اللغوية
143 4 1-1 1- في الكفاية التداولية
147 4 1-2 1- في الكفاية النفسية
149 4 1-3 1- في الكفاية النمطية
152 4 2- إسهامات في الكفاية الإعرابية
153 4 1-2 1- نحو الطبقات القالي والترجمة
156 4 2-2 2- نحو الطبقات القالي وتعليم اللغات
158 4 2-3 2- نحو الطبقات القالي والاضطرابات اللغوية
158 4 2-4 4- نحو الطبقات القالي والتواصل غير اللغوي
160 4 2-5 4- نحو الطبقات القالي واللغات المحلية

الفصل الثالث:

الوظيفية في التراث اللغوي من الإسقاط إلى الإقسط

165 0- مدخل
165 1- قراءة التراث: بعض الاقتراحات المنهجية
166 1-1-1- توحد المفهوم في تعدد "العلوم"
167 1-2-1- تطور لا قطيعة
169 1-3-1- إسقاطاً "الإسقاط"
171 2- الدلالة في التراث اللغوي العربي

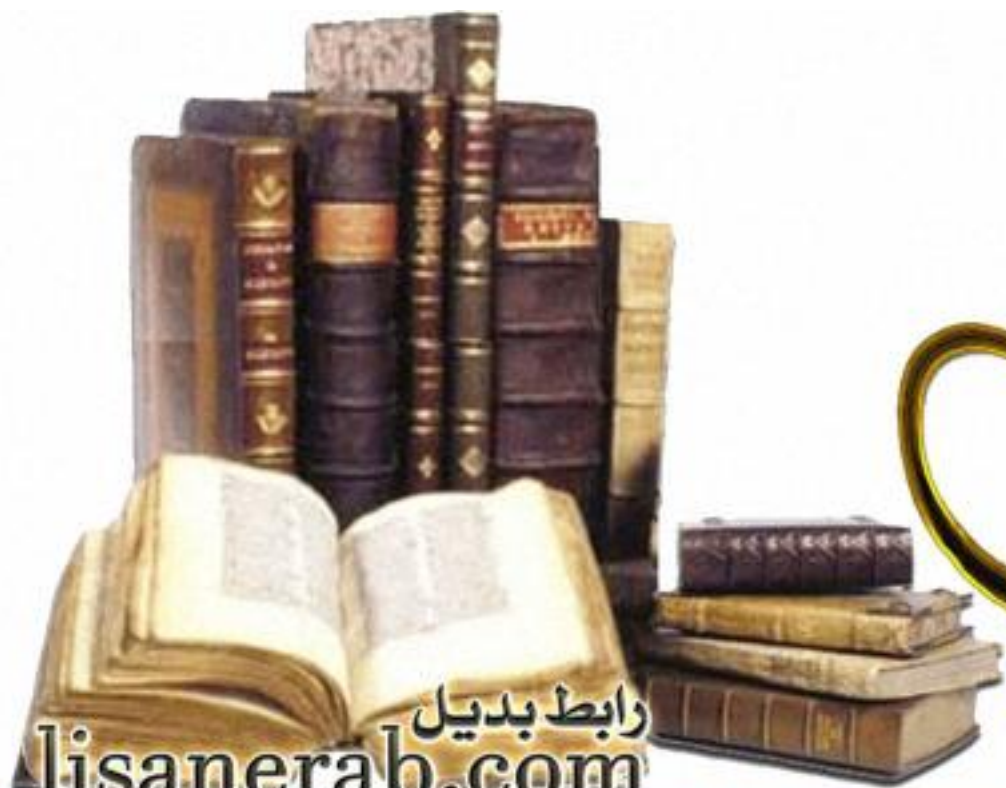
171 2-1- المفاهيم الأساسية
172 2-1-1-1- المقام
173 2-1-2 المقال
173 2-1-2-1 تعريف المقال
173 2-1-2-2 بُعدا المقال: اللفظ والمعنى
173 2-1-2-2-1 اللفظ
174 2-1-2-2-2 المعنى
174 2-1-2-2-2-1 المعنى الفحوى
174 2-1-2-2-2-2 المعنى المقصد
176 2-1-2-1-1-1-1 انماط المقال
177 2-1-2-1-1-2 الفائدة
178 2-1-2-1-2-1-2 طبيعة الخطاب
178 2-1-2-1-2-3 المجال
179 2-2- المنهج
179 2-2-1-2-2 اللفظ والمعنى: جدل السبق
181 2-2-2 النطق بالمعنى: "علم الأدب"
181 2-2-2-1 مستوى "المفرد"
181 2-2-2-2 مستوى "المركب"
182 2-2-2-3 مستوى المطابقة
184 2-2-3 المعنى فاللفظ: "نظرية التنظيم"
184 2-2-3-1 المعنى قبل النطق
185 2-2-3-2 بناء العبارة اللغوية
185 2-2-3-2-1 مستوى المعنى
185 2-2-3-2-2 مستوى اللفظ
187 2-3- القضايا
187 2-3-1- التركيب
187 2-3-1-1 الغرض الأصلي / الغرض الفرعي
189 2-3-1-2 الغرض وتراكيب العطف

190 2-3-1-3- النية والرتبة
191 2-3-2- من قضايا المعنى - الفحوى
192 2 3 2 أركان الدلالة
193 2-2-3- وجوه الدلالة
193 2-3-2-1- الدلالة العصرية
194 2 3 2-2- الدلالة الضمنية
196 2-3-2-3- الالتباس: أمطاه ودرجاته
196 2 3 2 3-1- نمط الالتباس: دلالة وإحالة
196 2-3-2-3-1- الالتباس الدلالي
197 2-3-2-3-2- الالتباس الإحالي
198 2 3 2-3- درجات الالتباس
199 2-3-3- الخطاب: أمطاه وخصائصه
199 2-3-3-1- القدرة الخطابية
200 2-3-3-2- تنميط الخطابات
202 2-3-3-3- بنية الخطاب
202 2-3-3-3-1- المكونات
204 2-3-3-3-2- العلاقات
205 3- التراث اللغوي والدرس الوظيفي الحديث
206 3-1- التراث والنظرية الوظيفية المثلى
206 3-1-1- وظيفة التراث
206 3-1-1-1- من حيث المفاهيم
206 3-1-1-1-1- اللغة وأصلها
207 3-1-1-1-2- أركان التخاطب
208 3-1-1-1-3- وسيلة التخاطب
208 3-1-1-4- ضوابط التخاطب
209 3-1-2- من حيث المنهج
210 3-1-3- من حيث المقاربة
211 3-1-2- وظيفة التراث ومعايير النظرية المثلى

212 3-2- التراث: ماضٍ ممتد
213 3 2 1 التراث تاريخاً
213 3 2 2 التراث مرجعاً
214 3-2-3- التراث مصدراً
219 خاتمة
223 المراجع

مَكْتَبَةُ

لِسَانِ الْعَرَبِ



رابطہ بدیل
lisanerab.com

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com



تصديرو

تصدير

من مناحي الدرس اللساني العربي الحديث المنحى الوظيفي وليدُ تشغيل نظرية النحو الوظيفي في دراسة اللغة العربية وبعض اللغات المتواجدة في العالم العربي.

يسعى لسانيو هذا المنحى في إنجاز مشروع ذي شقين: إضائة نسق اللغة العربية صرفا وتركيبا واستعمالها فصحي ودوارج في مختلف القطاعات الاقتصادية-الاجتماعية من منظور مبدأ تبعية البنية لوظيفة التواصل وعند الجسور لوصول البحث اللساني الوظيفي بالتفسير العربي التراثي للدلالة منظورا إليه في مجمله نحواً وبلاغة وفقه لغة وأصول فقه وتفسيرا.

ما نصبو إلى تحصيله في هذا البحث هو رصد المنجز من هذا المشروع بشقيه وما هو مستشرف إنجازاه، في ظل الدفاع عن أطروحات ثلاث:

أولاً: أن اختبار النظريات اللغوية الوظيفية قديمها وحديثها وناقضة بينها لا يمكن أن يتما من داخل إحداها وإن ظنَّ أنها بلغت من الكفاية العلمية ما بلغت بل يتمان في إطار ميتا-نظرية عامة تعلوها جميعا نقترح تسميتها النظرية الوظيفية المثلى؛

وثانياً: أن الفكر اللغوي التراثي في عمقه فكر وظيفي من حيث مفاهيمه ومنهجه وقضاياه؛

وثالثاً: أن علاقة الدرس الوظيفي الحديث بهذا الفكر علاقة امتداد لأصل تتيح استيعاء واستثمار ما يمكن استيعاؤه واستثماره منه.

وبالله التوفيق.

الرباط، في 26 يونيو 2006.

الفصل الأول

المقاربة الوظيفية مبادئها ومنهجها

الفصل الأول :

المقاربة الوظيفية مبادئها ومنهجها

0. مدخل:

يمكن للمشتغل باستمولوجيا الفكر الدسالي وبتاريخ هذا الفكر واتجاهاته أن يميز بين تيارين أساسيين اثنين: تيار "صوري" يقف في مقاربه للغات الطبيعية عند بنيتها لا يكاد يتعداها وتيار "وظيفي" يحاول وصف بنية اللغات الطبيعية بربطها بما تؤدّيه هذه اللغات من وظائف داخل المجتمعات البشرية.

ويمكن أيضا للمشتغل بذلك، إذا ما هو أعمل الفكر في التراث اللغوي البشري، أن يتبين أن لكل من هذين التيارين أصوله وامتداداته وأن التقابل بين مفهومي "الصورية" و"الوظيفية" ليس مقصوراً على النظريات اللسانية الحديثة وإن كان له في هذه النظريات من الوضع المنهجي ومن وضوحه ما ليس له في الدرس اللغوي القديم.

1 - المبادئ العامة

ترتكز المقاربة الوظيفية على مبادئ عامة، بقطع النظر عن الإطار الذي يتبناها قديماً كان أم حديثاً، نورد هنا ما نراه أهمها.

1.1 - أدوات اللغة

تعّد اللغة في المقاربة الصورية موضوعاً مجرداً أي مجموعة من الجمل تربط بين مكوناتها علاقات صرفية - تركيبية ودلالية. في هذا المنحى، تقارب اللغة على أساس أنها بنية مجردة يمكن أن تُدرس خصائصها في حدّ ذاتها أي بقطع النظر عما يمكن أن تُستعمل من أجله.

أما حسب المقاربة الوظيفية فإن اللغة أداة تُسخر لتحقيق التواصل داخل المجتمعات البشرية. من هذا المنظور، تعدّ العبارات اللغوية، مفردات كانت أم جملاً، وسائل تستخدم لتأدية أغراض تواصلية معينة وتُقارب خصائصها البنيوية على هذا الأساس.

لتوضيح مفهوم أداتية اللغة هذا، دعنا نأخذ المثالين التاليين:

- (1) أ- أعطيت هذا كتاباً
ب- كتاباً أعطيت هذا (بتبر "كتاباً")

الفرق بين الجملة (1 أ) والجملة (1 ب) في المقاربة الصورية هو فرق بنيوي صرف يكمن في أن المكون المفعول في الجملة الأولى يحتفظ بموقعه الأصلي بعد الفعل في حين أنه يرد في الجملة الثانية محتملاً لتسوق المصدر أي قبل الفعل.

أما الفرق بين هاتين الجملتين في أي مقاربة تعتمد مبدأ أداتية اللغة فإنه فرق في القصد أولاً يعكسه الفرق البنيوي.

فتأخير المفعول في الجملة الأولى يعلّله أن القصد من إنتاج هذه الجملة إخبار المخاطب بمعلومة "جديدة" غير متوافرة لديه في حين أن تصديره في الجملة الثانية آيل إلى أن القصد من إنتاجها تصحيح إحدى معلوماته باعتبار هذه الجملة ردّاً على الجملة (2):

(2) بلغني أنك أعطيت هذا قلماً

سنعود إلى علاقة القصد بالبنية في فقرة لاحقة.

2.1 - وظيفة اللغة الأداة

إذا نحن سسنا بأن اللغة أداة، فما هي وظيفتها؟ يسخر مستعملو اللغة هذه الأداة لتحقيق أغراض متعددة كالتعبير عن الفكر والأحاسيس

والمعتقدات والتأثير في الغير بإقناعه أو ترغيبه أو ترهيبه أو مجرد أخباره بواقعة ما.

إلا أن هذه الأغراض وإن تعددت واختلفت من حيث طبيعتها آوية إلى وظيفة واحدة هي تحقيق التواصل بين أفراد مجتمع ما.

من المعلوم أن التواصل يمكن أن يتم عبر قنوات أخرى كالإشارة والصورة إلا أن التواصل عبر هذه القنوات لا يرقى قوة ودقة إلى التواصل المتوسل فيه باللغة.

ومن المعلوم أيضاً أن أدوات التواصل غير اللغوية قد تتضافر مع اللغة في أنساق تواصلية "مركبة" كالشريط السينمائي مثلاً.

3.1 - اللغة والاستعمال

يرتبط نسق اللغة ارتباطاً وثيقاً بنسق استعمالها.

ويُقصد بنسق الاستعمال مجموعة القواعد والأعراف التي تحكم التعامل داخل مجتمع معين.

نسقا اللغة والاستعمال نسقان مختلفان من حيث طبيعتهما لكنهما مترابطان.

ويتجلى هذا الترابط في كون نسق الاستعمال يحدد في حالات كثيرة قواعد النسق اللغوي المعجمية والدلالية والصرفية - التركيبية والصوتية وهو ما يُعني به فرع اللسانيات المسمى "اللغويات الاجتماعية".

من أبسط الأمثلة في هذا المضمار اختلاف خصائص العبارات اللغوية باختلاف الوسائط الاجتماعية كجنس المخاطب وسنّه وطبقته الاجتماعية والمنطقة الجغرافية التي ينتمي إليها.

فالتكلم لا يستعمل نفس النمط من العبارات في مخاطبة أشخاص ذوي أوضاع مجتمعية مختلفة. ولنسق هنا مثلاً للتوضيح:

لفرض أن المتكلم يريد حمل المخاطب على إنجاز واقعة ما ولتكن الواقعة مناوئته المُلح أثناء الأكل:

(أ) إذا كان المخاطب ذا وضع يساوي وضع المتكلم استُعملت عبارة من قبيل (3):

(3) ناولني المنح من فضلك.

(ب) وإذا كان وضع المخاطب يعلو وضع المتكلم استُعملت العبارة (4):

(4) هل تستطيع أن تناولي الملح من فضلك؟

(ج) أما إذا كان وضع المخاطب دون وضع المتكلم فتستعمل إحدى العبارتين المباشرين التاليتين:

(5) أ- ناولني الملح!

ب - الملح!

4.1 - سياق الاستعمال

يقتضي التواصل "الناجح" أن تطابق العبارة المنتقاة سياق استعمالها. وسياق الاستعمال سياقان: سياق مقالي وسياق مقامي.

(أ) يُقصد بالسياق المقالي مجموعة العبارات المنتجة في موقف تواصلي معين باعتبار أن عمية التواصل لا تتم بواسطة جُمل بل بواسطة نص متكامل في غالب الأحوال. ومن أهم مظاهر الترابط بين عبارات النص الواحد ظاهرة "العود الاحالي" المعروفة التي تربط بين ضمير ما ومركب اسمي سابق كما هو الشأن في النص المبسط التالي:

(6) استعار خالد قلماً من هناد... وبعد ساعات أعاده إليها.

(ب) أمّا ما يُقصد بالسياق المقامي فهو مجموعة المعارف والمدارك التي تتوافر في موقف تواصلٍ معين لدى كلّ من المتكلم والمخاطب.

(1) المعارف الآنية هي المدركات الحسية (السمعية والبصرية وغيرها) المتواجدة في موقف التواصل ذاته.

من مظاهر ارتباط إنتاج العبارات اللغوية أو تأويلها بهذا الصنف من المدركات إحالة الأدوات الإشارية على ذوات "حاضرة" أثناء التواصل كما هو شأن اسم الإشارة في الجملة (7) مثلاً:

(7) ناولني ذلك من فضلك !

ما يبرّر الاكتفاء بالإحالة على الذات المقصودة في الجملة (7) بواسطة مجرد اسم إشارة هو توافر هذه الذات أثناء التخاطب وتعرّف المخاطب عندها.

(2) إمّا المعارف العامة فهي ما يشكل مخزون المتخاطبين المعرفي الذهني حين التخاطب. ويشمل هذا المخزون كلّ ما يعرفه كلّ من المتكلم والمخاطب عن عالم الواقع وعن عوالم ممكنة أخرى⁽³⁾.

إن المخزون المعرفي الذهني يُسهم في تحديد سلامة العبارة اللغوية أو عدم سلامتها.

فقد تكون العبارة سليمة نحواً ودلالة لكن لاحتها بخرقها لمعرفة من المعارف العامة.

مثال ذلك ما يمكن أن ننحظه في الجملة (8) غير المقبولة وإن كان لا يشوب تركيبها ودلائلها شائب:

(8) صومعة حسان من أجمل آثار مراكش

لا يمكن أن يقبل المخاطب هذه الجملة عنى سلامة بنيتها إذا كان يعلم أن "صومعة حسان" من آثار الرباط لا مراكش.

مثال آخر لارتباط سلامة العبارة اللغوية بالمعارف العامة: من خصائص الجمل الاستفهامية الخاملة لسؤال حقيقي أنها تستدعي جواباً قد يكون "نعم" أو "لا". إلا أن هذه الخاصية ترتفع حين ترد الجملة الاستفهامية حاملة لسؤال عن شيء غير متوافر في مخزون المخاطب. فاجملة (9) إذا ما حوَّط بها من يجهل أن للسكاكي كتاباً عنوانه "مفتاح العلوم" لا تحمل ردّاً إيجابياً كان أم سلبياً:

(9) أ- هل قرأت كتاب السكاكي كله؟

ب- * نعم / لا.

ومن أمثلة ذلك كذلك ظاهرة ازدواج القصد. فجملة كالجمله (10).

(10) هل تستطيع الوصول إلى النافذة؟

يمكن أن يتوى وراءها قصدان اثنان: الاستفهام عن مدى قدرة المخاطب على الوصول إلى النافذة إذا كان المخاطب في حالة ترويض على المشي بعد عصب ما وطلب المتكلم من المخاطب أن يفتح النافذة لتهوئة الحجرة.

من الواضح أن ترجيح أحد القصدين لا يمكن أن يتم إلا بالنظر إلى سياق التواصل.

5.1 - اللغة والمستعمل

يشكل جملة العبارة اللغوية ثلاثة عناصر أساسية: أولاً، فحواها القضي، وثانياً: القصد من إنتاجها (إخبار أو استفهام أو أمر أو غير

ذلك) وثالثاً: - وهو ما يهمنا هنا - موقف المتكلم من الفحوى
القضوي.

من مواقف المتكلم إزاء الفحوى القضوي الموقف المعرفي (يقين أو
شك أو احتمال):

- (11) أ- إن خالدًا سيسافر قطعاً
ب- لا أظنه أن خالدًا سيسافر
ج- قد يسافر خالد.

والموقف الانفعالي (تعجب أو استغراب...):

- (12) أ- ما أروع هندا في حمارها الأسود!
ب- كيف يهاجم التلميذ أستاذه؟!

والموقف المرجعي (إسناد فحوى العبارة إلى مرجع خارجي قصد
التملص من مسؤولية تبليغه):

- (13) أ- يبدو أن الحرب ستقوم
ب- بلغني أن خالدًا سيوزر
ج- أرجفوا أن هندا تعشق جارها.

تقوم العبارات الدالة على موقف المتكلم في الجمل (11 أ-ج) و(12
أ-ب) و(13 أ-ج) كعلامات تؤشر لحضور المتكلم في الخطاب الذي
ينتج. إذا نحن أضفنا موقف المتكلم إلى حمولة العبارة اللغوية أصبح من
الممكن التمثيل لها بالشكل التالي:

(14) [قصد [موقف [فحوى قضوي]]].

مما تجدر الإشارة إليه هنا أن حيز الموقف المؤشر له في البنية (14) يختلف باختلاف وسيطين: وسيط نمط اللغة ووسيط نمط الخطاب كما سبق أن بينا في مكان آخر (المؤكل 2003).

(أ) في تسميئنا للغات ميزنا بين لغات موجهة تداوياً و"لغات موجهة دلالية". مما تنفرد به لغات النمط الأول أن حيز حضور المتكلم في خطابها، أي حيز الموقف، يتسم بعنق جلي إن من حيث مساحته أو من حيث الوسائل المسخرة لتحقيقه. شاهد ذلك في اللغة العربية التي أدرجناها في النمط الأول من اللغات عدد وتنوع الوسائل الصرفية التركيبية الدالة على الموقف كأدوات وصيغ التوكيد والتعجب مثلاً.

(ب) أما بالنظر إلى نمط الخطاب، فإن حيز الموقف يتسع في الخطابات ذات الطابع الوجداني (كبعض أصناف الخطاب الأدبي) في حين أنه يتقلص في الخطابات "الموضوعية" (أو "المحايدة") كالخطاب العلمي الصرف مثلاً بل يمكن أن يخاف إلى الصفر.

6.1 - القدرة اللغوية

ما يقصد عامة بالقدرة اللغوية (في مقابل الإنجاز) المعرفة التي يختبرها متكلم - السامع عن طريق الاكتساب والتي تمكنه من إنتاج وتأويل عدد غير متناه من العبارات السليمة.

يمكن القول إن الاتفاق شبه حاصل على أمرين هامين اثنين: لزوم التمييز بين قدرة المتكلم المجردة وبين إنجاز هذه القدرة الفعلي أثناء الإنتاج أو الفهم وأن ما يجب أن يكون موضوعاً للموصف اللغوي هو القدرة دون الإنجاز.

إلى جانب الاتفاق حول هذين المبدأين، يوجد اختلاف ملحوظ بين التيار الصوري والتيار الوظيفي حين يتعلق الأمر بالمقصود بقدرة المتكلم - السامع وفحواها يمكن تلخيصه كما يلي:

(أ) تنحصر القدرة لدى منظري التيار الصوري في المعرفة اللغوية
لصرف، في مجموعة القواعد الصرفية - التركيبية والدلالية والصوتية.

وقد تضاف إلى هذه المعرفة اللغوية معرفة عامة فيُتحدث عن
قدرتين، "قدرة نحوية" و"قدرة تداولية" على أساس أن القدرة الثانية
مفصولة فصلاً تاماً عن القدرة الأولى وعلى أساس أن القدرة الأولى
وحدها يمكن أن تتخذ موضوعاً للدرس اللغوي.

(ب) أما في التيار الوظيفي فلا تمييز بين قدرة نحوية وقدرة تداولية
وإنما هي قدرة تواصلية واحدة تضم إضافة إلى معرفة النسق اللغوي في حدّ
ذاته معارف أخرى سبق أن أشرنا في فقرة سابقة إلى طبيعتها وهي
المعارف السياقية الآنية والمعارف السياقية العامة.

في هذا المنظور، يستحضر المتكلم - السامع أثناء إنتاج عبارات لغته
أو فهمها كل هذه المعارف وإن كان استحضارها يتفاوت باختلاف
موقف التواصل وملايساته ونمط الخطاب المنتج، وإن كانت المعرفة
النحوية الصرف تقوم بالدور المركزي في حالات التخاطب العادية.

7.1 - الأدوات وبنية اللغة

لكل المبادئ الستة التي عرضنا لها في الفقرات السابقة أهميتها في
تعريف المنحى الوظيفي في الدرس اللغوي وفرزه عن المنحى الصوري. إلا
أن أهم مبادئ المنحى الوظيفي على الإطلاق هو ماله صلة بعلاقة أدوات
اللغة وبنيتها، بعلاقة وظيفة التواصل بالنسق اللغوي.

1.7.1 - مشروعية الوظيفة

ترمي كل النظريات اللغوية على اختلاف مشاربها وتوجهاتها، حديثة
كانت أم قديمة، إلى دراسة بنية اللغة مستويات ومكونات وعلائق.

إذا كان هذا هو المرمى الأساسي فلا مشروعية لتحديث عن
الوظيفة إلا إذا كانت تؤثر تأثيراً دالاً في البنية.

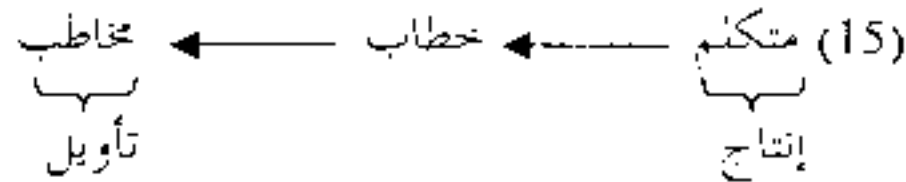
حول مشروع الأخذ بالوظيفة في الدرس اللغوي، انقسمت الآراء بين من ينكرها ومن يقول بها ويدافع عنها.

(أ) أهم ما يدفع به من ينكر مشروعية الأخذ بالوظيفة في الدرس اللغوي أن بنية اللغة نسق مجرد كما سبق أن أشرنا إلى ذلك تحكمه مبادئه وقواعده الخاصة ويتسنى بالتالي لدراسة اللغة أن يصفه في معزل تام عن أي شيء آخر كما يتسنى لعالم الأحياء أن يصف مكونات القلب وبنية في استقلال عن وظيفة ضح الدم⁽¹⁾.

(ب) أما أهم ما يحتد به القائلون بمشروعية الأخذ بالوظيفة فهو أن بنية اللغة تأخذ الخصائص التي تخدم إنجاح التواصل وأهدافه ومختلف أتماضه.

2.7.1 - البنية والتواصل الأمثل

من المعلوم أن عملية التواصل تقتضي ثلاثة عناصر أساسية: متكلماً ومخاطباً وخطاباً ينتجها المتكلم ويؤثره المخاطب كما توضح ذلك الترسمة التالية:



تكون عملية التواصل "ناجحة" إذا خلا الخطاب من كل ما يمكن أن يحول بين المخاطب وبين تأويله وهو ما يسعى المتكلم في تحقيقه (في حالات التواصل العادي).

يمكن إرجاع العوائق البنيوية إلى ما ينتج عن ثلاث عمليات هي الحذف والإضافة والنقل.

(1) من أمثلة العوائق الناجمة عن الحذف الجملة (16 ب) في مقابل الجملة (16 أ):

(16) أ -- خالد، قابنته

ب - ؟؟ قابنته

لأي خطاب عادي ركنان أساسيان: الخطاب ذاته (جملة أو مجموعة جمل) وما يحيل على "مجال الخطاب". هذان الركنان متوافران كلاًهما في الجملة (16 أ) كما توضح ذلك الترسيم (17):

(17) [خالد] [قابنته]

ب ب
مجال خطاب

ما يبيننا هنا هو أن الركن الأول ضروري لإنجاح عملية التواصل خاصة في بدايتها حيث لا قرينة مقالية أو مقامية تُوْشِرُ إلى مجال الخطاب. الجملة (16 ب)، إذن، باعتبارها جملة ابتدائية في عملية التواصل جملة غير مقبولة من شأن المخاطب أن يردّها على المتكلم مطالباً إياه بتحديد مجال خطابه كما يبين ذلك الحوار التالي:

(18) أ - من الذي قابنته؟

ب - خالد

(2) ومن الإضافات المنحطة بالتواصل تعدد الإدماج في نفس الجملة كما هو الشأن في الجملة (19) حيث يتكرر إدماج عبارات موصولة:

(19) قابلت الرجل الذي اشترى السيارة البيضاء التي باعها جازنا لصاحب المقهى الذي يوجد بشارع محمد الخامس.

الجملة (19) مثال للتراكيب التي يصعب على المتخاطب تحليلها وفهمها دون عناء في مقابل الجملة التي من قبيل (20).

(20) قابلت الرجل الذي اشترى السيارة البيضاء.

إنها السيارة التي باعها جارنا لصاحب المقهى الموجود بشارع محمد الخامس.

(3) من غير النادر أن ترد بعض المكونات محتلة لموقع غير موقعها الأصلي نتيجة عملية نقل معينة. أغلب النقول تكون مبررة تداولياً كما سنرى في مبحث لاحق إلا أن منها ما يتسبب في "التشويش" عنى عملية التواصل خاصة شق التأويل منها.

سنكتفي بمثالين اثنين للنقول "المشوشة" وهما ما نجده في الزوجين الجميلين التاليين.

(21) أ - إن خالدًا شاعرٌ منهم وهو ما يُقرُّ به الكل.

ب - إن خالدًا شاعرٌ - وهو ما يقرُّ به الكل - منهم.

(22) أ - بصراحة، لم تعد تروقي تصرفات هند.

ب - لم تعد تروقي تصرفات هند بصراحة.

تتضام عناصر الخطاب عامة في شكل مجالات تتكوّن من رأس وفضلة ومحدّد. أهم المجالات مجال الجملة الذي يرئسه المحمول (فعلاً أو صفة أو ظرفاً) ومجال المركب الاسمي الذي يرئسه عادة اسم.

ما يهمنا هنا هو أن عناصر المجال تنزع إلى الالتفاف نحو الرأس بحيث لا تقبل إلا بعسر أن يتخللها عنصر أجنبي عن المجال. هذا النزوع يجعل من الجملة (21 أ) جملة أكثر "طبيعية" من رديفتها (21 ب). وتكمن "غرابة" الجملة الأخيرة في كونها ناجحة عن نقل عبارة "وهو ما يقرُّ به الكل" من خارج المجال وإقحامها بين رأس المركب العنفي وفضلته. هذا الضرب من التراكيب، في مقابل التراكيب التي من قبيل (21 أ)، يكون تأويله عادة أعسر.

بيننا في مكان آخر (المتوكل 2005 ب) أن اللغة العربية تنتمي إلى
نمط اللغات "شفافة التركيب" (في مقابل نمط اللغات "كائنة التركيب").

خاصية هذا النمط من اللغات أنها تنزع إلى فصل المجال العلاقي
عن المجال التمثيلي في مستوى البنية الصرفية- التركيبية وتقدم المجال الأول
عن المجال الثاني كما في الترسيم التالية:

(23) [مجال علاقي [رأس] مجال تمثيلي].

تتحقق في المجال العلاقي الثورة الإنجازية ومختلف السمات الوجيهية
والمكونات الحاملة لإحدى وظيفتين البؤرة والمحور بينما يُترك مجال ما بعد
الرأس لإيواء المكونات التي لا سمة علاقية لها.

فيما يخص مثالينا (22 أ) و(22 ب)، يلاحظ أن المثال الأول
تصدره العبارة الإنجازية "بصراحة" في حين أن هذه العبارة نجدها
"مرحلة" إلى مجال ما بعد الرأس في المثال الثاني. ومن الواضح أن رحلة
العبارة الإنجازية تجعل من المثال الثاني جملة ذات مقبولة دنيا إذا قيست
بالجملة (21 أ) حيث تحتل العبارة الإنجازية الموقع المعتد لها.

3.7.1 - البنية وأهداف التواصل

يرمي المتكلم من وراء خطابه إلى تحقيق هدفين أساسيين: إما إضافة
معلومة غير متوافرة في محزون المخاطب أو تعويض إحدى معلومات
المخاطب بمعلومة يعتقد المتكلم أنها المعلومة الواردة.

(أ) يظل المكون الحامل للمعلومة المراد إضافتها إلى محزون المخاطب
محتلاً لموقعه "الأصلي" داخل الجملة لا يميزه عن باقي المكونات إلا بترده
كما هو الشأن في الجملة (24 ب) باعتبارها جواباً للجملة (24 أ):

(24) أ - من زرت؟
ب - زرت هنداً.

(ب) أما حين يكون الخطاب مقصوداً به تقييد معلومة من معلومات المخاطب أو تصحيحاً فإن المكون الحامل للمعلومة المقيدة أو المصححة يرد مصحوباً بإحدى أدوات التقييد أو متصديراً لمجمله أو "مفصولاً". من أمثلة ذلك:

(25) أ - لقد زرت عائشة وهدناً

ب - ما زرت إلا هندا

ج - إنما زرت هندا

(26) أ - بلغني أنك زرت عائشة

ب - هندا زرت (لا عائشة)

ج - التي زرناها هند

د - ما عائشة زرت بل هندا.

هذه الأمثلة تبين بوضوح أن خصائص البنية الصرفية - التركيبية للعبارة اللغوية مرتبطة ارتباطاً تبعية بوظيفة التواصل خاصة بالغرض التواصل المستهدف.

4.7.1 - البنية وأنماط التواصل

للخطاب أنماط مختلفة كما هو معلوم كالخطاب العلمي والخطاب الفني والخطاب الحجاجي والخطاب السردي وغير ذلك.

ويحدد نمط الخطاب تضافر مجموعة من الوسائط أهمها أربعة هي: موضوع الخطاب وهدفه وبنيته وأسلوبه. ما نريد أن نشير إليه هنا هو أن موضوع الخطاب وهدفه يحددان بنيته وأسلوبه. بتعبير آخر، يأخذ الخطاب البنية والأسلوب اللذين يناسبان ويخدمان موضوعه وهدفه. فليس للخطاب الحجاجي البنية والأسلوب اللذين للخطاب السردى أو الخطاب الوجداني.

ليس هنا مجال التفصيل في بنية وأسلوب مختلف أنماط الخطاب. نكتفي إذن بالتذكير بما أوردناه في مكان آخر (المتوكل 2001 و2003)

عن خصائص الجملة النسبية في الخطاب السردي حيث مثلنا لها بالترسيمة (27):

(27) [حب] Ø [فعل ماض (س^ا) محور (س^ن) بؤرة جديد]].

ما يُفاد من الترسيم (27) الأمور التالية:

(1) بينما يكون المستوى العلاقي غنياً إنجازاً ووجهاً في فروع الخطاب الأدبي الوجدانية مثلاً نجدته يتسم بفقر ملحوظ في الخطاب السردى الصريف، الخطاب الذى ينأى فيه السارد عن خطابيه ويحتفظ بالخيال التام إزاء فحواه⁴.

أهم مظاهر هذا "الفقر" العلاقي انعدام السمات الوجيهة (الذاتية منها خاصة) وانحصار السمات الإنجازية في الخبر، فيما يخص هذه السمات، يجب أن نشير إلى أن القوة الإنجازية المواكبة للخطاب السردى الصريف قوة إنجازية صرفية بالأساس إذ من النادر جداً أن نجد في هذا النمط الخطابى ظاهرة ما يُسمى "الاستنزام الحوارى".

(2) مكونات الخطاب السردى جُمِلَ فعلية محمولها فعل دال على حدث ماض تام بعكس ما نجده في الخطاب الوصفي مثلاً حيث الحمل جُمِلَ صفية أو اسمية سمتها الجهيئة الغالبة سمة الدوام والثبوت.

(3) فحوى الخطاب السردى يتسم غالباً بالجدة وتكون المعلومة الجديدة معلومة يحملها أحد عناصر الجملة أو الجملة رمزتها.

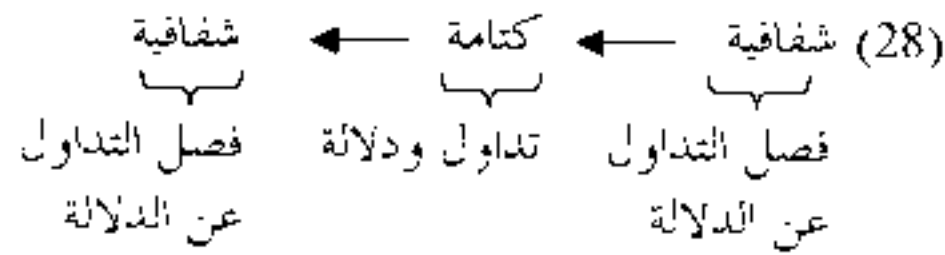
8.1- الأدوات وتطور اللغة

إذا ثبت لدينا أن وظيفة التواصل تتحكم بقسط وافر في بنية اللغة تزامنياً فإنه يُصبح من المنطقي أن نتوقع أنها تسهم أيضاً في تطورها.

بينما في مكان آخر (المتوكل 2005 ب) أن بنية اللغات تنزع إلى الشفافية وأن هذا النزوع هو الأصل لأنه يخدم التواصل ويجاحه.

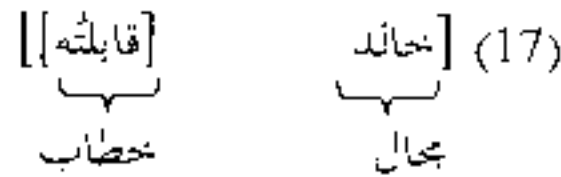
وتكمن الشفافية في الفصل الصرّفي - التركيبي بين المجال العلاقي (التداولي) والمجال التمثيني (الدلالي) وفقاً لترسيمة (14).

قد يطرأ على بنية اللغة عبر تطورها ما يفقدها شفافية بنيتها أو بعضاً من هذه الشفافية فيتمحي الفصل بين المستويين العلاقي والتمثيلي إلا أنّها سرعان ما تبدأ في السعي في استعادة شفافتها المنقودة تحاشياً للتعتم المخجل بالتواصل كما يتضح من الترسيمة التالية:

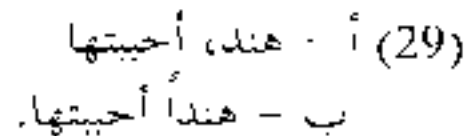


من أمثلة هذا المسلسل التطوري ثلاثي المراحل المثال التالي:

(أ) مرّ بنا أن الجملة الواردة في بداية الخطاب تنبئ عامة على مكونين مكون دال عنى مجال الخطاب ومكون يليه يدل على فحوى الخطاب وفقاً لترسيمة (17) المكررة هنا للتذكير:



(ب) بكثرة الاستعمال وتكراره ينزع المكون الخارجى إلى الاندراج داخل الخطاب ذاته فينتج عن ذلك تراكيب ما أسماه النحاة العرب القدماء "الاشتغال". بهذا الاندراج تنقلب التراكيب التي من قبيل (29 أ) إلى التراكيب التي من قبيل (29 ب):



(ج) بامتصاص المكون الدال على مجال الخطاب داخل الخطاب ذاته تصبح اللغة فاقدة القدرة على التمييز بين الخطاب ومجانه مما يخل بعملية

التواصل. وهذا وضع شاذ لا يمكن أن يطول لذلك تعود اللغة إلى إفراز التراكيب الأصلية المطابقة للترسيمة (17).

وقد يتزامن التركيبان في حقبة معينة إلا أن التركيب الثاني غالباً ما يتدرج نحو الانتراض كما حصل في اللغة العربية الفصحى المعاصرة حيث لا نكاد نعر على ما يُسمى بتراكيب "الاشتغال".

9.1 – الإداية والكليات اللغوية

لكل نمط من اللغات خصائصه التي ينفرد بها وتميزه عن غيره من الأنماط وتتطلب أن يوضع لكل نمط نموه الخاص. إلا أن لنسان الطبيعي خصائص عامة تتفاسمها اللغات على اختلاف أنماطها وهو ما يسمى "الكليات اللغوية".

إذا كانت الكليات اللغوية في النظريات اللسانية ذات المنحى التصوري كليات صرفية تركيبية ودلالية فإنها تجمع في النظريات اللسانية الوظيفية بين الوظيفة والصورة، بين بنيات معينة وما تسخر هذه البنيات لتأديته من أغراض تواصلية. بتعبير أدق، يمكن القول إن ما يجمع بين اللغات مجموعة من الوظائف تأتلف اللغات أو تختلف في التراكيب التي يتوسل بها في تحقيق هذه الوظائف.

مثال ذلك أن تصحيح المعلومات الذي مرّ بنا وظيفة من الوظائف الكنية تتحقق حسب أنماط اللغات إما عن طريق الرتبة أو عن طريق صُرفات معينة أو بواسطة تراكيب مخصوصة ("الفصل" أو "شبه الفصل" مثلاً).

10.1 – الإداية واكتساب اللغة

يُفطر الطفل باعتباره كائناً بشرياً على مجموعة من المبادئ العامة – هي ما أسميناها الكليات اللغوية – تمكنه بمعونة محيطه من اكتساب لغة معينة، لغة العشرة اللغوية التي ينمو فيها.

حسب المقاربة الوظيفية، لا يكتسب الطفل قدرة لغوية محضة بل قدرة على التواصل مع محيطه الاجتماعي، لا يتعلم أصوات لغته وقواعد صرفها وتركيبها بل يتعلم معها ما تؤدبه من أغراض تواصلية.

بتغيير آخر، يكتسب الطفل في محيط اجتماعي معين نسقين مترابطين، نسق اللغة ونسق استعمالها معاً. يستضمر الطفل أثناء عمدية الاكتساب قواعد لغته ويستضمر في ذات الوقت ما يحكم استعمالها في مقامات التواصل. يختزن متعلم اللغة العربية مثلاً قاعدة نقل أحد مكونات الجملة إلى الموقع الصادر ويختزن معناها في وقت واحد أنها تجري في موقف معين، حين يكون المقصود من التواصل تصحيح إحدى معلومات المخاطب.

2 - أدوات اللغة وصياغة النحو

يتوجب في صياغة الأبحاث أن يستجيب لمجموعة من الشروط والمعايير أهمها معيار الانسجام (أو عدم التناقص) بين "الجهاز الواصف" والمبادئ المنهجية المتبناة داخل نفس النظرية.

1.2 - مفهوم النحو

لا ينطبق مصطلح "النحو" على مفهوم واحد بل على عدة مفاهيم أهمها أربعة: أولاً: النحو في مقابل اللسانيات، وثانياً: النحو باعتباره فرعاً من فروع الدرس اللغوي وثالثاً: النحو باعتباره نموذجاً صورية لنواقع اللغوي ورابعاً: النحو بالمعنى الواسع أي النظرية.

1.1.2 - النحو / اللسانيات

دأب المشتغلون بتاريخ الدرس اللغوي على التمييز بين المرحلة القديمة، مرحلة الدراسات النحوية، والمرحلة الحديثة، مرحلة اللسانيات.

إذا كان الاتفاق حاصلًا على التمييز بين هاتين المرحلتين الكبيرتين فإنه حاصل كذلك على جعل نشأة اللسانيات مطابقة لظهور كتاب

ديسوسير الشهير إلا أن قلة من مؤرخي اللسانيات تدرج في المرحلة الثانية الدراسات اللغوية التاريخية - المقارنة التي ازدهرت في القرن التاسع عشر.

الفرق بين الدراسات اللغوية القديمة والدرس اللساني الحديث فرق هام ومن الواضح مالا يدع مجالاً لمجادل. وانقصر على هذا الفرق البين والحديث عن المرحلتين كأنهما شيء واحد لا يمكن أن يكون إلا خطأ يستمولوجيا فادحاً.

من الممكن أن تُرجع الفرق بين الفكر اللغوي القديم والفكر اللساني الحديث إلى أربعة محاط: ظروف الإنتاج والموضوع والهدف والمنهج.

(أ) من حيث ظروف الإنتاج، توافر للسانيات من المحيط العلمي ومن الاستفادة من مختلف العلوم ما لم يتح للمدرس اللغوي القديم وإن كان له أيضاً محيطه الفكري والثقافي الخاص به. مما أفادت منه اللسانيات كما هو معلوم الفلسفة والمنطق والرياضيات الحديثة وعلم النفس والاكتشافات التكنولوجية كالحاسوبيات.

(ب) من حيث موضوع الدراسة لم يجاوز الفكر اللغوي القديم حدود اللغة الواحدة والتعديد هذه اللغة الواحدة (الهندية أو العربية أو الفرنسية مثلاً) في حين أن موضوع اللسانيات هو اللغات على اختلاف أنماطها أو بالأحرى الملكة اللسانية التي تتميز بها الكائنات البشرية.

(ج) كان الهدف الأساسي من الدراسات اللغوية في القديم تعليم اللغة والحفاظ عليها من أن يشوبها غن أهلها أو الواردين عليها. في مقابل هذا، تسعى اللسانيات عبر دراسة مختلف أنماط اللغات إلى إقامة "نحو كلي" يضطلع برصد خصائص اللسان الطبيعية بوجه عام.

(د) يقوم النحو القديم على أوصاف متفرقة لأبواب مختلفة في الغالب الأعم. هذا لا يعني بحال أن روح التنظير غير موجودة عند قدماء اللغويين إنما يعني أن منهج اللسانيات منهج مغاير يقوم على بناء نماذج

خاضعة لقواعد الإستنباط وقوانين الصورة العلمية وقابلة لأن تُرَازَ حاسوبياً.

بيناً ودافعنا في مكان آخر (المتوكل 1982) عن موقفنا من الفكر اللغوي القديم وتصوّرنا لما يمكن أن يقوم بينه وبين اللسانيات الحديثة من علاقة وهو التصور الذي يمكن أن نلخصه كالتالي:

ما رصدناه وما يمكن أن يُرصد من فروق بين هذين الفكرين لا يعني أن هذه الفروق مهما بلغ عمقها لا تفصل اللسانيات عما سبقها فصل قطيعة.

سنعود إلى هذه القضية الكبرى في الفصل الرابع لما لها من أهمية بالنظر إلى ابستمولوجيا الدرس اللغوي وتاريخه.

2.1.2 - النحو فرعاً

يطلق مصطلح النحو كذلك على فرع من فروع الدرس اللغوي قديمه وحديثه يختص بالتركيب أو بالصرف أو يشملهما معاً.

مثال ذلك كتب النحو العربي نثراً كانت أم نظماً. إلا أن النحو بهذا المعنى يحيل في النظريات اللسانية الحديثة على مستوى من مستويات التمثيل (أو التحليل). ويكون مستوى التحليل هذا تارة محصوراً في التركيب وتارة جامعاً بين الصرف والتركيب في النظريات التي لا تفصل بينهما.

وتجدر الإشارة إلى أن النحو باعتبارده مستوى تحليلياً يتعالق مع مستويات أخرى كالمستويين الصوتي والدلالي داخل جهاز واصف واحد كما سيبين لنا في الفقرة الموالية.

3.1.2 - النحو النموذج

أحدث استعمالات مصطلح النحو وأكثرها انتشاراً الآن في الأدبيات اللسانية إطلاقه على الجهاز الوصف نفسه. وقد يتوسّع في ذلك فيطلق هذا المصطلح باعتباره اسماً علمياً على نظرية لسانية بعينها. من أمثلة هذا التوسّع "النحو التوليدي التحويلي" و"النحو المعجمي الوظيفي" و"نحو الأحوال" و"النحو المركزي المعمّم" و"النحو الوظيفي".

مرّ بنا أن منهجية الدرس اللساني الحديث تقوم على صياغة نموذج مصورن لقدرة المتكلم - السامع اللغوية / التواصلية.

مرت هندسة النموذج بمرحلتين:

(أ) في المرحلة الأولى، كان النموذج ينبنى على مجموعة من "المكونات" كالمكون التركيبي (أو الصرفي - التركيبي) والمكون الدلالي والمكون الصوتي يحدّد عددها عدد المستويات التمثيلية المقترحة وترتبط بينها علاقات معينة.

(ب) أمّا في المرحلة الثانية فيصاغ النموذج على أساس "القالبية" حيث يتكوّن من مجموعة قوالب ينفرد كل قالب منها بمبادئه وإوالياته الخاصة باعتباره قالباً مستقلاً إلا أن هذه القوالب يفضي بعضها إلى بعض فيكون بعضها "دخلاً" أو "خروجاً" لبعض. من الواضح أن هذه الهندسة القالبية مستوحاة من الأنساق المعلوماتية بالإضافة إلى ما توصلت إليه الدراسات النفسية - اللغوية في موضوع التكوين القالبي للدماغ البشري.

2.2 - مبدأ الانسجام وبناء النحو

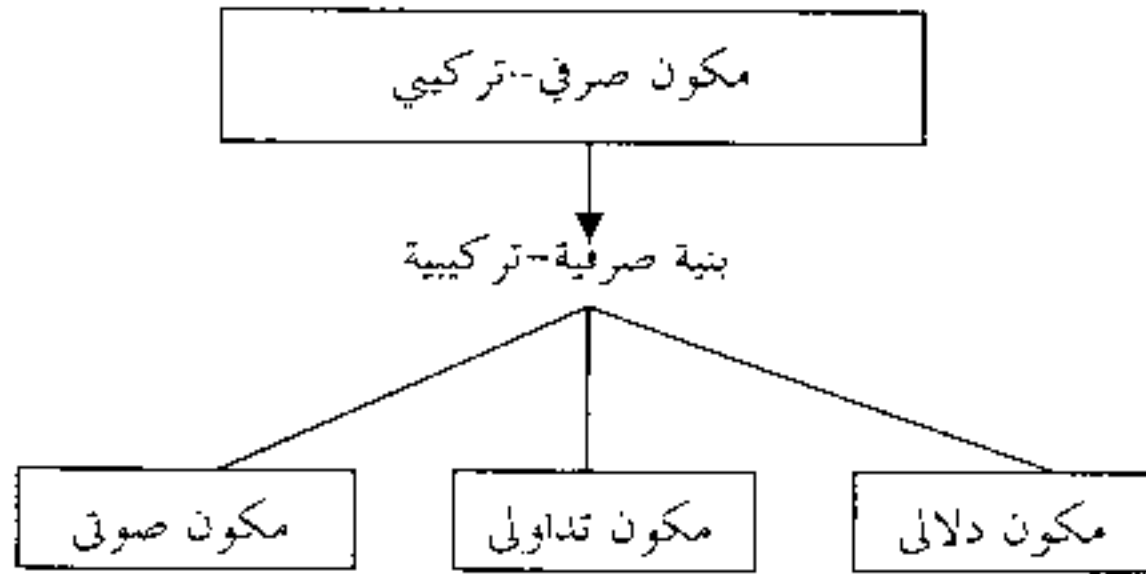
من أهم شروط التنظير اللساني (والتنظير العلمي عامة) شرط الانسجام القاضي بأن يصاغ الجهاز الوصف وفقاً لطبيعة النظرية التي تفرزه وينطلقاً منها المنهجية. بتعبير آخر، يقضي شرط الانسجام إلا تناقض

صياغة النموذج ما تتبناه النظرية من فرضيات عامة عن بنية اللغة (ووظيفتها).

يحكم شرط الانسجام صياغة الجهاز الواصف في جانبين أساسيين اثنين: عدد القوالب (أو المكونات) والعلاقات القائمة بينها.

(أ) يتوقع من النظريات اللسانية التي تستبعد أدوات اللغة وتُحصر القدرة في القدرة اللغوية الصرف أن يصاغ النموذج فيها اقتصاراً على ثلاثة مكونات (أو قوالب) هي المكون التركيبي - الصرفي والمكون الدلالي والمكون الصوتي وعلى أساس أن المكونين الثاني والثالث مكونان "تأويليان" لا تأثير لهما في المكون الصرفي - التركيبي ذي الاستقلال التام. وحين يضاف في هذه النظريات مكون تداولي فإنه يأخذ الوضع الذي يأخذه المكونان الدلالي والصوتي ويقوم بنفس الدور التأويلي بالنظر إلى البنية الصرفية - التركيبية كما توضح ذلك الترسمة التالية التي تفترض أنها تمثل بنية النموذج في أي نظرية صورية دون تحديد:

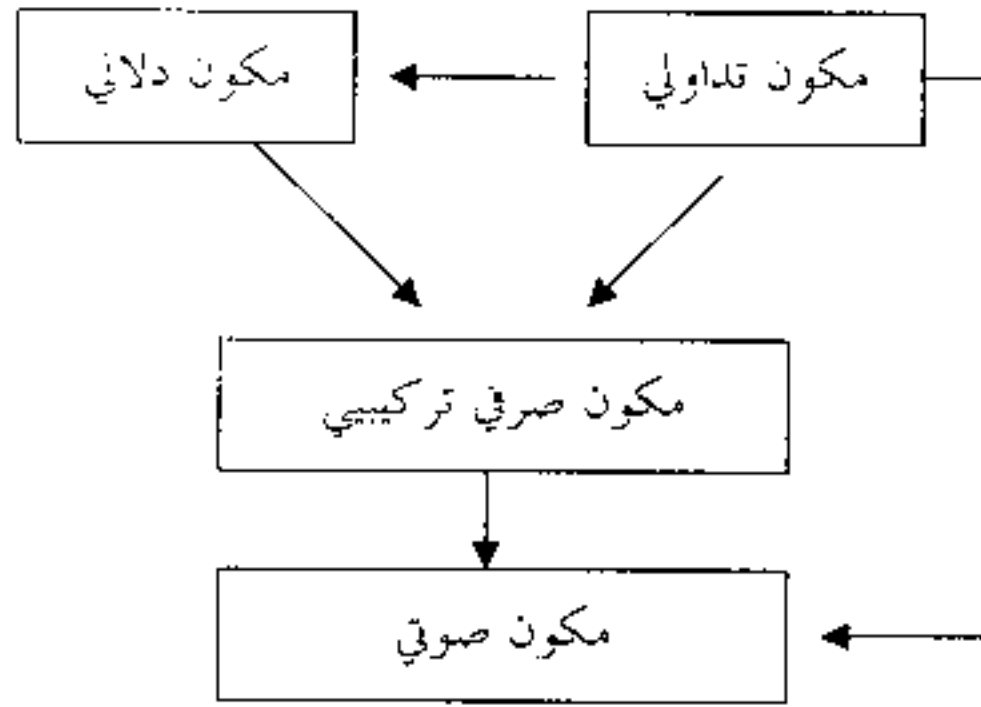
(30)



ملحوظة: يمكن أن يجرأ المكون الصرفي - التركيبي إلى مكون قاعدي يعني بتحديد بنية عميقة ومكون تحويلي ينقلها إلى بنية سطحية كما يحصل في بعض النماذج التوليدية - التحويلية.

(ب) أما في النظريات التي تعتمد أدوات اللغة كمنطلق منهجي أساسي وتسعى في وصف القدرة التواصلية فيتوقع أن يُصاغ الجهاز الواصف، استجابة لشرط الانسجام، على أساس إضافة مكون تداولي يشكل مع المكون الدلالي دخلاً للمكونين الصرفي - التركيبي والصوتي فتكون الترسيمة للجهاز الواصف النمطي في كل نظرية وظيفية هي الترسيمة (31):

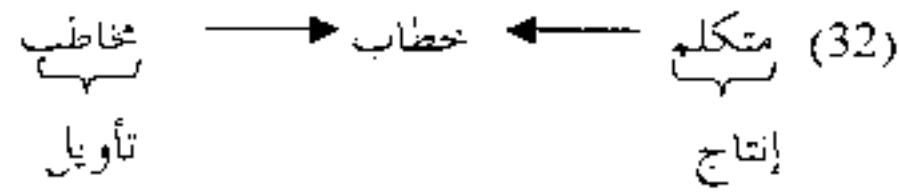
(31)



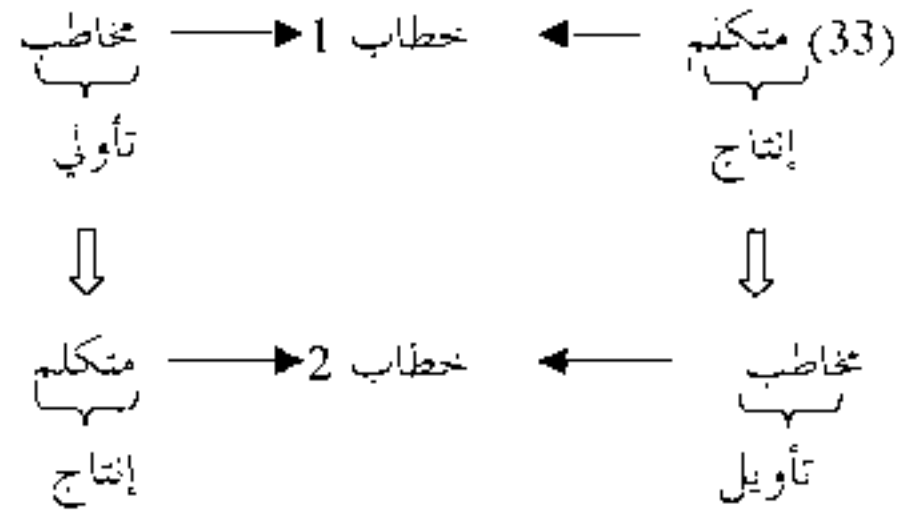
يفاد من هذه الترسيمة أن المكون التداولي يتخذ وضعاً قاعدياً بالنسبة للمكونات الأخرى حيث يُسهم في إمدادها ثلاثتها بما يحتاج إليه اشتغالها من معلومات.

3.2 - وظيفة التواصل وهندسة النحو

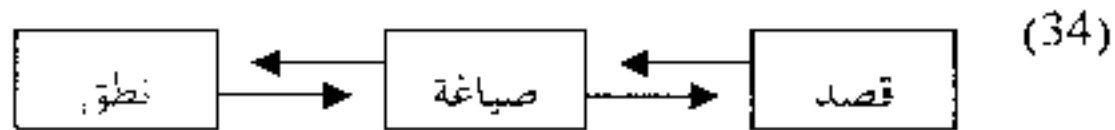
لعملية التواصل عامة شقان اثنان: شق إنتاج وشق تأويل. ينتج المتكلم خطاباً (شفوياً أو كتابياً) يتولى المخاطب تأويله كما يتبين من الترسيمة التالية:



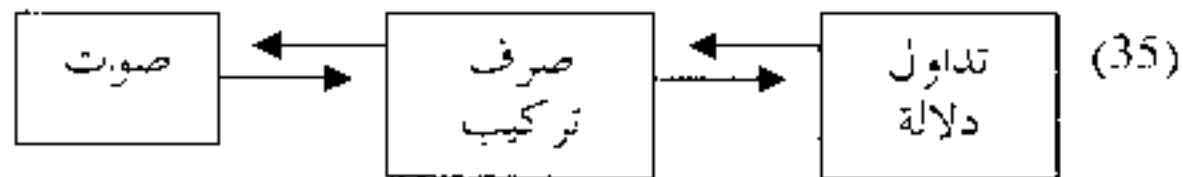
قد تتوقف عملية التواصل عند هذا الحد حيث لا رد. إلا أن الغالب هو أن يردّ المخاطب بخطاب ثانٍ حيث تعكس العملية فيصبح المخاطب متكلماً والمتكلم الأول مخاطباً كما تبين ذلك الترسيم (33):



إذا كان إنتاج الخطاب ينطلق من القصد إلى النطق مروراً بالصياغة الصرفية - التركيبية وكان تأويله يتخذ الاتجاه المعكوس حيث الانطلاق من المنطوق فتفكيك الصياغة ثم الوصول إلى القصد، فيتوقع من كل نظرية وظيفية أن تصوغ جهازاً واصفاً متكاملًا يفي برصد عمليتي الإنتاج والتأويل معاً ويكون بناؤه بالشكل التالي:



إذا حدّدنا فحوى كل مكون من مكونات الترسيم (34) يمكن القول إن بناء النموذج النمطي في النظريات الوظيفية هو البناء (35):



3 - الوظيفية بين المفهوم والمصدق

عدد غير قليل من النظريات اللسانية تُنعت بالوظيفية كالمدرسة الوظيفية الفرنسية (مارتيني) والمدرسة النسقية (هاليداي) ومدرسة براغ (دانيش) والتركيبات الوظيفية الأمريكية (كونو) ونظرية النحو الوظيفي (ديك 1997). وهناك نظريات أخرى لا تحمل هذه الصفة إنما تأخذ بنفس المبادئ. مثال ذلك "نظرية الأفعال اللغوية" في فلسفة اللغة العادية وما سُمي في حقبة معينة من تاريخ النظرية التوليدية التحويلية "الفرضية الإنجازية" (لاكوف). بل إننا نجد في الدرس اللغوي القديم إرهابات واضحة للوظيفية وإن لم نجد فيه استعمال هذا المصطلح.

يشير هذا الوضع التساؤل الأساسي التالي: متى يحق القول عن نظرية ما إنها نظرية وظيفية وما الذي يمكننا من تقوم النظريات الوظيفية والمفاضلة بينها؟

إسهاماً في الإجابة عن هذا السؤال، نقترح تصوراً عاماً لمواصفات النظرية الوظيفية المثلى نأمل أن يتيح لنا التعرف على الجوانب الوظيفية في نظرية ما ومدى وظيفيتها.

وبهذا التصور العام نفسه نستطيع أن ننقل ثنائية القديم / الحديث من محور زمني يهضم القديم حقه في غالب الأحوال إلى محور معرفي حيث نتبين أنه لا توجد قطعة بين النظريات الوظيفية الحديثة والدرس اللغوي العربي القديم (باعتباره كلاً يجمع بين النحو والبلاغة والتفسير وأصول الفقه) وأن الفرق فرق درجة لا فرق نوع، فرق يُقاس بمدى الاقتراب من النظرية الوظيفية المثلى ومدى الابتعاد عنها.

1.3 - النظرية الوظيفية المثلى

ما نصطلح عليه بالنظرية الوظيفية المثلى هنا هو مجموعة من المواصفات نستخلصها مما تصمح إليه النظريات ذات المنحى الوظيفي وتجتهد في تحقيقه أو في تحقيق القسط الأوفر منه.

من هذه المواصفات ما يتعلق بالمنطلق والهدف ومنها ما يخص طريقة النمذجة.

1.1.3 - المنطلق

نستطيع أن نقول إن النظرية الوظيفية المثلى، من حيث المنطلق، هي النظرية التي تجمع المبادئ المنهجية العامة العشرة التي عرضنا لها في الفقرات 1-10 السابقة.

إنها، بتعبير أدق، النظرية التي تنطلق من مبدأ أدوات اللغة مُرجعة وظائفها الممكنة إلى وظيفة التواصل وتؤسس على هذا المبدأ وصف بنية اللغات صرفاً وتركيباً وصوتاً وتطورها. وهي كذلك النظرية التي تجعل من وظيفة التواصل أساساً للبحث في إشكالات التنظير اللساني الكبرى كإشكال اكتساب اللغة وإشكال الكليات اللغوية.

2.1.3 - الهدف

من شروط ولوج الدرس اللغوي حظيرة التنظير اللساني العلمي التحلي عن - أو على الأقل مجاوزة - المهدفين التقليديين. الوصف المحض لظواهر اللغة والتعميد للغة تقييداً تعليمياً يتوخى الحفاظ عليها من اللحن.

الهدف الأساسي الذي ترمي كل نظرية لسانية إلى تحقيقه هو تحصيل ما يسمى "الكفاية". إلى حدّ الآن، كانت الكفاية التي سعت النظريات اللسانية في بلوغها هي الكفاية الكامنة في وصف ظواهر اللغات الطبيعية وتفسيرها. ويمكن - إن لم نقل يجب - في نظرنا أن تجاوز النظرية اللسانية المثلى هذه الكفاية اللغوية الصرف إلى كفاية أبعد وهي ما أسميناه في مكان آخر (المتوكل 2005 ج) "الكفاية الإجرائية".

1.2.1.3 - الكفاية اللغوية

يمكن القول إن مجاوزة كفاية الوصف (الذي لم يتعدّها الدرس اللغوي البنيوي التصنيفي والتوزيعي) إلى كفاية التفسير تحصل حين تربط دراسة اللغات بثلاثة أمور أساسية هي: أولاً: قدرة المتكلم - السامع وثانياً: اكتساب اللغة، وثالثاً: النحو الكلي.

(أ) من أهم وأبرز مظاهر الثورة التي أحدثتها النظرية التوليدية التحويلية في مجال اللسانيات نقل الدرس اللغوي من البحث في المعطيات والوقائع اللغوية التي لا يمكن حصرها وتجميعها بحال إلى البحث في قدرة المتكلم - السامع التي تمكن من إنتاجها وفهمها.

ويُشترط في النظرية الوظيفية المثلى أن توسع هذه القدرة بالأخذ بعين الاعتبار طاقات ومعارف أخرى إضافة إلى الطاقة والمعرفة اللغوية (النحوية) الصّرف.

(ب) من قدرة المتكلم - السامع التواصلية ما هو فطري غير ناتج عن تعلم وما هو مكتسب يتعلمه الطفل تعلمًا بمعونة ما فطر عليه وما يتقنه إياه محيطه اللغوي - الاجتماعي.

في النظرية الوظيفية المثلى، يُعدُّ ما يفطر عليه الطفل وما يتعلمه مجموعة أزواج من البنيات والوظائف.

(ج) أعلى أهداف التنظير اللساني العنمي مجاوزة البحث في القدرة الخاصة لُغة معينة إلى استكناه الملكة اللسانية العامة المتوافرة لدى الكائن البشري. لبلوغ هذا الهدف، تسعى النظريات اللسانية على اختلاف مشاربها في بناء نحو كفيّ تتفرّع عنه أنحاء خاصة للغات معينة أو لأنماط معينة من اللغات.

دافعنا في مكان آخر (المتوكل 2003) عن أطروحة ظلت مستبعدة وهي أن الكلية لا تناقض الوظيفية وأنه من الممكن الحديث عن نحو كفيّ

وظيفي وبيتنا في معرض الدفاع عن نفس الأطروحة أن ما يجب أن تسعى في بلوغه النظرية الوظيفية المثلى هو بناء نحو كلي وظيفي يكون بالإمكان إدراجه في نظرية وظيفية تواصلية عامة تتضمن وتحكم جميع أنساق التواصل باختلاف قنواته (اللغوية وغيرها).

2.2.1.3 - الكفاية الإجرائية

مرت اللسانيات الحديثة بمرحلتين أساسيتين اثنتين: مرحلة تصنيفية محض تتمثل في اللسانيات البنيوية والتوزيعية خاصة ومرحلة تنظيرية بدأت كما هو معلوم بظهور النظرية التوليدية التحولية.

بعد استكمالها لأدوات التنظير العلمي وإواليات التحليل وبناء أجهزة وصف كافية نظن أن النظريات اللسانية معدة لأن تجاوز حقل وصف وتفسير الظواهر اللغوية إلى حقل آخر أعم هو حقل ما يمكن تسميته "القطاع الاقتصادي-الاجتماعي".

مقصودنا هنا هو مجموعة مجالات التواصل التي تستخدم فيها اللغة إما كلياً كالترجمة بمختلف أنواعها (البشرية، الآلية، الفورية...) أو جزئياً (الأشرطة السينمائية، الأغاني...). ومما يدخل في هذا الحقل نفسه الاضطرابات اللغوية الراجعة إلى أمراض نفسية أو عقلية. بل إنه من الممكن الذهاب إلى أبعد من ذلك والقول إن النظريات اللسانية - أو بعضها على الأقل - معدة الآن لأن تلج كذلك الأنساق التواصلية التي لا تستخدم اللغة كالإيماء والرسم والأفلام الصامتة والقطع الموسيقية "الصامتة".

إذا نحن آمننا بأن للتواصل بمختلف قنواته اللغوية وغير اللغوية نسفاً عاماً موحدًا وبأن النظريات اللسانية قادرة على وصف هذا النسق، أصبح من المنتظر من النظرية الوظيفية المثلى أن تحصل كفايتين اثنتين، كفاية لغوية وكفاية إجرائية، كفاية وصف ظواهر اللغة وتفسيرها (بالطريقة

الأنفة الذكر) وكفاية الإسهام في جانب مهم على الأقل من قطاعات التواصل الاجتماعية--الاقتصادية التي تستخدم اللغة بكيفية من الكيفيات.

3.1.3 - النمذجة

من المعلوم علمٌ بداهة ان المنطلق المنهجي والهدف المتغيي يحددان الوسيلة. فإذا كان منطلق النظرية الوظيفية المثلى أداتية اللغة وتبعية بنيتها لوظيفة التواصل وكان هدفها إحراز الكفاية اللغوية والكفاية الإجرائية معاً يصبح من المتحتم على هذه النظرية، بمقتضى مبدأ الانسجام الأنف ذكره، أن تصوغ جهازها الواصف بحيث يستجيب لمنطقها المنهجي وهدفها المنزودج.

من المؤمل أن تبني النظرية الوظيفية المثلى جهازها الواصف على أساس المتطلبات التالية:

(أ) يقتضى تحصيل الكفاية اللغوية أن تكون لنجهاز الواصف:

(1) أولاً: خاصية توافر مكون (أو قالب) تداولي مفصول عن مكون الدلالة أو مضموم إليه؛

(2) ثانياً: خاصية تحية المكونين التداولي والدلالي بالنظر إلى المكونين الصرفي - التركيبي والصوتي المسؤولين عن تسطيح العبارة اللغوية كما يتبين من الترسيمة (31) والترسيمة (35)؛

(ب) يستلزم بنوع الكفاية الإجرائية أن يتم بناء الجهاز الواصف على أساس أن يُحوز انطباقية قصوى لا في مجال اللغات فحسب بل كذلك في مختلف "القطاعات" التي تستخدم اللغة.

لتحصيل الانطباقية العامة المرجوة يجب أن يصل فحوى مكوناته إلى أكبر قدر من التجريد فيكون صالحاً للغة وغيرها.

(ج) بتحصيله قدرأ معقولأ من التجريد، يُصبح الجهاز الواصف قابلاً للاندرآج في النظرية الوظيفية العامة التي تفرز وتحكم مختلف أنساق التواصل، اللغوية منها وغير اللغوية؛

(د) من المظامح التي غدا التنظير النسائي يسعى في الوصول إليها كفاية إضافية هي "الكفاية الحاسوبية".

دور بلوغ هذه الكفاية في الواقع دور رُوْزي يمكن من التأكيد من مدى صورةنة الجهاز الواصف وإوالياته ومدى صحتها.

2.3 – النظريات الوظيفية: المنجز والمرتقب

يمكن أن تفترض أن النظرية الوظيفية المثلى التي حددنا معالمها في الفقرات السابقة قائمة من المواصفات يمكن أن نرؤز على أساس مدى إحرازها وظيفية النظريات اللغوية قديمها وحديثها.

1.2.3 – النظريات اللسانية

مر بنا أن أبرز النظريات اللسانية الحديثة التي تنحو منحى وظيفياً هي "النسقية الوظيفية" و"الوجهة الوظيفية للجملة" و"التركيبات الوظيفية" و"الفرضية الإنجازية" و"نظرية النحو الوظيفي". من هذه النظريات ما توقف كالوجهة الوظيفية للجملة والفرضية الإنجازية ومنها ما لا يزال حاضراً في الحقل اللساني كالنسقية الوظيفية والتركيبات الوظيفية ونظرية النحو الوظيفي. ومنها ما يشكل نظرية لسانية قائمة بذات كالنسقية الوظيفية ونظرية النحو الوظيفي ومنها ما هو مدمج في أحد نماذج النظرية التوليدية التحويلية كما هو شأن الفرضية الإنجازية والتركيبات الوظيفية.

لن نتوقف هنا عند كل نظرية بعينها وإنما سنكتفي بتمريرها مجموعة بالمواصفات التي حددناها لتبين أيها أقرب مما أسميناه النظرية الوظيفية المثلى من حيث المنطلق والهدف ثم النمذجة.

نريد أن نشير قبل بدء عملية التقويم هذه، مشددين الإشارة، إلى أمرين هامّين:

أولهما: أن التقويم لا يعني إلا النظريات ذات الطابع الوظيفي الآتية الذكر وثانيهما وأهمهما أنه تقويم نسبي يستمد وروده وقيّمته من المواصفات التي افترضنا أنها خصائص النظرية الوظيفية المثلى بحيث لا يمكن أن يعدّ تقويمها مطلقا ولا نهائيا.

1.1.2.3 – التفاوت في المنطلق

تتأسر النظريات اللسانية التي تعيننا هنا في المنطلقات المنهجية الأولية، فهي جميعها تؤمن بمشروعية الوظيفة في الدرس اللغوي وأداتية اللغة وتبعية بنية اللغة لوظيفة التواصل كما تؤمن بتأثير المستعملين وسياق الاستعمال في نسق اللغة.

في مقابل هذا التآلف نلاحظ بين هذه النظريات اختلافا يمكن رده إلى ما يلي:

(أ) لكل نظرية مصطلحاتها الخاصة بما تفرزها أو تأخذها من الإطار العام الذي تنتمي إليه لكن هذه المصطلحات تحيل في غالب الأحوال على نفس المفاهيم الوظيفية؛

(ب) بالنظر إلى بعض المنطلقات المنهجية التي تتعلق بالكليات اللغوية واكتساب اللغة وتطورها يمكن تقسيم النظريات المعنية بالأمر إلى فئات ثلاث:

(1) ثمة نظريات لم تُعنَ بهذه القضايا أو لم تعطيها ما تستحق من عناية وهي النظريات التي ظلت متأثرة باللسانيات البنيوية حيث لا حديث عن الكليات اللغوية ولا بالأحرى عن نحو كلي؛

(2) ومن هذه النظريات ما نحا منحى وظيفيا لكن ظل يتبنى الموقف الأصلي من القضايا الثلاث. وذلك ما حصل في فروع النظرية التوليدية ذات الاتجاه التداولي الوظيفي كالفرضية الإنجازية والتركيبات الوظيفية التي لم تعد النظر، فيما نعلم، في قضايا اكتساب اللغة والكليات اللغوية والنحو الكلي من منطلق وظيفي؛

(3) أما الفئة الثالثة فتمتاز بتجميع المنطلقات الوظيفية العشرة كلها مع مقارنة قضايا الاكتساب والكليات والنحو الكلي على أسس وظيفية. أبرز مثال هذه الفئة، فيما نعلم، نظرية النحو الوظيفي؛

(ج) بعد حقبة من الزمن غير قصيرة ظل فيها الدرس اللغوي مرتقنا بمفهوم "التزامنية" السوسيري، عادت اللسانيات الحديثة إلى الدراسة التقارنية لكن على أساس مفاهيم جديدة كمفهوم "الوسائط" التي استخدمته النماذج الأخيرة في النظرية التوليدية التحويلية. وظهر في نفس الاتجاه ما سُمي "اللسانيات الترميمية" التي تعني، في إطار وصفي صرف، تصنيف اللغات على أساس معايير بنيوية كالترتبة مثلاً.

• ما يلحظ في هذه الأدبيات أن مقارنة القضيتين المتلازمتين قضية الترميم وقضية التطور، ظلت مقارنة صورية والملاحظ، أيضاً، أن النظريات الوظيفية لم تكن كغيرها من النظريات المركزية باستثناء نظرية النحو الوظيفي التي جعلت من مراميها الكبرى ترميم اللغات ورصد تطورها من منظور ترابط البنية والوظيفة وتبعية الأولى للثانية.

2.1.2.3 - التفاوت في الهدف

تسعى النظرية الوظيفية المثلى، كما رأينا، في مجاوزة كفاية الوصف إلى تحقيق كفاية التفسير ومن المفروض أن تسعى كذلك وبعد ذلك في تحصيل ما أسميناه الكفاية الإجرائية.

مما لا يمكن إنكاره أن النظريات الوظيفية -- أو بعضها على الأقل كـ نظرية النحو الوظيفي -- قد بلغت مبلغاً معقولاً في سعيها نحو إحراز كفاية التفسير وربطها بدراسة اللغة بقضايا الاكتساب والكليات اللغوية والنحو الكلي وبولوجها مجالي التنميط ورصد التطور.

أما السعي في تحصيل الكفاية الإجرائية فما زال متفرقاً يلتمس الطريق. من الجهود في هذا الاتجاه ما قيم به في مجال الترجمة في إطار النظرية النسقية ونظرية النحو الوظيفي وما قيم به في مجال الاضطرابات اللغوية والتواصل الإشاري في إطار نظرية النحو الوظيفي.

قد سبق أن أشرنا إلى أن النظريات اللسانية الحديثة تصبو إلى روز إوائها ومدى صورتها وصحتها عن طريق الحوسبة وهو ما يسمى "الكفاية الحاسوبية".

فيما يخص النظريات الوظيفية، المثال الذي نعرفه -- ولعله المثال الوحيد في حقل الوظيفيات -- برنامج "بروفكلوت" الذي وضع لحوسبة نظرية النحو الوظيفي وتطبيقها محوسبة في كل من مجالي المنطق الوظيفي والترجمة المتعددة اللغات.

3.1.2.3 - التفاوت في النمذجة

تناولنا في فقرة سابقة ما يُشترط في نمذجة النظرية الوظيفية المثلى وفقاً لما تتبناه هذه النظرية من منطلقات وأهداف. ورأينا بتعبير أدق، أن هذه الشروط تخص عدد مكونات الجهاز الواصف وفحواها وطريقة اشتغال بعضها مع بعض.

نريد الآن أن نحاول الإجابة عن السؤال التالي: إلى أي مدى استجابت النظريات اللسانية الوظيفية التي تعيننا هنا لهذه الشروط في بناء أجهزتها الواصفة.

(أ) لنذكر أولاً بالتمييز داخل النظريات اللسانية ذات المنحى الوظيفي بين التي تتخذ إطاراً لها نموذجاً جاهزاً كنظري التركيبات

الوظيفية والفرضية الإبحازية والنظريات التي بنت نموذجاً يخصها كمنظريتي النسقية الوظيفية والنحو الوظيفي.

(ب) في سعيها في تحصيل الكفاية اللغوية (كفاية التفسير خاصة) يتضمن الجهاز الواصف مكوناً وظيفياً قائم الذات في كل هذه النظريات الأربع يتخذ وضع المكون القاعدي بالنسبة للمكونين الصريفي - التركيبي والصوتي في مقابل هذا التآلف من حيث وجود المكون الوظيفي ومن حيث قاعدية اشتغاله، ثم اختلاف وتفاوت مدحوظان في فحوى هذا المكون. فإذا نحن انطلقنا من أن المكون الوظيفي تام الفحوى يشمل الخصائص الوجهية التي تُحدد مواقف المتكلم من مضمون الخطاب بالإضافة إلى الخصائص الإبحازية (سواء ما يتعلق بالقوة الإبحازية الخرفية أو القوة الإبحازية المستلزمة) والوظائف التداولية (محور / بؤرة أو معطى / جديد) نلاحظ أن هذا الشمول حاصل في النظرية النسقية ونظرية النحو الوظيفي وغير حاصل في التركيبات الوظيفية حيث التركيز على الوظائف التداولية (وظيفي المعطى والجديد خاصة) كما نجد غير متوافر في اقتراح الفرضية الإبحازية التي تقصر التمثيل التداولي التحي على القوة الإبحازية و"الاقتضاء"، أحد مفاهيم ما سُمي في حقبة معينة "المنطق الطبيعي".

في نفس سياق التفاوت في شمول المكون الوظيفي القاعدي، نلاحظ أن نظرية النحو الوظيفي تتميز بكونها لا تكتفي بثائية المعطى / الجديد (أو المحور / البؤرة) العامة بل تجاوزها فتميز داخل المحور والبؤرة بين عدة محاور وبؤر فرعية. حجتها في هذا التفريع أن ثنائية المحور / البؤرة لا يمكن أن تفي برصد وتفسير الفروق التي نجدها في لغات كثيرة داخل التراكيب المحورية والتراكيب البؤرية نفسها.

من هذا التعدد والاختلاف داخل البنيات البؤرية ما مثلنا له بالتراكيب (24 أ-ب) و(25 أ-ج) و(26 أ-د) الأنف سوقياً.

(ج) لا نجد في نماذج النظريات الوظيفية ما يكفل إحراز الكفاية الإجرائية إذا استثنينا محاولتي نظرية النحو الوظيفي التاليين:

(1) إدخال الخطاب الإشاري كخارج ممكن إضافة إلى الخطابين الملفوظ والمكتوب؛

(2) وصوغ الجهاز الوصف صياغة مزدوجة تمكن من الاضطلاع بعملية توليد الخطاب وتحليله وتوكله بهذه الإزدواجية لأن يشتغل في الترجمة بكل أتماطها.

ليس من الممكن أن نقيم تراتبية مضبوطة ومنققة للنظريات الوظيفية موضوع الفحص هنا. إنما يمكن أن نستخلص أن أقربها، في الوقت الراهن، إلى ما افترضنا أنها النظرية الوظيفية المثلى هي نظرية النحو الوظيفي.

يدعم هذا الزعم جميع هذه النظرية لأكثر عدد من المنطقات المنهجية الوظيفية وسعيها في مجاوزة الوصف إلى التفسير الوظيفي بل إلى محاولة ولوج قطاعات اجتماعية - اقتصادية ضلت خارج حيز الدرس اللساني وبنائها لنحو يجمع بين الوظيفية والصورنة والقابلية للحوسبة ويمثل لا للمعرفة اللغوية فحسب بل كذلك لكل المعارف والطاقت التي تسهم بشكل أو بآخر في عملية التواصل إنتاجاً وفهماً.

2.2.3 - الدرس اللغوي القديم

يقف المقومون للدرس اللغوي القديم عامة (عربياً كان أم غير عربي) موقفين.

منهم من يؤمن بالأ فرق يوجد بين القديم والحديث وأن القديم يُنادُ الحديث إن لم يكن يفضله ولكنه يرفض إخضاع القديم لمعايير تقويم الحديث. ومنهم من يقوم القديم على أساس ما يشترط في الحديث فيرفض القديم جملة وتفصيلاً اعتباراً لقصوره العلمي.

الموقف السليم في نظرنا هو الموقف التالي:

إن لندرس اللغوي القديم سماته وخصائصه التي هي ناتج سياقه التاريخي ومحيطه المعرفي. لذلك، تلافياً للإسقاط وللتحيف معاً، يجب أن نحكم في تقويمنا لهذا النتاج ما نحكمه في تقويم النظريات اللسانية الحديثة خاصة معايير علوم العصر وتقنياته. إلا أن هذا التباين، بلغ ما بلغ، لا يرفع فيما يخصنا، وجود مفاهيم ومقاربات وظيفية في الدرس اللغوي القديم وإن سميت بمصطلحات معارف ذلك العهد.

سنحاول في الفصل الثالث، جاعلين نصب أعيننا الفارق التاريخي والمعرفي، رصد وتتبع معالم المنحى الوظيفي الذي يتخلل الدرس اللغوي العربي القديم نحواً وبلاغة وتفسيراً وأصول فقه.

خلاصة

للمقاربة الوظيفية للغات الطبيعية، في مقابل المقاربة الصورية، منطلقات منهجية وأهداف على أساسها تصاغ الأجهزة الوصفة.

نفترض أن المقاربة الوظيفية المثلى هي المقاربة التي تجمع كل المنطلقات والأهداف المتوخاة وتبني جهازها الوصف على أساس التسعي في مجاوزة كفاية الوصف إلى كفاية التفسير وبعدهما الكفاية الإجرائية التي تخول ولوج القطاعات الاجتماعية-الاقتصادية كالترجمة وتعليم اللغات والاضطرابات النفسية - اللغوية إضافة إلى وصف اللغات وتسيطها ورصد تطورها.

تظل المقاربة الوظيفية المثلى مطمحةً للنظريات اللسانية قديمها وحديثها ومعياراً لتقويمها وروز وظيفيتها بعيداً عن مزلق التحيف أو الإسقاط.

الهوامش

- (1) موضوع الوصف في المقارنة الوظيفية ليس الجملة بل هو "الخطاب" باعتباره وحدة توصيلية قائمة الذات سواء أكانت مفردة أم مركبة اسمياً أو جملة أم تعاملاً متكاملاً.
تنظر في هذا الصدد (ديك (1997 أ وب) واثوكل (2001) و(2003) و(2005)).
- (2) "العوامل الممكنة" من مفاهيم المنطق الخديت ويحيل على النواضع كما يحل على افتتاحيل.
- (3) راجع تفاصيل هذا الموقف في (شومسكي (1975)).
- (4) يحال انسارد في هذا السمع من السرد إلى مجرد "سارد من ورق" كما يسميه تينيت (1966).
- (5) وضعنا التكوين النحوي في الترسمة (30) بين قوسين للدلالة على أمرين: أولاً: على أنه قد لا يوجد البتة وثانياً على أنه، إن وجد، يظل غير محدد النحوي بالفسر المطلوب بحيث يعرف عمارة بأنه مكون "تسبق الاعتقادات".

الفصل الثاني

الوظيفية في اللسانيات
العربية الحديثة

الفصل الثاني

الوظيفية في اللسانيات العربية الحديثة

0- مدخل:

اتخذ البحث اللساني في بلادنا مناحي متعددة رادها وأسهم في إغنائها وتطويرها باحثون من مستوى رفيع لم يكتفوا بتطبيق النظريات اللسانية الحديثة على المعطى اللغوي المحلي بمختلف مكوناته بل اجتهدوا في تطوير تلك النظريات نفسها انتقادا وتعديلا وإغناءا.

من أبرز هذه المناحي المنحى البنيوي والمنحى التوليدي التحويلي والمنحى الوظيفي. وتضاف إلى هذه الاتجاهات اللسانية الصّرف أبحاث كثيرة في مجالات قريبة من اللسانيات أو متأثرة بمناهجها كالسيمانيات وتحليل الخطاب والشعرية والنقد الأدبي ذي التوجه اللغوي.

لن نتطرق هنا إلى كل هذه الاتجاهات وقيمتها ومدى ما توصلت إليه لشتسا عنها وعدم معرفتنا لها المعرفة الكافية وإنما سنقتصر الحديث على الاتجاه الوظيفي وبالتحديد على نظرية النحو الوظيفي.

خطتنا في هذا الحديث هي: أولاً: عرض مختصر عن نشأة نظرية النحو الوظيفي وانتقالها إلى العالم العربي وتطورها فيه؛ وثانياً: التذكير بأسس هذه النظرية وما أفرزته من نماذج؛ وثالثاً: تقويم منجزات استخدام هذه النماذج في الحقل العربي خاصة لغات وقطاعات اجتماعية اقتصادية.

1- المنحى الوظيفي بالمغرب: تذكير وتدقيق

أهم النظريات الوظيفية التي أصرت البحث اللساني العربي، فيما نعلم، ثلاث نظريات: النظرية الفيرثية والنظيرة النسقية ونظرية النحو الوظيفي.

فيما يخص النظرية الثالث، نعلم أنها نشأت بجامعة امستردام في أواخر
السنوات السبعين على يد مجموعة من الباحثين يرئسها الباحث اللساني
الهلندي سيمون ديك.

كان منطلق النشأة الاقتناع بأن مقارنة خصائص العبارات اللغوية،
خاصة منها ما يتضمن وصلًا (بين المفردات أو بين الجمل)، على أساس
العلاقات أو الوظائف (الدلالية والتركييبية والتداولية) تفضل مقاربتها على
أساس المقولات الشجرية كالمركب الاسمي أو المركب الفعلي الذي لا
ورود له إلا في بعض اللغات.

في هذه المقاربة أصبح التمثيل التحتي للعبارات اللغوية بنية وظيفية لا
ترتيب فيها تتخذ دخلاً لمجموعة من القواعد (تختلف باختلاف اللغات)
تنقلها إلى بنية سطحية مرتبة.

بفضل تطعيمها بمفاهيم تداولية أخرى (كالقوة الإنجازية وغيرها)
وبفضل تطبيقها على لغات متباينة النمط، شجرية وغير شجرية، انتقلت
هذه المقاربة العلاقية إلى نظرية وظيفية قائمة الذات.

واكب هذا الإغتناء النظري توسع جغرافي حيث انتقلت نظرية النحو
الوظيفي من مسقط رأسها امستردام إلى أقطار أخرى فتكوّنت مجموعات
بحث وظيفية في أنتويرب (بلجيكا) ومدريد والرباط ولندن والدماراك.
وموازاة ذلك دُعي الباحثون الوظيفيون للمشاركة في محافل دولية أوروبية
 وأمريكية إلى جانب باحثين من مشارب أخرى توليدية - تحويلية وعلاقية
 وحاسوبية وغيرها للمقارنة بين مقاربات مختلفة لظواهر لغوية مركزية.

في هذا السياق، دُعي المغرب للمساهمة بمدخل عن "النحو الوظيفي
واللغة العربية" (المتوكل 2006)) في إعداد الجزء الثاني من "موسوعة اللغة
العربية واللسانيات العربية".

وظلت نظرية النحو الوظيفي تكسب المزيد من الانتشار إلى جانب المزيد من الاعتراف المعرفي بفضل الندوات الدولية التي تُعقد كل سنتين منذ اثنين وعشرين سنة (امستردام (1984)، انتويرب (1986)، امستردام (1988)، الدانمارك (1990)، انتويرب (1992)، يورك (1994)، قرطبة (1996)، امستردام (1998)، المحمدية (1999)، مدريد (2000)، بني ملال (1991)، امستردام (2002)، أكادير (2003)، خيخون (2004) وسان باولو بالبرازيل (2006)).

دعنا نركز الآن بعض الشيء على انتقال نظرية النحو الوظيفي إلى البلاد العربية.

دخلت هذه النظرية العام العربي أول ما دخلت عبر جامعة محمد الخامس بالرباط حيث شكّلت مجموعة البحث في اللسانيات واللسانيات الوظيفية". وبفضل جهود الباحثين المغاربة المنتمين إلى هذه المجموعة، تسوّى للمنهج الوظيفي أن يأخذ محله في البحث اللساني المغربي إلى جانب مكوناته الأخرى. وقد تم ذلك عن أربع طرق رئيسية هي التدريس والبحث الأكاديمي والنشر وعقد ندوات دولية داخل المغرب نفسه.

(أ) شرع في تدريس النحو الوظيفي في مستهل السنوات الثمانين بجامعة محمد الخامس بالرباط وبالتحديد في شعبي اللغة الفرنسية واللغة العربية معاً ثم توسع تدريجاً، بفضل الأساتذة اللسانيين المتخرجين من هذه الجامعة، ليشمل جامعات أخرى كجامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء والمحمدية وجامعة مولاي إسماعيل بمكناس وجامعة شعيب الدكالي بالحديدة وجامعة القاضي عياض بمراكش وجامعة ابن زهر بمدينة أكادير وجامعة القاضي عياض بمدينة بني ملال وجامعة عبد المالك السعدي بتطوان.

وفي السياق نفسه، عمل الأساتذة مفتشو التعليم الثانوي على إدخال النحو الوظيفي إلى هذا القطاع التعليمي الهام عن طريق الكتاب المدرسي إلى جانب النحو العربي القديم والنحو التوليدي - التحويلي.

(ب) أخذت نظرية النحو الوظيفي قسطاً هاماً من البحث الجامعي بالمغرب حيث هيئت رسائل إجازة وإطروحات دكتوراه لا يستهان بعددها وقيمتها العلمية بجامعة محمد الخامس بالرباط وغيرها من الجامعات المغربية استهدفت وضع أنحاء وظيفية (أو أقساط أنحاء وظيفية) للغة العربية الفصحى أساساً ولدوارجها (المغربية وغير المغربية) وللغات الأمازيغية المغربية وكذلك للغة الفرنسية.

(ج) بموازاة البحث الأكاديمي الصّرف، قام لسانيو "مجموعة البحث في التداوليات واللسانيات الوظيفية" بأعمال نشرت بالعربية وبنغات أجنبية داخل المغرب (المتوكل (1985) و(1986) و(1987) و(1988) أوب) و(1989) و(1993 أ و ب) و(1995) و(1996) و(2001) و(2003) و(2005 ب)، الزهري (1997)، البوشيعي (2005) و(2005)، حدير (2005) و(2006) وخارج المغرب (المتوكل (1984) و(1987) و(1988) و(1989) و(1990) و(1996) و(1998) و(1999) و(2004) و(2005 أ و ج)، حدير (1998) و(2000) و(2003)).

(د) شارك عدد من اللسانيات الوظيفين في ندوات النحو الوظيفي الدولية خارج المغرب (الندوات الآتية الإشارة إليها).

وإلى جانب ذلك عقدت مجموعة البحث في التداوليات واللسانيات الوظيفية ثلاث ندوات وطنية حضرها باحثون وظيفيون أجانب بجامعة المحمدية وبني ملال وأكادير، وكان الهدف من تنظيم هذه الندوات هدفين أساسيين: أولاً، تمكين الأساتذة والطلبة المغاربة من الاطلاع على آخر تطورات نظرية النحو الوظيفي وثانياً، مناقشة مدى استثمار هذه التطورات في مقارنة المعطى المحلي عربياً كان أم غير عربي.

كان المغرب جسراً لعبور النحو الوظيفي إلى أقطار عربية أخرى حيث منه وبفضل المؤلفات والبحوث المغربية دخل الجزائر وتونس وموريتانيا والعراق وسورية بدرجات متفاوتة في التبنى ورقعة الانتشار.

ولنختتم هذا التذكير الوجيه بالقول إن المنحى الوظيفي استطاع أن يحتل موقعه داخل البحث اللساني المغربي الزاخر وأن يعايش باقي مكوناته القديمة والحديثة في سلام نسبي. وأعانه على ذلك، في رأينا، ثلاثة أمور أساسية: أولاً: اجتهاد الباحثين اللذين تبنوه المستمر، وثانياً: انتهاجه لمجاً مغايراً في البحث وثالثاً: أنه لم يستهدف قط إقصاء المقاربات الأخرى بل، على عكس ذلك، ظل يستفيد منها رؤى ونتائج كلما دعت الحاجة واستطاع إلى ذلك سبيلاً مؤمناً أشد الإيمان بوحدة البحث اللساني ونسبته وإمكان التحاور الممنهج بين مذاهبه حتى وإن فصل بينها مرور الزمن كما سنرى في فصل لاحق.

2. نظرية النحو الوظيفي: ثابت الأسس ومتغير النماذج

نتج عن تفرس نظرية النحو الوظيفي بمعطيات لغات متباينة النمط تطور ملحوظ لكنه مس صياغة النموذج دون الأسس المنهجية.

1.2 - الأسس المنهجية

تختلف النظريات الوظيفية، كما مرّ بنا، في مدى تجميعها للمبادئ الوظيفية العامة العشرة أي في اقتراحها أو ابتعادها عما اصطلاحنا على تسميته "النظرية الوظيفية المثلى".

وتختلف نفس المبادئ وترتيبها وربط بعضها ببعض حيث يجد نفس المبدأ معبراً عن مضمونه ومربوطاً بباقي المبادئ الأخرى بطريقة تختلف من نظرية إلى نظرية أخرى.

تجمع نظرية النحو الوظيفي مضامين المبادئ العشرة كلها لكنها تختص بربط هذه المبادئ بمفهوم الكفاية التفسيرية.

الكفاية التفسيرية في هذه النظرية، كما هو معلوم، ثلاث كفايات مترابطة متكاملة: "الكفاية التداولية" و"الكفاية النفسية" و"الكفاية النمطية".

1.1.2 – الكفاية التداولية

يعرف ديك (ديك 197 أ: 13) الكفاية التداولية كالآتي:

(1) "على النحو الوظيفي أن يستكشف خصائص العبارات اللغوية المرتبطة بكيفية استعمال هذه العبارات وأن يتم هذا الاستكشاف في إطار علاقة هذه الخصائص بالقواعد والمبادئ التي تحكم التواصل اللغوي. يعني هذا أنه يجب ألا نتعامل مع العبارات اللغوية على أساس أنها موضوعات منعزلة بل على أساس أنها وسائل يستخدمها المتكلم لإبلاغ معنى معين في إطار سياق تحدده العبارات السابقة وموقف تحدده الوسائط الأساسية لموقف المتخاطب".

يمكن أن نفرع عن هذا التعريف العام للكفاية التداولية مسائل أحصى هي التالية:

(أ) للعبارات اللغوية صنفان من الخصائص: خصائص مرتبطة بالاستعمال وهي الخصائص الأغلب وخصائص مستقلة عن الاستعمال غير مرتبطة بملاساته.

(1) يحكم اللغة نسقان: نسق لغوي صرف ونسق استعمال. يتضافر هذان النسقان في تحديد أغلب خصائص العبارات اللغوية وهي ما يسميه ديك "الخصائص المرتبطة بالاستعمال". من هذه الخصائص الخصائص الصرفية والتركيبية والتطريزية التي يحددها القصد (القوة الإيجازية) والتي يحددها موقف المتكلم من فحوى خطابه (الوجه).

(2) ثمة صنف ثان من الخصائص – وهو ما أسميناه في مكان آخر (المتوكل (2005 ب)) "التركيب المستقل" – لا يتدخل الاستعمال في تحديده. من هذه الخصائص في اللغة العربية، على سبيل المثال، رتبة المركب الاسمي الفاعل وإعرابه، اللذين تسندهما الأداة "إن":

(2) أ - هجا الفرزدق جريراً
ب - إن الفرزدق هجا جريراً

انعكاس التمييز بين الصنفين من الخصائص في النحو الوظيفي
كالتالي: تحدد الخصائص المرتبطة بسياق الاستعمال في المكون الصرفي -
التركيبى على ضوء ما يتوافر من معلومات في البنية الوظيفية (التداولية
والدلالية) في حين تحدد الخصائص "المستقنة" في المكون الصرفي -
التركيبى نفسه.

(ب) تعد العبارات اللغوية، حسب التعريف (أ)، وسائل يستخدمها
المتكلم لتبليغ أغراض معينة.

وسيلة العبارات اللغوية هذه تستلزم أمرين اثنين:

(1) أن يؤشر في البنية الوظيفية لكل السمات المرتبطة بقصد المتكلم
وهي السمات الإنجازية والوجهية كما يؤشر في نفس البنية لدوئاف
التداولية (محور، بؤرة).

من المطلوب في هذا التأشير أن يكون تاماً بحيث يجمع بين كل
السمات التي من شأنها أن تؤثر في البنية الصرفية التركيبية. فلا يسوغ،
مثلاً، أن يُكتفى بالمحور والبؤرة كوظيفتين تداوليتين عامتين في حين أن
التراكيب المحورية والبؤرية متعددة. لذلك نجد النحو الوظيفي يميز بين
المحور المعطى والمحور المعاد والمحور الجديد من جهة وبين بؤرة الحديد وبؤرة
المقابلة من جهة ثانية بل إنه يفرع بؤرة المقابلة دائماً إلى بؤرة قسر وبؤرة
تعويض وبؤرة انتقاء على أساس أن نكل من هذه الفروع البؤرية بنيتها
الصرفية - التركيبية التي تخصه.

(2) أن يتخذ المكون المسؤول عن تحديد هذه السمات جميعها وضعاً
قاعدياً في الجهاز الواسف فتكون لبنية التداولية الدلالية الأسبقية في
اشتقاق العبارة اللغوية على البنية الصرفية - التركيبية والبنية التطريزية. نجد
هذه الأسبقية متحققة في كل نماذج النحو الوظيفي كما سنرى.

(ج) يشدد التعريف (1) على أن رصد الخصائص المرتبطة بالاستعمال يتم عبر استكشاف المبادئ التي تحكم التواصل اللغوي. من أهم هذه المبادئ أن التواصل عن طريق اللغة لا يقتضي المعرفة اللغوية العرف فحسب بل يقتضي كذلك معارف أخرى عامة وأنية تخص الموقف المعين الذي تتم فيه عملية التواصل.

يمثل النحو الوظيفي لهذا التعدد في المعارف في شكل قدرة تواصلية تضم إلى جانب المنفعة اللغوية منكات أخرى معرفية (أو مفهومية) واجتماعية ومنطقية وإدراكية (حسية) ويرمي إلى تحقيق هدف أسمى هو صوغ نموذج لاستعمال اللغة تتعدد قوابله وتختلف بتعدد واختلاف المنكات المكونة للقدرة التواصلية.

(د) آخر ما يتسخلص من التعريف (1) هو أن التواصل يتم في موقف معين وفي "إطار سياق تحدده العبارات اللغوية السابقة".

مفاد ذلك أن إنتاج العبارات اللغوية وتأويلها يتساان في إطار خطاب متكامل (حوار أو سرد أو غيرهما) وهو ما دعا النماذج الأخيرة من النحو الوظيفي إلى السعي في مجاوزة نحو الجملة إلى نحو الخطاب.

2.1.2 - الكفاية النفسية

يعرف ديك (ديك 1997 أ: 13) مفهوم "الكفاية النفسية" بالشكل التالي:

"تنقسم النماذج النفسية بطبيعة الحال إلى نماذج إنتاج ونماذج فهم. تحدد نماذج الإنتاج كيف يبني المتكلم العبارات اللغوية وينطقها، في حين تحدد نماذج الفهم كيفية تحليل المخاطب للعبارات اللغوية وتأويلها.

وعلى النحو الوظيفي الذي يروم الوصول إلى الكفاية النفسية أن يعكس بطريقة أو أخرى ثنائية الإنتاج / الفهم هذه".

يقضي ضابط الكفاية النفسية حسب التعريف (3) بأن يصاغ النحو على أساس أن يعكس الإواليات التي تقوم بالذهن في شقي عملية التواصل كليهما، في شق إنتاج المتكلم للخطاب وشرق تحيل المخاطب له وتأويله.

سعيًا في تحصيل الكفاية النفسية صيغت نماذج النحو الوظيفي على أساس أن إنتاج الخطاب ينطلق من القصد إلى النطق عبر الصياغة وفقًا لترسيمة (4):

(4) قصد ← صياغة ← نطق

تتم بناء هذه النماذج حسب الترسيمة (4) حيث يشكل التداول والدلالة (مضمومين أو منفصلين) المكون القاعدي الذي على ضوء ما يتوافر فيه من مؤشرات تُصاغ البنية الصرفية - التركيبية ويتم تحقّقها الصوتي.

في نفس الاتجاه، اتجه السعي في إحراز الكفاية النفسية خلت جميع النماذج التي أفرزتها نظرية النحو الوظيفي منذ نشأتها من قواعد التحويل والمقصود هنا القواعد التي تُحدث تغييراً بنيوياً في البنية - الدخّل عن طريق حذف أو تعويض أو نقل. كان الدافع إلى إقصاء هذا الحنف من القواعد من إواليات النحو الوظيفي وقبله من إواليات أنحاء أخرى كالنحو المعجسي الوظيفي ثبوت عدم مطابقتها لأية عملية ذهنية يقوم بها المتكلم حين ينتج العبارة اللغوية أو المخاطب حين يؤوّلها.

يجب أن نشير هنا إلى أن القواعد الصرفية - التركيبية المتبنية في النحو الوظيفي لا تندرج في مجموعة القواعد النوصوفة بكونها غير ذات "واقعية نفسية". فالقواعد المسؤولة عن نقل البنية التحتية (التداولية الدلالية) إلى بنية صرفية - تركيبية مرتبة أخرى على بنية غير مرتبة العناصر. هذه القواعد لا تُحدث، إذن، أي تغيير في رتبة عناصر البنية - الدخّل وإنما تستند إلى هذه العناصر ترتيباً وحيداً هو الترتيب الأول والأخير. دعنا نأخذ، لتوضيح ذلك، المثال التالي:

(5) أ - أحبُّ خالدَ هنداً
ب - هنداً أحبُّ خالدَ

لا تعد الجملة (5 ب)، في النحو الوظيفي، محوَّلة عن الجملة (5 أ) بواسطة قاعدة نقل المكون المفعول إلى الموقع المصدر إذ إنَّها ينتميها التحتية التي تختلف عن البنية التحتية للجملة (5 أ). البنيتان التحتيتان هاتين اجملتين هما البنيتان (6 أ) و(6 ب) على التوالي:

(6) أ - [أحب] (خالد) محور (هند) بؤرة جديد
ب - [أحب] (خالد) محور (هند) بؤرة مقابلة

من المقارنة بين البنيتين (6 أ) و(6 ب) يتبين أن المكون المفعول يحمل الوظيفة بؤرة الجديد في البنية الأولى فيتموقع بذلك بعد الفعل في حين أنه يحمل في البنية الثانية الوظيفة بؤرة المقابلة التي تحوِّله احتلال الموقع المصدر.

3.1.2 - الكفاية النمطية

من التحديدات الواردة في كتاب ديك (ديك 1997 أ: 15) لفهوم الكفاية النمطية التحديد التالي:

(7) "يزعم المنظرون للسان الطبيعي أن بإمكانهم حصر الاهتمام في لغة واحدة، أو في عدد من اللغات فيما يقارب التسميطيون اللغة مقارنة محايدة نظرياً" تعتمد منها استقرائياً شبه تام.

إن الدراسة التسميطية لا تكون ذات نفع إلا إذا أُطرحنا مجموعة من الفرضيات النظرية ولا تكون النظرية اللسانية، في المقابل، ذات جدوى إلا إذا كشفت عن مبادئ وقواعد ذات انطباقية واسعة النطاق.

يشعر التعريف (7) شطرين: شطراً تقريرياً وشطراً موقفياً. يشير ديك في الشطر الأول إلى أحد أهم تطورات الفكر اللساني الحديث الذي تمكن حصره في ثلاث مراحل: مرحلة الجمع والتصنيف ومرحلة التنظير ومرحلة التسميط.

ما يتعد الدرس اللساني في المرحلة الأولى تجسيم المعطيات اللغوية وتصنيفها من حيث خصائصها التوزيعية. كان شومسكي أول من نادى بضرورة تجاوز هذا المنهج التصنيفي إلى وضع نظرية لسانية عامة تنظس لحوماً كليا تنفرع عنه أنحاء خاصة وهي النظرية التوليدية التحويلية كما نعلم. أما المرحلة الثالثة فإنها تشمل على ظهور ما سمي "اللسانيات التسميطية". عنى هذا الاتجاه اللساني من ملاحظة أن النظرية التوليدية التحويلية، في بدايتها، وُضعت على أساس معطيات لغة واحدة (أو بضع لغات) فكانت تعميماتها صالحة لتلك اللغة (أو تلك اللغات) وغير واردة بالنظر إلى اللغات الأخرى. لتلافي إسقاط بنية لغات معينة على بنية باقي اللغات أقيمت اللسانيات التسميطية منبهم النحو الكلي كما ورد في النظرية التوليدية التحويلية وعروضته بمفهوم النمط الذي اتخذ معياراً في تصنيف اللغات بإرجاعها إلى فصائل كبرى حسب خصائصها البنيوية. من هذه الفصائل الكبرى، كما هو معنوم، "اللغات السلسلية" و"اللغات غير السلسلية" و"اللغات ذات الرتبة الحرة" في مقابل اللغات ذات الرتبة الثابتة و"اللغات الابتدائية" في مقابل "اللغات الفاعلية" وغير ذلك.

يجب أن نشير هنا إلى أن النتائج التي توصلت إليها الدراسات التسميطية كان لها تأثير واضح في التنظير التوليدي التحويلي نفسه حيث أعيد النظر في مفهوم النحو الكلي وفي صياغة علاقته بالأجزاء الخاصة التي أصبحت تتولد عن طريق ما سمي "تثبيت الوسائط".

وفي الشطر الثاني من تعريفه لسكفاية التسميطية ينتقد ديب كولا لاجاهين ويقف بينهما موقفاً وسطاً قوامه أن بسبب لغات يجب أن يدرج في إطار نظري معين وأن هذا الإطار النظري لا تثبت صحته إلا إذا حصل أكبر قدر ممكن من الانطباق على أكبر عدد من أمثال اللغات المتواجدة في المنطقة.

من العدة التي أعدتها نظرية النحو الوظيفي لتحصيل الكفاية النمطية
وضع ضابطين اثنين على النحو: ربط تنسيط اللغات بانكليات اللغوية
والسعي في إحراز أكبر قدر ممكن من التجريد في صوغ المبادئ والقواعد.

(أ) من انكليات اللغوية المعتمدة في نظرية النحو الوظيفي مجموعة من
المبادئ العامة التي تحكم ترتيب المكونات في مجالي الجملة والمركب الاسمي
كمبدأ الانعكاس ومبدأ الإبراز التداولي ومبدأ التعقيد المقوي وغيرها.

تتخذ هذه المجموعة من المبادئ أساساً لتنسيط اللغات ورصد
تطورها. مثال ذلك التمييز بين اللغات ذات المجال البعدي التي ترتب
الفضلات بعد الرأس واللغات ذات المجال القبلي التي ترد فيها الفضلات
قبل الرأس.

ويشكل التفاعل بين هذه المبادئ منطلقاً لانتقال لغة ما من نمط إلى
نمط آخر.

سنعود إلى قضايا التنسيط ورصد التطور في مبحث لاحق.

(ب) تستلزم الكفاية النمطية أن تكون قواعد النحو باللغة أكبر قدر
من التجريد لكي تنطبق على أكبر عدد من اللغات وأن تكون في الوقت
ذاته أقرب ما يمكن القرب من الوقائع اللغوية المتعد لها.

يكتب ديك في هذا الصدد (ديك 1997 أ: 16): "نقصد بالتجريد
المسافة القائمة بين العبارات اللغوية في لغة ما وبين البنيات التحتية التي
تخلف هذه العبارات...

لكي تنطبق على لغات أي نمط، يجب أن تكون النظرية على قدر
معين من التجريد؛ ولكي يمكن أن تكون ذات إجرائية فعنية، يجب أن تظل
ملتصقة ما أمكنها الالتصاق بالظواهر اللغوية...

حين تكون النظرية موعنة في الالتصاق بالواقع اللغوي في لغات
خاصة، يصبح من غير الممكن استخدام مفاهيمها في وصف لغات أخرى.

في المقابل، عندما تكون النظرية مفرطة في التجريد، يعسر عليها تحقيق هدفها الذي هو الوصول إلى تعميمات دالة في اللغات الخاصة وتفقد بذلك قيمتها المراسية...".

شكل هذا السعي في إحراز التوسط بين التجريد في التقعيد والاتصاف بالواقع اللغوي المراد مقارنته أحد الضوابط الأساسية في المراجعة كما سيتضح من الفحص الموالي لنماذج نظرية النحو الوظيفي.

2.2 - النماذج

فيما يخص تطور نظرية النحو الوظيفي من حيث بناء الجهاز الواسف وصياغته، اعتدنا على التمييز بين مراحل ثلاث (المتوكل 2003) و(2005) و(ب): مرحلة ما قبل النموذج المعياري (ديك 1978)) ومرحلة النموذج المعياري (ديك 1997)) ومرحلة ما بعد النموذج المعياري.

نريد أن نقترح هنا تصنيفاً آخر لما أفرزته نظرية النحو الوظيفي من نماذج يربط ظهور هذه النماذج بالسعي العام في تحصيل الكفايات الثلاث التي عرضنا لها في المبحث السابق.

من هذا المنظور، يمكن القول إن المنطلق كان نموذجاً أولياً (أو نموذجاً نواة) تم توسيعه وإغنائه وإعادة النظر في تنظيم بنيته على أساس روافد انضوي التدريجي في بلوغ الكفاية التداولية أولاً فالكفاية النمطية ثانياً ثم الكفاية النفسية ثالثاً.

1.2.2 - النموذج النواة

ما نقصد بالنموذج النواة أول نماذج نظرية النحو الوظيفي المعروف له في كتاب ديك الأول (ديك 1978)).

مكونات هذا النموذج الأولي، حسب ترتيبها في آلية الاشتغال، أربعة مكونات: خزينة فقواعد إسناد الوظائف فقواعد التعبير ثم القواعد الصوتية.

(أ) الخزينة شقان اثنان: معجم يؤوي المفردات الأصول وقواعد تكوين تضطلع باشتقاق المفردات الفروع (كأفعال الانعكاس وأفعال انطاوغة والأفعال العمية والمصادر وأسماء الفاعلين وغيرها) من المفردات الأصول.

يُمثل للمفردات، الأصول منها والمشتقة في شكل أطر حملية تُحدّد محلاتية المجهول ووظائف موضوعاته الدلالية وما يفرضه على موضوعاته من قيود انتقاء.

يُتخذ الإطار الحملي، أصلاً أو مشتقاً، مادة أولية لصياغة البنية التحتية للعبارة اللغوية.

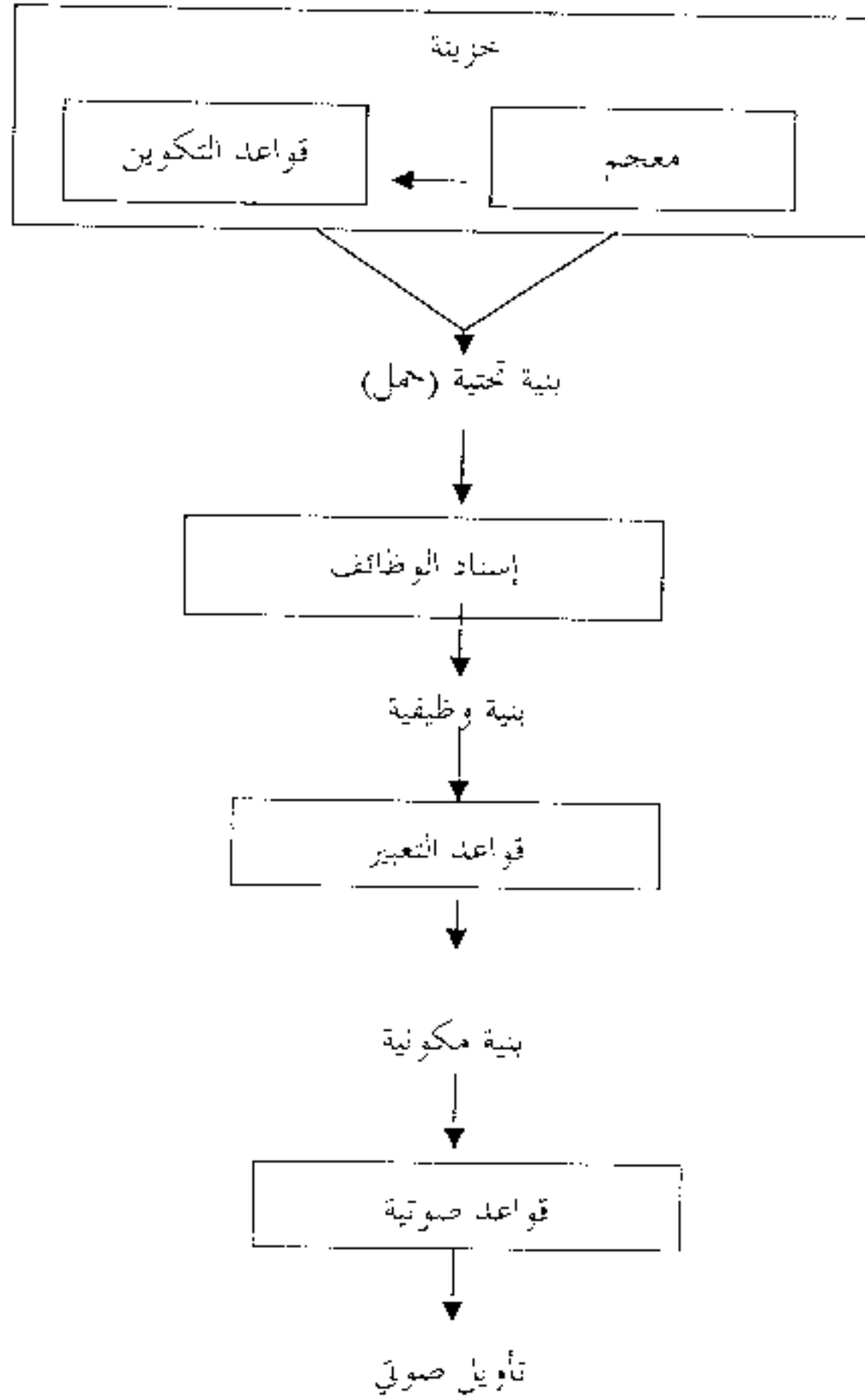
(ب) تشكل البنية التحتية حملاً تُحدّد فيه كل الخصائص الدلالية المُرشّرها في شكل مخصّصات وسمات (جهية، زمنية...) ووظائف دلالية. ويُنتقل الحمل إلى بنية وظيفية تامة التحديد عن طريق إسناد وظيفتي الفاعل والمتعول ثم إسناد الوظيفتين التداوليتين المحور والبؤرة.

(ج) تتخذ البنية الوظيفية دعماً لقواعد التعبير وهي مجموعة القواعد المسؤولة عن وتحديد الخصائص الصرفية والتركيبية (الرتبية) والتعريفية (النبرية والتنغيمية) على أساس ما يُورّد في البنية الوظيفية.

(د) يأخذ خرج قواعد التعبير شكل بنية مكونة تنقل بواسطة القواعد الصوتية إلى تأويل صوتي للعبارة اللغوية.

يمكن توضيح اشتقاق العبارة اللغوية في هذا النموذج بواسطة الرسم التالي:

(8)



2.2.2 - روافد الكفاية وتطور النمذجة

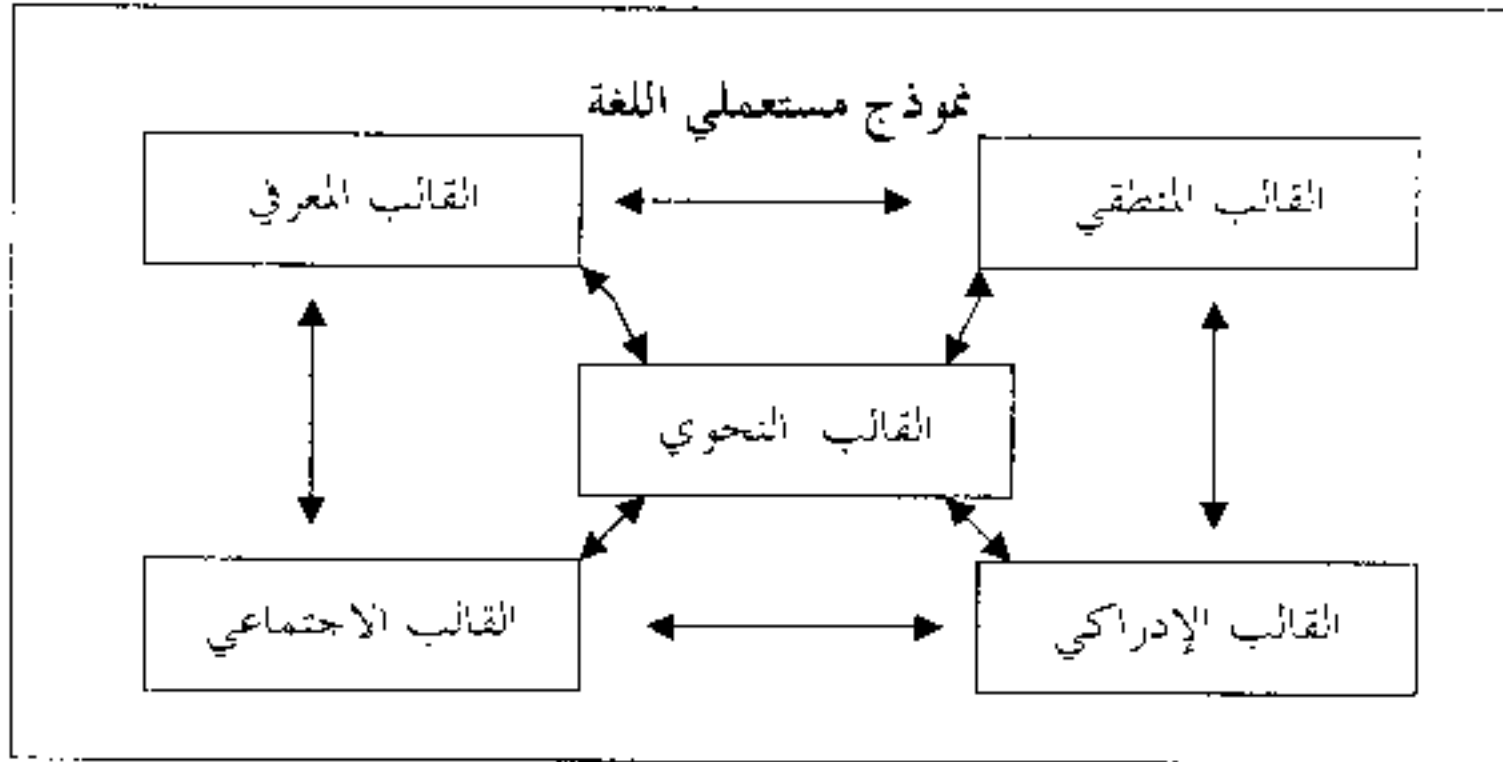
كان النموذج النواة الممثل لبنائه بالرسم (8) لبنة أولى في صياغة النموذج الذي تنبثه على أساس ما توصلت إليه نظرية النحو الوظيفي في سعيها نحو إحراز الكفايات الثلاث.

1.2.2.2 - الرافد التداولي: النموذج المعياري

من نتائج السعي في تحصيل الكفاية التداولية إغناء النموذج الأولي توسيعاً وإضافة وتدقيقاً.

(أ) على أساس مبدأ أن التواصل لا يتم بواسطة المعرفة اللغوية الصرفة فحسب بل كذلك بواسطة تفاعل هذه المعرفة مع معارف أخرى، على أساس أن القدرة التواصلية تشمل، كما سبق أن بينا، ملكات معرفية ومنطقية واجتماعية وإدراكية إلى جانب الملكة اللغوية. أصبح الهدف الأساسي بناء نموذج مستعملي اللغة يوضح تكوينه وطريقة اشتغال مكوناته
الرسم (9):

(9) نموذج مستعملي اللغة



يقيد الرسم (9) أن نموذج مستعملي اللغة يتكون من خمسة قوالب ترصد ملكات القدرة التواصلية الخمس وتتفاعل فيما بينها على أساس أن كل قالب يتمتع باستقلال مبادئه وإوالياته لكنه يشكل دخلا -- خرجا لباني القوالب.

(ب) بعد أن كانت الخصائص الممثل لها في النموذج النواة محصورة في الوظائف التداولية الخارجية والداخلية أصبحت تشمل السمات الإنجازية والوجهية.

الفرق بين البنيتين التحتية في النموذج النواة والنموذج المعيار توضحه الترسيمان التاليان:

(10) البنية التحتية في النموذج النواة:

[محمول] [س¹ ... (س^ن)] [ص¹ ... (ص^ن)] حمل

(11) البنية التحتية في النموذج المعيار

[إنجاز [وجه [قضية [حمل]]]]

يُمثل نغمة السمات التداولية المضافتين (القوة الإنجازية والوجه)، كما يتبين من الترسيمة (11)، في طبقتين تعاون طبقتي القضية والحمل في بنية تحتية متعددة الخيوز حيث يقع الحمل في حيز القضية والقضية في حيز الوجه الذي يتوضع في حيز القوة الإنجازية.

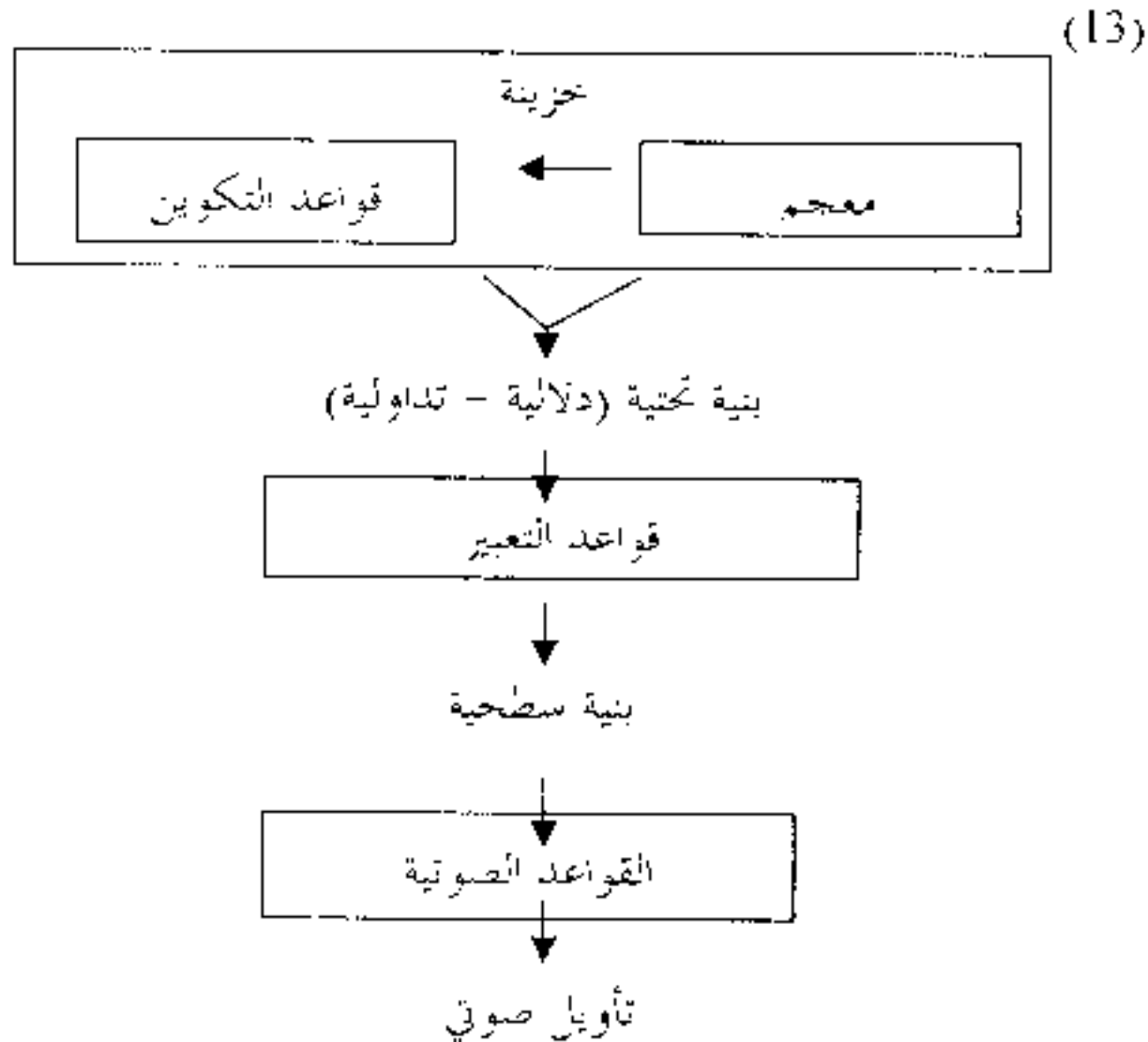
(ج) الوظائف التداولية في النموذج الأولي أربع وظائف: وظيفتان داخليتان هما المحور والبؤرة ووظيفتان خارجيتان هما المبتدأ والذيل.

من أمثلة توارد هذه الوظائف الأربع الجملة (12):

(12) أما خالد (مبتدأ)، فقد تزوجها (محور) أبوه (بؤرة)،
هند (ذيل)

أثبتت مجموعة من الدراسات عدم كفاية هذا العدد من الوظائف لرصد ما يتعلق بها من ظواهر فأضيفت إلى وظيفتي المبتدأ والذيل وظائف خارجية أخرى صنفت إلى فواتح ونواقل وحوافظ وخواتم باعتبار دورها في تنظيم بنية الخطاب كما فرّعت وظيفة المحور إلى محور معطي ومحور معاد ومحور جديد ووظيفة البؤرة إلى بؤرة جديد وبؤرة تعويض وبؤرة قصر وبؤرة انقواء كما سبق أن بينا ذلك في أحد مباحث الفصل الأول.

لا تغير هذه الإضافات التداولية، رغم أهميتها، من مسطرة الاشتقاق المعتمدة في النموذج الأولي إذا نحن استثنينا أن البنية التحتية لم تعد مجرد حمل بل بنية تامة التحديد من حيث الدلالة والتداول معاً كما يتبين من الترسيم التالية:



2.2.2.2 - الرافد النمطي: نحو الطبقات القالي

كان هاجس استشراف الكفاية النمطية حاضراً في صياغة النموذج المعيار ذاته. ومن أبرز مظاهر حضور هذا الهاجس صوغ مبادئ عامة تحكم رتبة المكونات داخل الجملة والمركب الاسمي كنيهما وداخل النص الكامل نفسه (ديك (1997 أ)).

من المبادئ المتحركة في الرتبة داخل كل من الجملة والمركب الاسمي مبدأ "الإبراز التداولي" الذي يقضي بموقعة العناصر الحاملة لوظيفة تداولية خاصة (بؤرة المقابنة على الخصوص) في حيز ما قبل الرأس في نمط "اللغات ذات المجال البعدي" كاللغة العربية.

كان استكشاف انطباقية مثل هذه المبادئ الرتبية على الجملة والمركب الاسمي منطقاً لأبحاث استهدفت تعميق التماثل النيوي بين مختلف أقسام الخطاب لنخص نتائجها كالتالي:

(أ) في مرحلة أولى، اقترح رايكوف (رايكوف (1992)) نفس البنية لكل من حمل الجملة والمركب الاسمي، بنية تتضمن ثلاث طبقات: طبقة وصفية تعلوها طبقة تسويرية تعلوهما طبقة تأطيرية:

(14) حمل الجملة / المركب الاسمي:

[[تأطير [تسوير [وصف [رأس] وصف] تسوير] تأطير]].

(ب) في مرحلة ثانية، توصلنا (المتوكل (2003)) إلى إمكان توسيع البنية (14) بإضافة طبقة رابعة تضطلع بإيواء السمات الوجيهة باعتبار أن هذه الفئة من السمات حاضرة في المركب الاسمي حضوراً في الجملة:

(15) القضية / المركب الاسمي

[[وجه [تأطير [تسوير [وصف [رأس] وصف] تسوير] تأطير] وجه]].

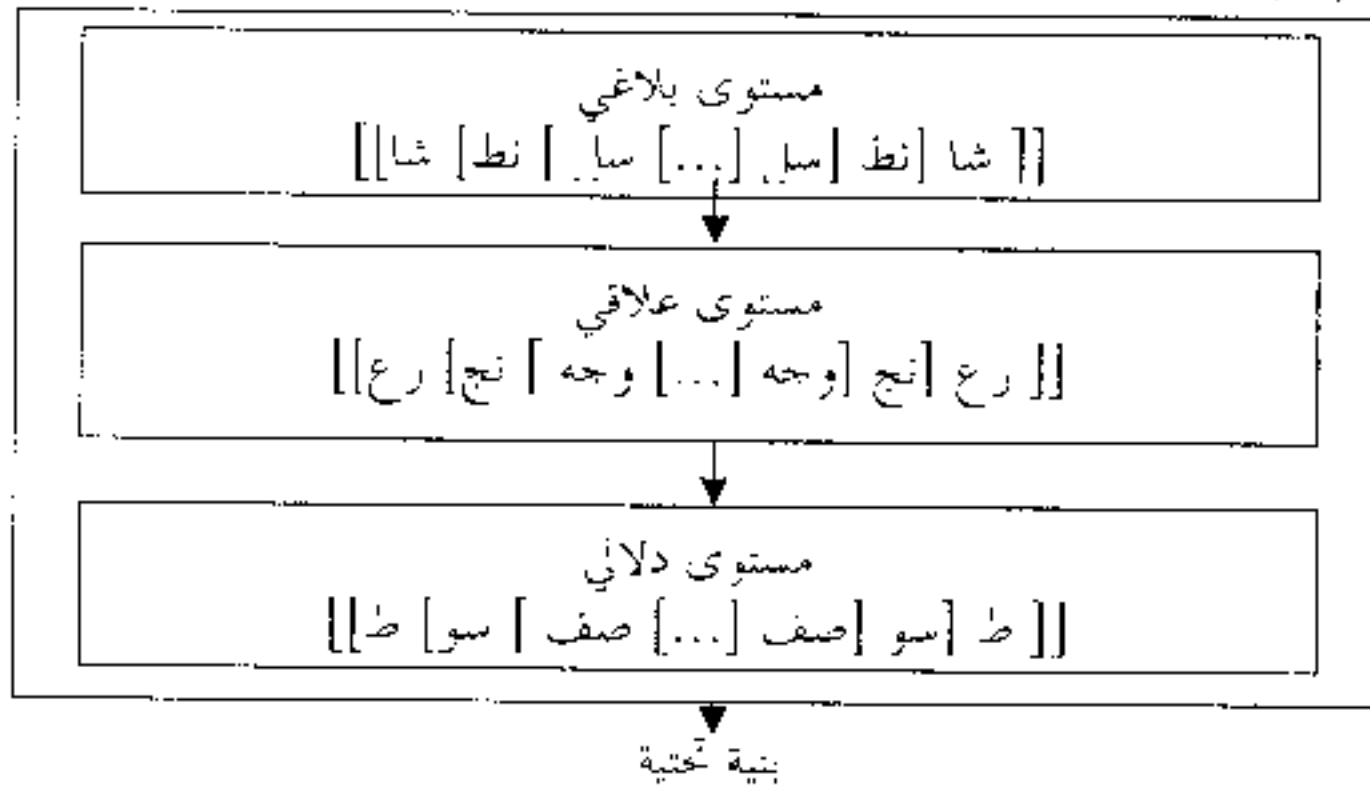
تتضمن كل طبقة من الطبقات الأربع مخصصات ولواحق على أساس أن تُرد المخصصات في مجال ما قبل الرأس واللواحق في مجال ما بعده.

(ج) في ثالث مرحلة من تعميق البحث في توازي بنيات مختلف أقسام الخطاب (مركب اسمي: جملة، نص متكامل)، اقترحنا (المتوكل (2003) ما اصطّلحنا على تسميته "بنية الخطاب النموذجية" التي يمكن تلخيص أهم ملامحها كالآتي:

تتكون بنية الخطاب التحتية من ثلاثة مستويات: مستوى بلاغي يتضمن ثلاث طبقات تؤثر للمركز الإشاري وتمط الخطاب وأسلوبه ومستوى علاقي يتضمن طبقة الاسترعاء وطبقة الإنجاز وطبقة الوجه ومستوى دلالي يركز على الطبقات الثلاث المعهودة الأنف ذكرها وهي الطبقة التأطيرية والطبقة التسويرية والطبقة الوصفية.

صورة المستويات الثلاثة وما تحويه من طبقات توضيحها الترسيم التالية:

(16)



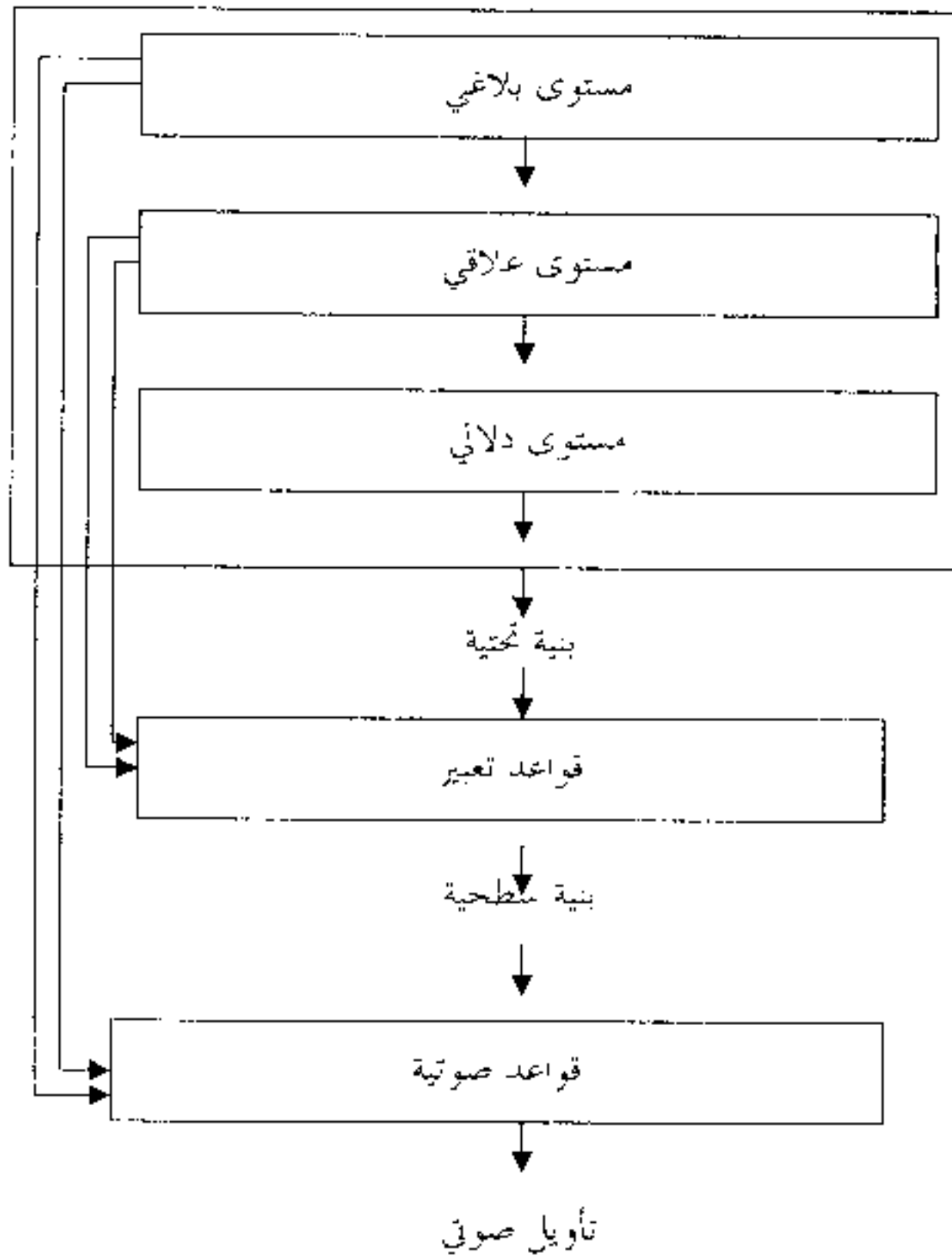
تؤشر السمات الإشارية (شا) للمتخاطبين وزمان ومكان التخاطب
في حين تؤشر السمات النمطية والأسنوية (نط) و(سل) إلى صنف
الخطاب (حديث، سرد، نص حجائي أو فني...) وأسنويه (رسمي / غير
رسمي، مهذب / غير مهذب...) في شكل مخصصات (ما قبل الرأس) أو
لواحق (ما بعد الرأس).

وتؤوى الطبقات (رع) و(نح) و(وجه) السمات الاسترعائية التي
تتحقق بواسطة أدوات كأدوات النداء والسمات الإنجازية الحرفية منها
وانستلزمة (إخبار، سؤال، أمر، وعد، وعيد...) والسمات الوجيهة التي
تؤشر موقف المتكلم من محتوى خطابه (شك يقين، الفعالي، تعجب،
مدح/ذم...)

أما طبقات المستوى الدلالي (ط) و(سو) و(صف) فهي محط التأشير،
مخصصات ولواحق، للسمات الزمنية والوجيهة المرحلية (شروع، مقارنة،
استمرار...) والوجيهة الكمية (تام / غير تام) على التوالي.

تتخذ السمات المتوافرة في كل المستويات الثلاثة دخولاً على أساسه
تشتغل قواعد التعبير التي تنقل البنية التحتية إلى بنية سطحية تؤول صوتياً
بواسطة القواعد الصوتية وفقاً لترسيمة (17):

(17)



تقي الأسهم المنصقة من خانات المستويات الثلاثة أمرين هاميين اثنين:

أولاً: أن هذه المستويات تشغل بشكل قابل مستقلاً بعضها عن بعض مُفضياً بعضها إلى بعض:

ثانياً، أن خصائص البينيين الصرفية - التركيبية والصوتية تتدخل في تحديدها السمات المؤشر لها في المستويين البلاغي⁽¹⁾ والعلاقي، كذلك: إضافة إلى سمات المستوى الدلالي.

تتدخل سمات المستوى العلاقي، مثلاً، في تحديد صرفات البنية السطحية ورتبة مكوناتها كما تقوم بدور تحديد الخصائص التطريزية حيث يسند التنعيم طبقاً للقوة الإنجازية والنبر لتسكون الخامل للوظيفية التداولية البؤرة.

لتوضيح هذا الأمر، نورد المثال التالي حيث تحدد القوة الإنجازية "السؤال" تصدر الجملة بأداة استفهام (هل) وتنغيصها المتصاعد وتحدد بؤرة نقابة تقدم المكون المفعول وحمله النبر المركزي:

(18) أخالداً قابل بكر؟

(2) البنية النموذجية بنية مجردة يتم تحقيقها في مختلف أقسام الخطاب تازياً انطلاقاً من النص إلى المفردة ومروراً بالجملة والمركب الاسمي وفقاً لتطابق الإيوائية لكل قسم من هذه الأقسام كما يتبين من سلمية التحقق التالية:

(19) سلمية تحقق البنية النموذجية:

النص < الجملة < المركب الاسمي < المفردة

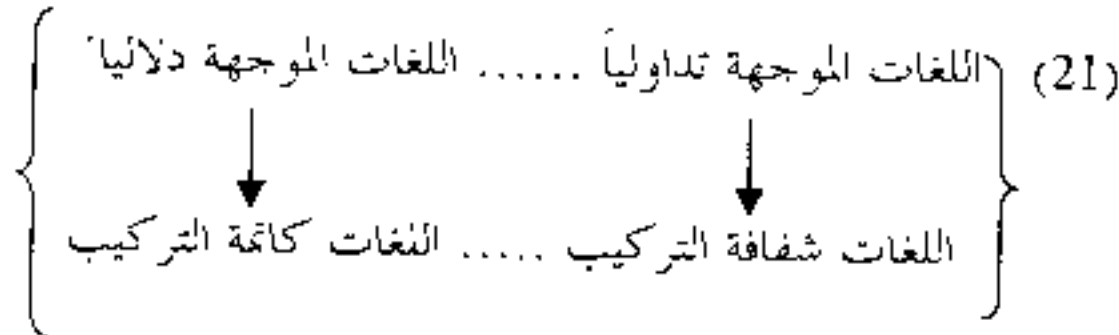
(3) يمكن عد البنية النموذجية إحدى الكليات اللغوية التي تتحقق في اللغات الطبيعية حسب وسيط تغليب مستوى على مستوى آخر. على هذا

الأساس، يمكن إرجاع اللغات إلى نمطين رئيسيين: نمط "اللغات الموجهة تداولياً"، المغلبة للمستويين البلاغي والعلاقي ونمط "اللغات الموجهة دلاليًا" التي تغلب المستوى الدلالي عنى المستويين الآخرين:

(20) اللغات الموجهة تداولياً اللغات الموجهة دلاليًا

ينعكس التفاوت في تغليب المستويات التحتية عنى البنية الصرفية- التركيبية من حيث "الشفافية" و"الكتوم". فاللغات الموجهة تداولياً غالباً ما تكون شفافة التركيب تُفرد للخصائص التداولية مجالاً (ما قبل الرأس) متميزاً عن مجال الخصائص الدلالية (ما بعد الرأس) في حين لا نكاد نجد هذا التمييز بين مجالي فني الخصائص هاتين في اللغة الموجهة دلاليًا.

إذا كان الجمع بين التوجه التداولي وشفافية التركيب من جهة وبين التوجه الدلالي وكتوم التركيب من جهة ثانية يرقى إلى قدر معقول من الوجود يمكن إتمام المتوالية النمطية (20) عنى الشكل التالي⁽³⁾:



اللغات إذن، حسب المتوالية (21)، نمطان أصلان وانماط فرعية تتموقع داخل المتوالية حسب اقتراها من هذا النمط الأصل أو ذلك.

(4) يمكن افتراض أن للمتوالية (21) في رصد تطور اللغات من الوجود ما لها في التنميط.

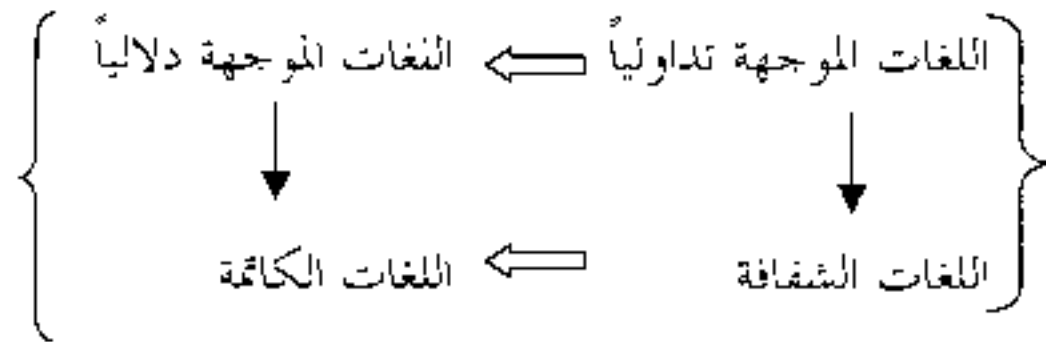
تنزع اللغات الموجهة تداولياً، تحت ضغط عوامل خارجية وعوامل داخلية (كفقدان حرية الرتبة مثلاً) إلى الانتقال إلى نمط اللغات الموجهة دلاليًا كما يحصل الآن في اللغات العربية الدوارج. وفي حالة بلوغ هذا

النزوع منتهاه حيث يقضي الانتقال إلى الخروج من حيز "اللغات الممكنة" إلى "اللغات غير الممكنة" يبدأ مسلسل العودة إلى النمط الأصل أي العودة إلى شفافية التركيب الضامنة، كما مر بنا، لنجاح عملية التواصل.

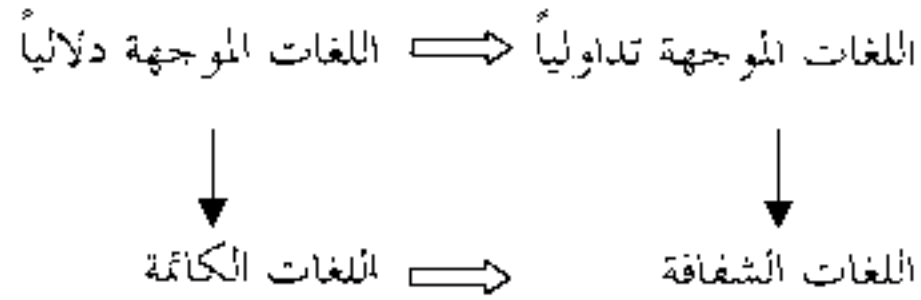
تطور اللغات، في إطار التصور المدافع عنه هنا، يتم وفق الترسمة التالية:

(22) التطور اللغوي

أ - الانتقال النمطي



ب - العود إلى البدء



3.2.2.2- الرافد النفسي: نحو الخطاب الوظيفي

من المعلوم أن نظرية النحو الوظيفي استشرفت تحصيل الكفاية النفسية منذ نشأتها إلى جانب إحراز الكفائيتين الأخرين.

كان التوقى إلى بدوع الكفاية النفسية، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك. وازعاً في إخضاع قواعد النحو للواقعية النفسية حيث أقيمت القواعد التحويلية باعتبارها لا تطابق إواليات إنتاج الخطاب ولا إواليات تأويله.

رغم مثل هذه التعديلات الموضوعية، لوحظ في السنوات الأخيرة أن النموذج المعيار يظل قاصراً عن رصد عملية إنتاج الخطاب فاقترحت ثلاثاً في هذا التصور ثلاثة نماذج "نحو التنامي" (ماكنزى (1998)) ونموذج "نحو المتكلم" (ياكر (2001)) تم نموذج "نحو الخطاب الوظيفي" (هنخند (2005)).

الجامع بين هذه النماذج الثلاثة إنما تسعى في صوغ نموذج لعملية إنتاج الخطاب، نموذج يعكس من حيث مكوناته واتجاهه وإواليات اشتغاله حركية هذه العملية والأشواط التي تقطعها من انطلاقها إلى انتهائها.

سنقصر الحديث هنا على نموذج نحو الخطاب الوظيفي لسببين اثنين: أولاً، لأنه النموذج المعتمد حالياً داخل عشيرة النحو الوظيفي وثانياً، لأنه النموذج المتبنى في البحث اللغوي العربي إلى جانب نحو الطبقات القائلي المعروف له في المبحث السابق.

أفردنا من مكان آخر (التوكل (2005 أ)) هذا النموذج، نظراً لأهميته الراهنة، عرضاً شافياً نكتفي بتلخيص ما ورد فيه كالتالي:

مكونات الجهاز الواصف المعتمد في نحو الخطاب الوظيفي أربعة مكونات هي: "المكون المفهومي" (أو المعرفي) و"المكون النحوي" و"المكون الإصائي" و"المكون السياقي".

(أ) يرصد المكون المفهومي المعارف اللغوية وغير اللغوية كما يرصد قصد المتكلم من الخطاب المرزوع إنتاجه. ويعدّ هذا المكون "القوة الدافعة" بالنظر إلى المكونات الأخرى؛

(ب) تُحدّد خصائص الخطاب في المكون النحوي في ثلاثة مستويات: مستوى علاقي (تداولي) ومستوى تمثيلي (دلالي) ومستوى بنيوي.

المستويان العلاقي والتمثيلي خرجان لإوالية "الصياغة" التي تمثل لخطاب في المستوى الأول في شكل فعل خطابي يتضمن فحوى قضوياً قوامه فعل إحائي وفعل حملي وخصائص الخطاب الدلالية في المستوى الثاني كما يفاد من البنيتين العامتين التاليتين:

(23) (فعل خطابي: [الجاز: [فحوى قضوي: [فعل إحائي)
(فعل حملي) (III)

(24) (مخصّص واقعة: [محمول (س')... (س ن (ص')... (ص ن) (I)

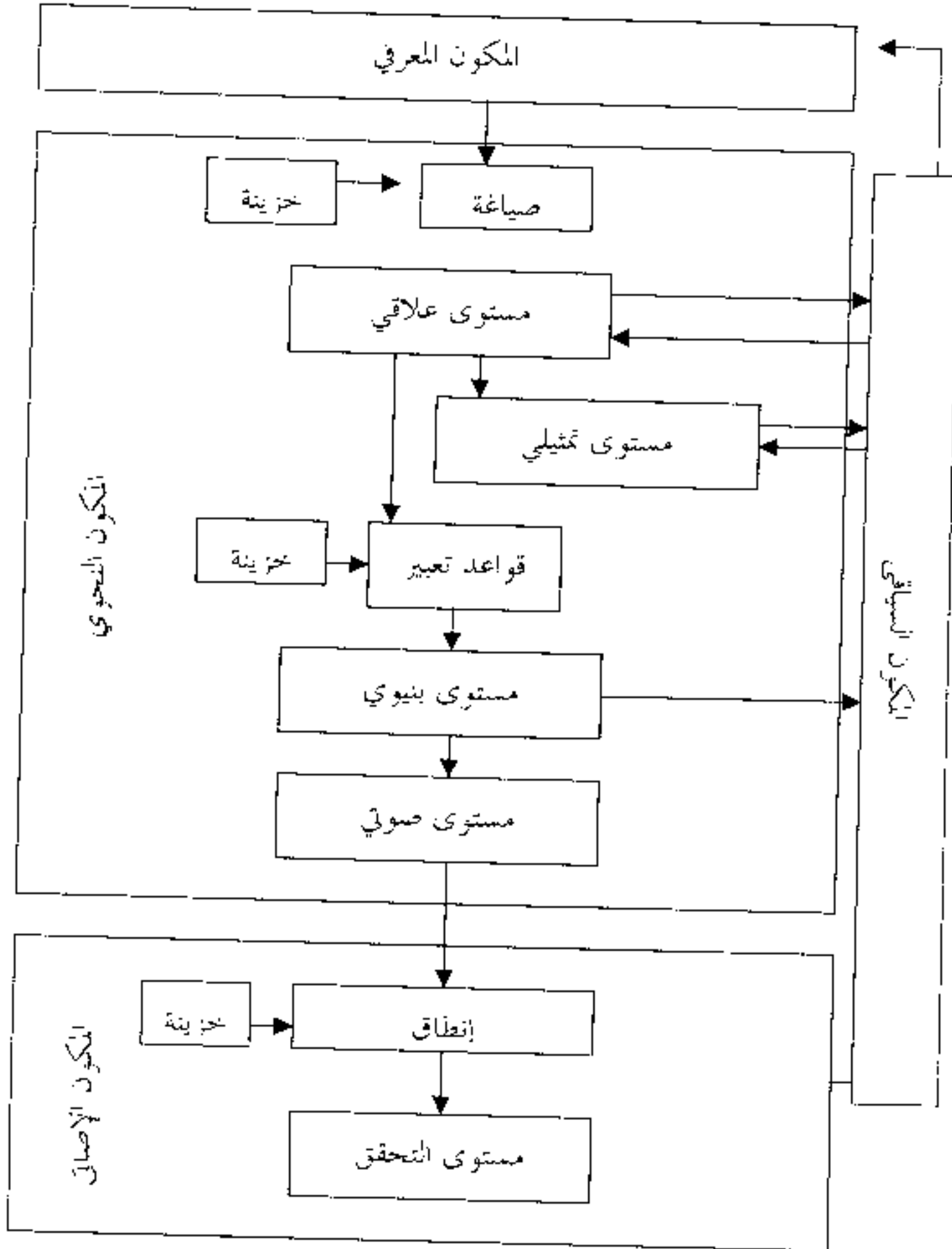
وتتكفل أوالية قواعد التعبير بنقل المستويين العلاقي والتمثيلي إلى مستوى بنيوي تحدّد فيه الخصائص الصرفية - التركيبية والخصائص الصوتية.

(ج) خرج قواعد التعبير بنية صرفية-تركيبية -- صوتية مجردة يضطلع المكون الإصاتي ("الفونيتيكي") بإنطاقها في شكل عبارة لغوية محققة.

(د) المكون السياقي محط رصد العناصر المقامية والمقالية التي تواكب إنتاج الخطاب ويقوم بدور الربط بين المكونات الثلاثة الأخرى.

توضح الترسيمة (25) تكوين جهاز نحو الخطاب الوظيفي وطريقة اشتغاله:

(25) نموذج نحو الخطاب الوظيفي



إذا ما نحن قارنا بين نموذج نحو الخطاب الوظيفي والنموذج المعياري وجدنا أن الفرق بينهما يكمن في الجوانب التالية:

أولاً، تم الفصل بين التداول والدلالة بحيث أصبحا يشكلان قائمتين مستقلتين متعاقبتين؛

ثانياً، لم تعد الخزينة مكوناً قائم الذات بل أصبحت موزعة بين إواليات المكونين النحوي والإصافي تعرف منها المفردات والمنحصرات ومختلف الصرفات والوحدات الصوتية والتطريزية المناسبة؛

ثالثاً، تعد البنية السطحية خرج قواعد التعبير صالحة لا للتأويل الصوري فحسب بل كذلك للتأويل الخطي والتأويل الإشاري. بهذه الخاصية الهامة، يصبح من الممكن استخدام نفس الجهاز الواسف في رصد إنتاج الخطاب المنطوق والخطاب المكتوب بل والخطاب الإشاري. بتعبير آخر، تمكننا هذه الخاصية من استعمال نفس الجهاز لرصد عملية التواصل بمختلف قنواتها.

3- النظرية الوظيفية واللغة العربية

سار المنحى اللساني الوظيفي بالمغرب في اتجاهين أساسيين اثنين: كان الهدف في المرحلة الأولى بناء أنحاء وظيفية أو أقساط من أنحاء وظيفية للغات المتواجدة بالمغرب خاصة منها اللغة العربية. بعد ذلك وموازية مع ذلك، وسّع حقل البحث ليشمل أيضاً التواصل بكل أنماطه ومجالاته وقنواته اللغوية منها وغير اللغوية انطلاقاً من مبدأ أن النظرية الوظيفية المثلى يجب أن تسعى في إحراز الكفايتين اللغوية والإجرائية معاً، أن تستخدم لا في وصف اللغات من حيث بنيتها فحسب بل كذلك من حيث استعمالها في القطاعات الاجتماعية - الاقتصادية.

1.3- بناء نحو اللغة العربية الوظيفي

أشرنا في مبحث سابق إلى أن البحث اللساني الوظيفي بالمغرب عني ببناء أنحاء وظيفية للغات متعددة وطنية وأجنبية قصد المقارنة وسعياً في

تحقيق الكفاية النمطية. إلا أن الجهد الأكبر في هذا البحث سُخرَ لنفحة
العربية فصحي ودوارج.

تم بناء نحو اللغة العربية الوظيفي في مراحل أربع مسيرة لتطور
النظرية الوظيفية بدءاً من النموذج النواة وانتهاءً بنموذج نحو الخطاب
الوظيفي.

1.1.3 - نحو اللغة العربية النواة

أخذ النموذج الأول، ما اصطلاحنا على تسميته "النموذج النواة"،
إطاراً لدراسة مجموعة من ظواهر اللغة العربية يمكن ردها إلى ثلاثة مجالات
كبرى هي: المعجم والاشتقاق والوظائف (الدلالية والتركييبية والتداولية)
وبنية الجمل وأماطها.

1.1.1.3 - المعجم والاشتقاق

أقمنا البحث في المعجم (المتوكل 1988 أ) على التمييز بين مفردات
أصول ترصد في الشق الأول من الخزينة (المسمى "معجماً") في شكل
مداخل معجمية ومفردات فروع (أو مشتقة) تنتج عن إجراء قواعد تكوين
المحمولات التي تتخذ دخلاً لها المفردات الأصول.

افترضنا ثمة أن المفردات الأصول هي المحمولات الأفعال الثلاثية
المصوغة على أحد الوزنين "فعل" و"فعل". على هذا الأساس، عدت جميع
المفردات الأخرى (أفعالاً وأسماء "مصادر" وصفات) مفردات مشتقة.

فيما يخص قواعد تكوين المحمولات الفعلية المشتقة، اهتمنا بالجوانب
الأساسية التالية:

(أ) تعد قواعد تكوين القواعد المنتجة بحيث تقصى من مجال هذه
القواعد المفردات المشتقة المخصوصة العدد. فلا يمكن، مثلاً، أن يُعدَّ الوزن
"فاعِل" وزناً منتجاً في اشتقاق الأفعال الجعلية (أو "العلية") إذ إن الأفعال
الواردة على هذا الوزن وبهذا المعنى أفعال محدودة كالفعل "باعِد" مثلاً⁽⁴⁾.

هذه الأفعال المخصوصة العدد لا تعد نائجة عن إجراء قاعدة تكوين وإن كان صرفها يوحى بالاشتقاق بل يرصد في المعجم وكأها مفردات أصول تتعلم تعلماً شأنها في ذلك شأن المفردات غير المشتقة.

(ب) يتخذ تكوين المفردات شكل سلاسل اشتقاقية حيث من الممكن أن تصبح مفردة مشتقة مصدر اشتقاق لمفردات أخرى.

من أمثلة ذلك أن الفعل "كاتب" المشتق من الفعل "كتب" يصبح بدوره مصدر اشتقاق للفعل "تكتب" وفقاً للسلسلة الاشتقاقية التالية:

(26) فعل ← فاعل ← تفاعل

(ج) تصنف قواعد التكوين، بالنظر إلى التأثير التي تحدثه في مقولة المفردة الأصل أو في محلاتيتها الكمية والكيفية.

(1) قواعد التكوين قواعد تحافظ على مقولة المفردة النحل وقواعد تنقل هذه المفردة من مقولة معجمية إلى مقولة معجمية أخرى من الصنف الأول القواعد التي تشتق أفعالاً من أفعال أو أسماء من أسماء. مثال ذلك قاعدة الجعل المسؤولة عن اشتقاق فعل مصوغ على وزني "أفعل" و"فعل" من فعل ثلاثي ذي الوزن "فعل" أو الوزن "فعل". خرج هذه القاعدة على سبيل المثال، الفعلان "أشرب" و"شرب" المشتقان من الفعل "شرب".

ومن القواعد المغيرة للمقولة قاعدة اشتقاق المصدر التي تنقل مفردة فعلاً إلى مفردة اسم كالذي يحصل حين نشق "الكتابة" من الفعل "كتب" مثلاً أو حين نشق "اسم المنفذ" (اسم الفاعل تقليداً) "كاتب" من نفس الفعل.

(2) يقصد بالمخالاتية الموضوعات التي من المتطلب أن تواكب مفردة ما. والمخالاتية مستويان: "مخالاتية كمية" و"مخالاتية كيفية".

يراد بالمخالاتية الكمية عدد الموضوعات التي من المفروض أن توارد المفردة. على هذا الأساس، يُميز بين الأفعال الأحادية "كالفعل "خرج"

والأفعال الثنائية كالفعل "شرب" والأفعال الثلاثية كالفعل "أعطني" التي يمكن أن نرصد محلاتيتها الكمية في البنيات (27 أ) و(27 ب) و(27 ج) على التوالي:

(27) أ - α (س¹)

ب - α (س¹) (س²)

ج - α (س¹) (س²) (س³)

أما المحلاتية الكيفية فيقصد بها السمات الدلالية (الوظائف الدلالية وسمات الانتقاء) التي تتطلبها المفردة في الموضوعات التي تواكبها. مثال ذلك أن الفعل "شرب" يستلزم في موضوعه أن يكون أوخما "حيا" حاملا لتوظيفة الدلالية "المتفد" وأن يكون ثانيهما "سائلا" حاملا لتوظيفة الدلالية "المتقبل" كما يتضح من الإطار الحملي (28):

(28) ش. ر. ب. {فعل} ف (س¹): <حي> (س¹) منف

(س²): <سائل> (س²) متق

التأثير الذي يمكن أن ينتج عن إجراء قواعد التكوين تأثيران: تأثير في المحلاتية الكمية توسيعاً أو تقليصاً، بالإضافة أو النزع في عدد الموضوعات وتأثير في المحلاتية الكيفية بتغيير السمات الدلالية للموضوعات مع الإبقاء على عددها الأصلي.

من القواعد الموسعة للمحلاتية قاعدة تكوين الأفعال الجعنية التي اقترحنا (المتوكل 1988 أ) صوغها على الشكل التالي:

(29) قاعدة تكوين الأفعال الجعنية

دخل: α : {فعل} ف (س¹)... (سⁿ)

خرج: عل {أفعل / فعّل} ف (سⁿ) جاعل... (س¹) بمجوعول

معنى: "جعل (سⁿ) (س¹) ينفذ الواقعة الدالّ عندها الفعل - الدّخل".

ومن القواعد المقرّنة للمحالاتية قاعدة البناء للمجهول التي صغناها
كالتالي:

(30) قاعدة البناء للمجهول

دخل: α ف (س¹) منف ... (س²)

خرج: α ف (س²) متق

معنى: "يتحمل (س²) الواقعة الدال عليها المحمول - ادخل"

في إطار النموذج النواة، تم التمييز بين ما هو أصل من المفردات وبين
ما هو فرع في اللغة العربية كما تم استكشاف نسق الاشتقاق في هذه اللغة
وصوغ قواعد سواء منها الموسعة للمحالاتية كقواعد تكوين الأفعال
الجعلية وأفعال الاعتقاد أو المقلصة لها كقواعد تكوين الأفعال المبينة
لمجهول وأفعال المطاوعة وأفعال الانعكاس وأفعال الانصهار⁽⁵⁾.

2.1.1.3 - الوظائف

لنذكر أن الوظائف في نظرية النحو الوظيفي تتوزع على ثلاثة
مستويات مستقلة حيث يميز بين الوظائف الدلالية (متقد، متقبل، مستفيد،
أداة...) ووظائف تركيبية (فاعل، مفعول) ووظائف تداولية (محور،
بؤرة/مبتدأ، ذيل).

بما أن الوظائف الدلالية من السمات التي تحدّد بدءاً في الإطار الحملي
ذاته داخل المعجم إذا كانت المفردة مفردة أصلاً أو داخل قواعد التكوين
إذا تعلق الأمر بمفردة مشتقة فإن تحقق هذه الوظائف في اللغة العربية قد تم
رصده ضمن مقاربة المعجم وقواعد التكوين التي عرضنا لها في الفقرة
السابقة. أما الوظائف التركيبية والتداولية فقد أفردنا لها دراسات خاصة
(المتوكل (1983) و(1987)).

1.2.1.1.3 - الوظائف التركيبية

أهم ما تم استكشافه في إسناد الوظيفتين الفاعل والمفعول في اللغة العربية يمكن تلخيصه في ما يلي:

(أ) اللغات بالنظر إلى إسناد هاتين الوظيفتين فئات ثلاث: لغات لا تستدعي استخدام الفاعل ولا المفعول ولغات لا تستخدم إلا الفاعل ولغات يستدعي رصد بنيتها الصرفية - التركيبية إسناد الفاعل والمفعول معاً كاللغة العربية.

أهم مؤشر لورود الفاعل في اللغة العربية إمكان إسناده لغير المكون المنفذ كأن يسند إلى المكون المتقبل أو المكون المستقبل أو إلى اللاحقين المكاني والزمني كما يتبين من الأمثلة التالية:

(31) أ- شوهدت المباراة

ب- أعطيت هند خاتم ماس

ج - سيرَ فرسخان

د - صيم يومَ عرفات

نفس الرائر يروز وورود الوظيفة المفعول إذ لا يقتصر إسنادها على المكون المتقبل بل يتعداه إلى مكونات أخرى:

(32) أ - شربت هند كأس شاي

ب - أعطى خالد هنداً خاتم ماس

ج - سار عمرو فرسخين

د - صام خالد يوم الخميس

(ب) كان يتم الربط بين التركيبين (33 أ) و(33 ب) في النماذج الأولى من النظرية التوليدية التحويلية كما هو معلوم عن طريق قاعدة تحويل قوامها "إصعاد" فاعل الجملة المدخجة حيث يصبح معمولاً للفعل الرئيسي:

(33) أ - ظننت هند أن خالدًا يعشق غيرها

ب - ظننت عند خالدًا يعشق غيرها

تلافياً لأية إيوائية تحويلية قمنا (المتوكل (1987)) برصد العلاقة بين التراكيب التي من قبيل (33 أ) و(33 ب) في إطار المقاربة الوظيفية المتأخرة آنذاك، عماد هذه المقاربة ما يلي:

(1) "تسرب" الوظيفة المنعول المنسدة إلى الجملة المدججة رميتها إلى داخل هذه الجملة فتسند إلى المكون فاعليها؛

(2) بعملية "التسرب" هذه "يُزحج" المكون المعني بالأمر من مكانه الأصلي (مجال الجملة المدججة) إلى مجال الفعل الرئيسي حيث يصبح أحد موضوعاته يحمل الوظيفة الدلالية "المتقبل" والوظيفة التركيبية المنعول ويأخذ إعراب النصب بمقتضى هذه الوظيفة؛

(3) لا ترد مقاربة "التسرب" و"الزحزحة" إلا في التراكيب التي ترئسها فئة محدودة من الأفعال الاعتقادية مثل "ظن" و"حسب".

2.2.1.1.3 - الوظائف التداولية

إذا كانت الوظائف الدلالية تحدد دور موضوعات المحمول ولواحقه في الواقعة وكانت الوظيفتان التركيبتان ترمزان إلى الوجهة المعتمدة في تقديم الواقعة، فإن الوظائف التداولية تحدد وضع المكونات داخل البنية الإخبارية.

أفردت دراسة قائمة الذات (المتوكل (1985)) للوظائف التداولية في اللغة العربية حيث تم التمييز بين ماهو "داخلي" من هذه الوظائف وبين ما هو "خارجي" وحيث تنوَّلت كل وظيفة على حدة من حيث المفهوم ومن حيث خصائص المكون الذي يحملها.

يمكن تلخيص هذه الدراسة للوظائف التداولية في اللغة العربية في الملصق الكبرى التالية:

1.2.2.1.1.3 - الوظائف الداخلية

الوظائف التداولية الداخلية وظيفتان تُسندان وفقاً للسياق (المقامي والمقالي) إلى موضوعين أو لاحقين داخل حمل الجملة نفسه.

هاتان الوظيفتان هما: "المحور" و"البؤرة" باعتبار انقسام البؤرة إلى "بؤرة جديد" و"بؤرة مقابلة".

(أ) يحمل الوظيفة المحور الموضوع أو اللاحق المخيل على الذات (شخص أو شيء أو غيرهما) التي تشكل "محط الحديث" في موقف تواصل معين كما هو الشأن بالنسبة للمكون "هند" في الحوار التالي:

(34) أ - ماذا شربت هند؟

ب - شربت هند فنجان قهوة

لوحظ في تلك الدراسة أن اللغة العربية لا تختلف عن غيرها من اللغات في كونها تنزع كغيرها إلى تجميع وظيفة المنفذ ووظيفة الفاعل ووظيفة المحور في مكون واحد وهو ما يطلق عليه في أدبيات اللسانيات النمطية مصطلح "الفاعل النموذجي". تضافر هذه الوظائف الثلاث هو سمة المكون "هند" في الجملتين (34 أ-ب) مثلاً.

تجميع الوظائف الثلاث ليس قاعدة بل مجرد نزوع عام يمكن أن يخالفه إسناد المحور إلى غير المنفذ-الفاعل.

(ب) تُسند بؤرة الجديد إلى المكون الحامل للمعلومة غير المتواجدة في مخزون المتكلم الذهني في موقف تواصل معين.

ذلك شأن المكون المفعول "فنجان قهوة" في الجملة (34 ب) على سبيل المثال.

أما بؤرة المقابلة فتُسند إلى المكون الذي يحمل معلومة "تصحیحية" تعوض معلومة في مخزون المخاطب يعتقد المتكلم أنها غير واردة.

في الجملة الثانية من الحوار التالي، نجد المكون "كأس شاي" مبرراً
تبيير مقابلة لا تبيير جديد كما كان شأن المكون "فنجان قهوة" في الجملة
(34 ب):

(35) أ - لقد شربت هند فنجان قهوة
ب - لا، كأس شاي شربت هند

2.2.2.1.1.3 - الوظائف الخارجية

رصدنا آنذاك في اللغة العربية ثلاث وظائف تداولية خارجية هما
وظيفة "المبتدأ" و"الذيل" ووظيفة "المنادى"
تكمن خارجية هذه الوظائف الثلاث في كونها تُسند إلى مكونات
تتموقع خارج الجملة كما يتضح من الترسمة العامة التالية:

(36) α # [محمول (س1)...(سن) (ص1)...(صن)] # α

حيث α = مكون خارجي؛ # = فاصل تطريزي

يقصد بالمبتدأ المكون المتصدر في التراكيب التي من قبيل (37):

(37) أما هند، فقد شربت فنجان قهوة

للمكون المبتدأ كما نفهمه هنا خصائص تميزه أهمها السمات التالية:

(1) سبق أن بينا أن كل عملية مخاطب تقوم عنى ركنين اثنين:
خطاب (منفوخ / مكتوب) ومجال هذا الخطاب.

في التراكيب التي من نمط (37) يقوم المكون المبتدأ بدور تحديد مجال
الخطاب في حين تشكل الجملة (أو النص) التي تليه الخطاب ذاته.

(2) بروز خارجية المبتدأ بالنظر إلى الجملة التي تليه انه يُقلت من
حيز قولها الإنجازية:

(38) أهند شربت فنجان قهوة (أم لا / * أم زينب)؟

بل إنه يمكن أن يفرد بقوة إجازية تخصه مباينة للقوة الإجازية
المواكبة للجملة:

(39) هندا؟ لقد شربت فنجان قهوة

بنيويًا، يمكن أن يفصل بين المبتدأ والجملة بإحدى الأدوات الصادرة
مما لا يسوغ حين يتعلق الأمر بمكون داخلي، موضوع أو لاحق قارن:

(40) أ - هندا، هل شربت فنجان قهوة؟

ب - " فنجان قهوة هل شربت هندا؟

(41) أ - هندا، إنما شربت فنجان قهوة

ب - " فنجان قهوة إن هندا شربت

(3) يرد المكون المبتدأ، في مستوى البنية التطريزية، مفصلاً بينه
وبين الجملة التي تليه بوقف يرمز إليه خطاً بقاصنة.

(4) رغم بحارجية، يظل المبتدأ مربوطاً بما يليه بشرط "الورود"
الذي إن حرق أدى بحرقه إلى جملة غير سليمة تداولياً كما يتبين من ضربي
الزوج الجملي التالي:

(42) أ - أما صومعة حسان، فإنها من آثار الرباط

ب - * أما صومعة حسان، فإنها من آثار مراکش.

(5) من اللغات (كاللغة الصينية مثلاً) ما لا تتطلب ربطاً إحصائياً بين
المبتدأ وأحد مكونات الجملة. أمّا في اللغة العربية فالأغلب أن يمثل للمبتدأ
بضمير عود:

(43) أ - خالد، عشقته زميلته

ب - * خالد، عشقت زميلته.

يطلق مصطلح "الذيل" على المكون الملحق بالجملة كما هو الشأن
في التراكيب التي من قبيل (44):

(44) قابلها خالد اليوم، هند.

يقوم المكون الذيل بدور توضيح أو تصحيح معلومة من المعلومات الواردة داخل الجملة. مثال دور التوضيح إيراد المكون "هند" في التركيب (44) لتحديد الذات التي يحيل عليها الضمير "ها" باعتبار أن المخاطب لم يستطع التعرف على هذه الذات بواسطة الضمير وحده. ومثال دور التصحيح ما يقوم به الذيل في التراكيب التي من قبيل (45):

(45) قابل خالد زينب اليوم، بل هنداً

يصدق على الذيل ما يصدق على المبتدأ من حيث خارجيته بالنظر إلى الجملة التي ينحى بها.

من سمات خارجيته الأساسية الفصل بينه وبين الجملة بوقف مرموز إليه خطاً بفاصلة. ويشاطر الذيل المبتدأ في اللغة العربية في وجوب التمثيل له داخل الجملة بضمير يحاونه. قارن:

(46) أ - سيتزوجها خالد، هند

ب - * سيتزوج خالد، هند

(ج) بعد أن كانت الوظائف التداولية الخارجية محصورة في النموذج النواة في وظيفتي المبتدأ والذيل، بينما أن واقع اللغة العربية يفرض إضافة وظيفة ثالثة هي وظيفة المنادى.

دور المكون المنادى في عملية التواصل استرخاء انبساط المخاطب. قد يرد المنادى منفرداً:

(47) يا خالد!

إلا أن أغلب استعمالاته مواكبته لخطاب يمكن أن يكون جملة أو نصاً كاملاً. في هذه الحالة، بخلاف المبتدأ والذيل ذوي الموقع الثابت، يمكن أن يتسوق المنادى قبل الجملة أو وسطها أو بعدها:

(48) أ - يا خالد، لا تخاصم أخاك

ب - لا تخاصم، يا خالد، أخاك

ج - لا تخاصم أخاك، يا خالد

في حالتَي تقدمه وتأخره، يأخذ المكون المنادى الصدارة المطلقة حيث يسبق المبتدأ في الحالة الأولى ويرد بعد الذيل في الحالة الثانية:

(49) أ - يا خالد، هند، قابلها بكر اليوم

ب - قابلها بكر اليوم، هند، يا خالد

3.1.1.3 - الوظائف والبنية الصرفية - التركيبية

رصدت في نفس الدراسة أخصائص الإعرابية وأخصائص الرتبية في علاقتها بالوظائف.

1.3.1.1.3 - الإعراب

الإعراب في اللغة العربية إعرابان: إعراب بنيوي وإعراب وظيفي

تسند الإعراب البنيوي صرفات معينة، أدوات ("إن" وزمرتها) وحروف وأفعال مساعدة ("كان" وزمرتها) وتراكيب معينة كالإضافة أما الإعراب الوظيفي فتسنده الوظائف التي تحملها المكونات.

تعد اللغة العربية من اللغات التي يتحتم فيها التمييز بين "الحالة الإعرابية" و"العلامة الإعرابية"، بين الرفع والنصب وبين النصب والفتح وبين الجر والكسر ما يفرض هذا التمييز أن الحالة الإعرابية لا تتحقق دائماً في شكل العلامة الإعرابية المتوقعة (جمع المؤنث السالم في حالة النصب) وأنها قد لا تتحقق إطلاقاً (كما هو الشأن في ما يسمى الاسم المقصور مثلاً).

يمكن القول إن النسق الإعرابي في اللغة العربية يبني إجمالاً على المقومات التالية:

(أ) حين يخلو المكون من أي وظيفة تركيبية فإنه يأخذ الحالة الإعرابية التي تقتضيها وظيفته الدلالية (النصب غالباً)

(ب) إذا ورد المكون حاملاً لوظيفة تركيبية بالإضافة إلى وظيفته الدلالية فإنه يأخذ الحالة الإعرابية التي تخولها إياه وظيفته التركيبية كما يتبين من التمثيل الإعرابي (51) للمركب الاسمي الفاعل في الجملة (50) مثلاً:

(50) شَرِبَ الشايُ

(51) (س^أ: شاي (س^أ)) متوقِّفٌ
رفِعَ

(ج) باعتبارها لا تشكل موضوعات ولواحق فصول الجملة، تأخذ المكونات الخارجية حالتها الإعرابية (رفع / نصب) بمقتضى وظيفتها التداولية نفسها.

(د) إذا توارد على نفس المكون إعرابان، إعراب وظيفي وإعراب بنيوي، فإن الغلبة تكون للإعراب الثاني الذي يحجب الإعراب الأول.

مثال ذلك ما نجده حاصلاً في الجملة (53)، في مقابل الجملة (52)، حيث يحجب إعراب النصب الذي تسنده الأداة "إن" إعراب الرفع الذي تقتضيه الوظيفة الفاعل:

(52) نال خالدٌ مبتغاه

(53) إن خالداً نال مبتغاه.

(هـ) تُسند الحالة الإعرابية إلى المركب الاسمي رمتة على أساس أن يسم الإعرابُ رأسَ المركب.

2.3.1.1.3 - الرتبة

نفس التفاعل بين أنواع الوظائف الثلاثة نجده قائماً حين يتعلق الأمر بتحديد رتبة المكونات مع فارق أن الغلبة هنا تكون للوظائف التداولية.

(أ) لا تتدخل الوظائف الدلالية في الرتبة إلا إذا خنت المكونات من وظائف تركيبية ووظائف تداولية حيث ترتب المكونات إذاك حسب سلمية الوظائف الدلالية من الموضوعات إلى اللواحق؛

(ب) باعتبار اللغة العربية من اللغات التي تصدر الفعل في الجملة، يتموقع المكون الفاعل بعد الفعل في حين يحتل المكون المنفعل، إن وُجد، الموقع الذي يني موقع المنفعل؛

(ج) يحتل الموقع الصدر الثاني من الجملة (على اعتبار الاحتفاظ بالموقع الصدر الأول للأدوات الجمالية كأدوات الاستفهام) المكون الحامل للوظيفة المحور أو الوظيفة بؤرة المقابلة في حين يظل المكون المسندة إليه بؤرة الجديد محتلاً لموقعه العادي التابع لوظيفة تركيبية أو وظيفة دلالية. رائر غلبة الوظائف التداولية على الوظائف التركيبية والدلالية أن المكون الحامل لبؤرة المقابلة يتموقع إجباراً في الموقع الصدر الثاني أياً كانت وظيفته التركيبية والدلالية كما هو شأن المكون المنفعل في الجملة التالية:

(54) كتاباً اشتريت (لا بمجمل).

(د) يخضع احتلال المواقع لتقيد "أحادية الموقعة" القاضي بالأى يحتل الموقع الواحد أكثر من مكون واحد. خرق هذا التقيد بفضي إلى تراكيب لاحنة من قبيل (55):

(55) * كتاباً اليوم اشتريت

(هـ) نجد، ولو على ندرة، محددات لرتبية ذات طابع بنيوي صرف "تعيد" مفعول المحدد الوظيفي وتحجبه. من أمثلة ذلك في العربية أن الأداة "لا" لا تكفي بإسناد النصب إلى الاسم مدخولها بل تنقنه من موقعه الوظيفي المعد له (موقع الفاعل مثلاً) إلى الموقع الصدر كما هو حاصل في الجملة (53) مثلاً.

(و) فيما يخص الوظائف التداولية الثلاث، المبتدأ والمنادى والذيل، فإنها تحتل مواقع ثابتة قبل الجملة وبعدها على التوالي.

حاصل رصدنا لترتيب المكونات ومحدداته في اللغة العربية البنية الرتبية العامة التالية:

(56) منادى، مبتدأ؛ [صدر 1 صدر 2 ف فا (مف) (ص)]، ذيل

حيث: صدر 1 و صدر 2 = الموقعان المعدان للأدوات الجملية
والخوور وبؤرة المقابلة وحيث: ص = مجال تحتله المكونات الملاحق التي لا
تحمل وظيفة تداولية أو وظيفة تركيبية.

4.1.1.3 - بنية الجملة وأنماطها

أهم القضايا التي عُنينا بها في تنميط الجمل العربية في إطار النموذج
النواة قضيتان كبيرتان: الجمل الرباطية (المتوكل (1987)) والجمل المركبة
(المتوكل (1988)).

1.4.1.1.3 - الجمل الرباطية

يُقصد بالجملة الرباطية الجملة ذات المحمول غير الفعلي (صفة، اسم،
ظرف) المتضمنة لفعل رابط (كالفعل "كان" مثلاً).

مثال ذلك الجمل التي من قبيل (57 أ-ج):

(57) أ - كان خالدًا نائمًا

ب - كان بكرٌ أستاذًا

ج - كان السفر البارحة

اهتممنا في تناولنا لهذا الضرب من الجمل بالدفاع عن الأطروحات
الأساسية التالية:

(أ) اعتيد في أدبيات النحو التوليدي التحويلي الألي على مقارنة
الجمل الرباطية كأصول للجمل التي لا تتضمن رابطًا باعتبار جمل الصنف
الثاني ناتجة عن تحويل حذف يُجرى على جمل الصنف الأول. حسب هذا
المنظور، تعد الجمل (58 أ-ج) محوكة حذفًا عن الجمل (57 أ-ج):

- (58) أ - خالد نائم
 ب - بكر أستاذ
 ج - السفر اليوم

كانت لنا بنية الجملة العربية وسيلة للدفاع عن أطروحة أقل كلفة وأقرب إلى الخدس والكفاية النمطية، الأطروحة المعتمدة في نظرية النحو الوظيفي القائلة بأن الفعل الرابط لا يظهر في البنية التحتية وإنما يدمج بواسطة إحدى قواعد التعبير حين تتوافر السمات الزمنية والجهية التي تقتضي هذا الإدماج.

(ب) لا ينحصر الفعل الرابط في الفعل "كان" الذي يدمج في بنية مخصصها الزمني "المُضِي" أو "الاستقبال" أو "اللازم" كما هو الشأن في الجمل (59 ب-د) مثلاً:

- (59) أ - الجو حار اليوم
 ب - كان الجو حاراً أمس
 ج - سيكون الجو حاراً غداً
 د - يكون الجو حاراً في موسم الصيف

ثمّة أفعال رابطة أخرى يحدّد إدماجها المخصصُ الجهي إضافة إلى المخصص الزمني. من هذه الأفعال الرابطة الأفعال الدالة على الصيرورة:

(60) أصبح / أمسى / أصبح الجو حاراً

والأفعال الدالة على الاستمرار:

(61) ما زال / لا يزال الجو حاراً

(ج) بخلاف ما هو معلوم عن لغات سامية أخرى، لا تلجأ اللغة العربية إلى ضمير غيبة يربط بين الفاعل والمحمول غير الفعلي:

(62) أ - * خالده هو نائم

ب - * خالده هو أستاذ

ج - * السفر هو غداً

يمكن أن يدمج الضمير "هو" (وتصرفاته من حيث الجنس والعدد) في التراكيب ذات المحمول الاسمي إلا أن ما يحدّد إدماجه ليس المختص (زمنياً كان أم جغياً) وإنما الوظيفة التداولية بؤرة المقابلة كما يتبين من المقارنة بين الجملتين (64 أ-ب):

(63) أ - من القادمة؟

ب - هند القادمة

(64) أ - القادمة سعاد

ب - هند هي القادمة

(د) فيما يخص الحالة الإعرابية النصب التي تسمي المحمول غير الفعلي في التراكيب الربطية، فإنها ليست إعراباً وظيفياً وإنما إعراب بنيوي يُسند الفاعل الربط نفسه.

2.4.1.1.3 - الجمل المركبة

كان قوام الجملة في النموذج النواة حملاً بسيطاً يتضمن محمولاً (فعلاً أو اسماً أو صفة أو ظرفاً) وعدداً معيناً من الموضوعات واللواحق كما تبين ذلك الترسيم العامة التالية:

(65) جملة = [محمول (س^أ) ... (س^ب) (ص^أ) ... (ص^ب)]

حمل

على هذا الأساس وضعنا تعريف الجملة المركبة وصغناه كالتالي:
(المثوكل (1988 أ)):

(66) الجملة المركبة

"الجملة المركبة جملة تتضمن أكثر من حمل واحد"

اقترحنا آنذاك تمييزاً للحمل المركبة في اللغة العربية يميز بين الحمل
المدمجة والحمل غير المدمجة.

(أ) تُعد جملة مدمجة كل حمل يشكّل بالنظر إلى الحمل الرئيسي
(الحمل المدمج) حذاً (موضوعاً أو لاحقاً) أو جزءاً من حذّ، من أمثلة
الحُمُولِ الحدود التراكيب التي من قبيل (67 أ-ج):

(67) أ - بلغ خالد أن هنداً ستسافر

ب - يتمنى خالد أن تعود هند

ج - سيغادر خالد القاعة حين سيدخلها بكر

ومن أمثلة الحُمُولِ أجزاء الحدود الحُمُولِ الموصولية التقييدية:

(68) زارني الرجل الذي قابلناه أمس

فيما يتعلق بالحُمُولِ المدمجة الحدود، تناولنا على الخصوص القضايا
التالية:

(1) يأخذ الحمل الحذّ من الوظائف الدلالية والتركيبية والتداولية ما
يمكن أن يأخذه الحذّ الاسم. فالحمل المدمج "أن تعود هند" في الجملة (67)
(ب)، مثلاً متقبل مفعول وبؤرة جديد باعتبار هذه الجملة جواباً للجملة (ج)
(69):

(69) ماذا يتمنى خالد؟

(2) تتحدّد أداة الإدماج ("المصدري" في اصطلاح النحو التوليدي
التحويلي) على أساس الوظيفة التي يأخذها الحمل المدمج كما يبيّن من
المقارنة بين الجملتين (67 ب) و(67 ج).

(3) يحتل الحمل المدمج الموقع الذي تحوله إياه وظيفته التركيبية أو التداولية كما هو الشأن، مثلاً، في الجملة (67 ب) حيث يحتل الحمل "أن تعود هند" موقع المفعول بؤرة الحديد. إلا أنه حين يتوارد ومركبا اسميا آخر فإنه يخضع لمبدأ "التعقيد المقوي" القاضي بأن تتأخر المكونات الأكثر تعقيداً عن المكونات الأقل تعقيداً.

هذا ما نجده حاصلًا في الجملة (67 أ) حيث زحلق الحمل المدمج الفاعل إلى الموقع الأخير وإن كان حكمه وظيفيا أن يتقدم على المركب الاسمي المفعول تلافياً لتراكيب من قبيل (70).

(70) ؟؟ بلغ أن هنداً ستسافر خالداً

أما في جانب بنية الحمول الموصولة، فقد ركزنا الاهتمام على قضيتين: إعراب الضمير الموصول وتوارده مع ضمير العدد.

(1) يستقي الضمير الموصول في اللغة الإنجليزية مثلاً إعرابه من وظيفته التركيبية والدلالية داخل الجملة الموصولة نفسها:

(71) a - I saw the student who succeeded

b - *I saw the student whom succeeded

أما في اللغة العربية فإن الضمير الموصول يأخذ إعرابه بالتبعية للاسم رأس الجملة الموصولة:

(72) أ - رأيت الرجلين اللذين ألفا هذا الكتاب

ب - *رأيت الرجلين اللذان ألفا هذا الكتاب.

(73) أ - حضر الضيفان اللذان دعونا أمس

ب - *حضر الضيفان اللذين دعونا أمس.

يخرج عن هذه القاعدة طبعاً الضمير الموصول الذي يتصدر الجمل الموصولة غير التقييدية (أو "البديلية")

(74) أ - رأيت الرجلين، من ألفا هذا الكتاب
ب - حضر الضيفان، من دعوناها أمس

(2) تفرد اللغة العربية بخاصية إمكان تضمن الجملة الموصولة لضمير موصول وضمير عود في نفس الجملة. فإلى جانب التراكيب التي من قبيل (73 أ) يمكن أن نجد:

(75) حضر الضيفان اللذان دعوناها أمس

بل إن هذا الإمكان يصبح ضرورة حين يتعلق الأمر بالمكون "المستقبل":

(76) أ - قابلت الرجل الذي أعطيته كتاباً.
ب - *قابلت الرجل الذي أعطيت كتاباً.

(ب) في مجال الجمل غير المدبجة، درسنا أصنافاً ثلاثة من الجمل: الجمل الاعتراضية والجمل الأرباض والجمل المعطوفة.
(1) يُعدّ حملاً اعتراضياً كلُّ حمل يتخلل حملاً آخر دون أن يُشكل حملاً من حدوده .

من أمثلة ذلك ما نجده حاصلاً في الجملة التالية:

(77) هجر خالد - سامحه الله - هنداً

(ب) يمكن أن ترد المكونات الخارجية الثلاثة المبتدأ والدليل (والمنادى) مركبات اسمية كما تقدم ويمكن أن ترد كذلك حمولاً قائمة الذات:

(78) أ - أن يكتب بكر شعراً مبدعاً، ذلك ما لن أصدقه
ب - قضت هند الصيف بالخارج، بل مكثت في البيت
ج - يا من ينتظر وراء الباب، تفضل.

(3) تصاغ قاعدة العطف بين المحمول، في النموذج التواقي، على الشكل التالي:

$$(79) \leftarrow \alpha \leftarrow \alpha^1 \text{ و } \alpha^2 \dots \alpha^n \quad (n \geq 2)$$

حيث: $\alpha = \text{حمل}$

تخضع القاعدة (79) لقيود عام صغناه كالتالي:

(80) قيد التناظر

"يعطف بين المتناظرات"

يقضي هذا القيد أن يتماثل الحملان المتعاطفان من عدة وجود أهمها:

القوة الإنجازية:

(81) أ - هل حضر الزوار وهل استقبلهم خالد؟

ب - * حضر الزوار وهل استقبله خالد؟

ومقولة المحمول:

(82) أ - خرج زيد ودخل بكر

ب - * خرج زيد وبكر داخل (باعتبار الواو واو عطف)

والمخصص الزمني:

(83) أ - نامت هند وسهر خالد

ب - * نامت هند ويسهر خالد

والوظيفة التداولية:

(84) أ - هنداً قابلت وزينب صادفت

ب - * هنداً قابلت وصادفت زينب

حاولنا بنفس المناسبة أن فرصد التوزيع التكاملي بين الأدوات العاطفة التي تحقق في اللغة العربية العاطف المنجرد في "القاعدة (79)، فأرجعنا وسائط تحقق هذه الأدوات إلى وسيط الوصل (أواو، انفاء، ثم، حتى) ووسيط الفصل بشقيه التحويري (أو، أم) والإخراجي (لا، بل، لكن). وميزنا داخل الوسيط الواحد بين وسائط فرعية كوسيطي وصل الفور ووصل التراخي الضابطين لقاعدة إدماج انفاء و"ثم" على التوالي:

2.1.3 - بعد النحو النواة: إغناء وتطوير

يشكل النحو النواة الذي عرضنا لأهم ملامحه في فقرات المبحث السابق البنية الأساس في بناء نحو اللغة العربية الوظيفي. وقد تم بناء هذا النحو عن طريق عمليتي إغناء وتطوير واكتنا إفراد نظرية النحو الوظيفي للنموذج المعياري فنحو الطبقات التالي ثم نحو الخطاب الوظيفي.

يمكن القول بوجه عام إن الإغناء والتطوير لاحقاً لمكونات النحو ذاتها وطريقة اشتغالها كما لاحقاً مجال انطباقيتها.

1.2.1.3 - المكونات

إن ما لحق مكونات النحو من تغيير مس أساساً البنية التحتية الدلالية التداولية لكن كان له أثر كذلك في البنية الصرفية-التركيبية بحكم الترابط بين البنيتين.

1.1.2.1.3 - البنية التحتية

مرت إعادة النظر في البنية التحتية بشقيها الدلالي والتداولي بمرحلتين: مرحلة إغناء ومرحلة تعديل مسابقة لتطور بناء النحو عبر النماذج التي تلت النحو النواة.

1.1.1.2.1.3 - الدلالة

من قضايا الدلالة التي تنوَّلت آنذاك (المتوكل (1995) و(1997)) العبارات المتحجرة في علاقتها بظاهري المخازم والالتباس.

(أ) يُقصد بالعبارات المتحجرة العبارات التي من قبيل (85):

(85) رأى خالد النور في أحد أيام فصل الربيع

أهم مقومات التحجر في هذا الضرب من العبارات المقومات التالية:

(1) مدلول العبارة الإجمالي ليس مجموع مدلول عناصرها مضموماً بعضها إلى بعض. فمدلول العبارة "رأى النور" ليس ناتج ضم مدلول "رأى" إلى مدلول "النور".

(2) تشكل العبارة بكل عناصرها وحدة بنيوية "محمدة" تستعصي على العمليات البنيوية المألوفة. فلا إضافة تسوخ:

(86) * رأى خالد النور المضيء في أحد أيام الربيع

ولا تعويض بمرادف:

(87) أ - * أبصر خالد النور في أحد أيام الربيع

ب - * رأى خالد الضوء في أحد أيام الربيع

ولا نقل:

(88) أ - * النور رأى خالد

ب - النور، رآه خالد

ج - رآه خالد، النور

(ب) تقوم المقاربة التي اقترحناها تبعاً لديك (1988 و 1989)

للعبارات المتحجرة على الطروح التالية:

(1) كباقي المفردات، ترصد العبارات المتحجرة في المعجم في شكل

مداخل ذات شقين: إظهار حملي وتعريف دلالي كما يتبين من الترسيم (

(89):

(89) مدخل معجمي:

ط: ...

ت: ...

حيث ط = إطار حملي؛ ت = تعريف دلالي

على أساس الترسيم (89)، يكون الإطار الحملي للعبارة "رأى النور" هو الإطار (90):

(90) رأى (س¹ = حي) منف (س²: النور) متق

ت: "وُلد"

(2) لكن بخلاف المفردات الأخرى، ترد عناصر العبارة المتحجرة مدججة في محلاتها أصلاً مع تحديد خصائصها الصرفية وهو ما يتم القيام به عادة في مرحلة لاحقة من مسطرة الاشتقاق.

(3) يفاد من المدخل (90) أن التعريف الدلالي للعبارة المتحجرة يوضع على أساس أنه تعريف إجمالي لا على أساس أنه مجموع مداليل عناصرها.

(ج) يمر مسلسل التحجر، عامة، بثلاث مراحل كبرى: مرحلة الدلالة الحرفية ومرحلة الدلالة المجازية ومرحلة تحجر الدلالة.

(1) في المرحلة الأولى، تأخذ العبارة خاصيتي المؤلف من العبارات: أولاً: الاستقلال البنيوي حيث يسوغ تعويض عناصرها بمرادفات كما يسوغ نقلها، ثانياً: تنضم مداليل عناصرها بعضها إلى بعض للحصول على مدلول العبارة الإجمالي.

(2) في المرحلة الثانية يضاف إلى مدلول العبارة الحرفي مدلول استعمالها المجازي ويظل هذان المدلولان متزامنين مع إدراك المتكلم - السامع لحرفية الأول ومجازية الثاني.

(3) أمّا في المرحلة الثالثة، مرحلة التحجّر، فإن المدلول الحرفي الأصلي ينزاح من الاستعمال ويُصبح المدلول المجازي، بعد فقدان مجازته المدلول العاديّ الوحيد.

يندرج هذا المسلسل التحجّري ذو المراحل الثلاث في ما قُورب في نظرية النحو الوظيفي في إطار ما سُمّي "فقدان الوسم" باعتباره الاستعمال المجازي استعمالاً موسوماً بالنظر إلى الاستعمال الحرفي يفقد موسوميته حين يتحوّل إلى استعمال مألوف عوضاً عن الاستعمال الحرفي الأصل.

نأخذ للتمثيل العبارة الدارجة المصرية "خربها وقعد على تلها".

نفترض أن هذه العبارة كانت تستعمل في البدء حرفياً للتدليل على أن شخصاً ما قام بتخريب مبنى ما ثمّ قعد على ركامه. بعد ذلك، أصبح لهذه العبارة استعمال ثانٍ مجازي يضاف إلى الاستعمال الحرفي ويزامنه. في الاستعمال المجازي تأخذ العبارة مدلولاً مغايراً لمجموع مداليل عناصرها. ظل مدلول العبارة متزامنين إلى أن تُنوسى المدلول الحرفي الأصلي وأصبح المدلول المجازي المدلول المألوف الوحيد.

(د) تعد عبارة ملتبسة العبارة التي تحتمل أكثر من قراءة (تأويل) واحدة كما هو شأن العبارة (91):

(91) أ - رأيت عيني هند.

ب - رأيت مقلبي هند

ج - رأيت جاسوسي هند.

والالتباس، من حيث طبيعته، التباس بنيوي ودلالي وتداولي (إحالي أو إجازي):

ينتج الالتباس البنيوي عن ورود عبارة ما قابلة لأن تردّ إلى أكثر من بنية تحتية واحدة:

- (92) أ - ما ألدَّ حبَّ هند
ب - ما ألدَّ حبَّ هند خالد
ج - ما ألدَّ حبَّ عمالده هند

ويحصل التباس دلالي في العبارة المتضمنة لمكون حامل لأكثر من معنى كما هو حاصل في الجملة (91) مثلاً.

أما الالتباس التداولي فهو نوعان: التباس في القوة الإيجازية ناتج عن مواكبة أكثر من قوة إيجازية لنفس الجملة ولا مرجح:

- (93) أ - هل بإمكانك أن تغلق الباب؟
ب - هل بإمكانك أن تتحرك نحو الباب لتغلقه؟
ج - أرجوك أن تغلق الباب.

والتيباس في الإحالة:

- (94) أ - تمنى هند أن تتزوج مصرياً
ب - تمنى هند أن تتزوج رجلاً مصرياً أياً كان.
ج - تمنى هند أن تتزوج رجلاً بعينه وهو مصري الجنسية.

والالتيباس، من حيث حيّزه، التباس إيجازي كما مر بنا أو التباس قضوي:

- (95) أ - نافذة حجرة هند مغلقة
ب - هند غائبة عن بيتها
ج - هند نائمة

كما يمكن أن يتحيّز في المحمول:

- (96) أ - ساءني أن قذف خالد بكراً
ب - ساءني أن رمى خالد بكراً بحجر
ج - ساءني أن شتم خالد بكراً.

أو في أحد حدود المحمول كما في الجملة (91 أ).

تناولنا ظاهرة الالتباس في اللغة العربية في أحد فصول دراسة خصصناها لبنية الخطاب التحتية الدلالية والتداولية (المتوكل (1995)) كما عرضنا في نفس الدراسة للمقاربة التي يمكن أن نرصد بها هذه الظاهرة وصفاً وتفسيراً في إطار النموذج المعياري. ما يهمنا هنا هو التقابل بين الالتباس و"الإلباس" في علاقته بظاهرة التهجّر.

يبين الإلباس الالتباس من الوجوه التالية:

(1) الالتباس ظاهرة عرضية في حين أن الإلباس عملية مقصودة يصطنعها المتكلم اصطناعاً لغرض خطابي معين؛

(2) يرتفع الإلباس إما بالسياق المقامي أو المقالي في حين يسخر المتكلم كلا السياقين للحفاظ على الإلباس وضمان استمراره؛

(3) يرد الإلباس في أنماط من الخطاب خاصة كالخطاب الأدبي والخطاب الساعر والخطاب الإشهاري مثلاً. الالتباس، بعبارة أخرى، ظاهرة "عادية" في حين أن الإلباس يندرج في الوسوم من الخصائص الخطابية.

يتحقق الإلباس في العبارة المتهجّرة عن طريق ما أسميناه "فكّ التهجّر" الذي يتم حين يعيد المتكلم إلى العبارة مدلولها الحرفي الأصل مع الإبقاء على المدلول المتهجّر لغرض تواصلية معين.

مثال ذلك ما نجده حاصلًا في العبارة (97) التي تأخذ معناها المجازي المتهجّر ("مضياف") ومعناها الحرفي المفقود:

(97) كنت أعلم أن هنداً كثيرة الرماد لكنني لم أكن أعلم أن بمطبخها هذا العدد الهائل من القدور.

في هذه العبارة، قام المتكلم بإحياء المعنى الخرفي وتزمينه مع المعنى المتحجر بواسطة إضافة الجملة الاستدراكية "لكني لم أكن أعلم..."

2.1.1.2.1.3 - التداول

كانت البنية التحتية في النموذج النواذ، كما تقدم، مقصورة على حمل دلالي يجمع بين محمول وعدد معين من الموضوعات والنواحق في حين كان التداول منحصرًا في الوظيفتين محور والبؤرة بشقيها "الجديد" و"التقاهلي".

تلافياً لهذا القصور واستشرافاً للكفاية التداولية، تم إغناء العنصر التداولي التحيي بإضافة القوة الإنجازية مخصصاً لنواحق (المتوكل (1986) أ و ب)) من جهة والتمييز داخل المحور والبؤرة بين محاور فرعية وبؤر فرعية (ديت (1989) والمتوكل (1993) أ)) من جهة ثانية.

فيما يخص اللغة العربية، تنوّلت في إطار إغناء الشق التداولي من البنية التحتية القضايا التالية:

(أ) أول هذه القضايا الحمولة الإنجازية للعبارة للغةوية.

الحمولة الإنجازية شقان: مخصص ونواحق يشكلان طبقة قائمة الذات تعدو طبقة القضية كما يتبين من الترسيم (98):

(98) [مخصص إنجازي [قضية] لاحق إنجازي].

اهتمنا خاصة بالاستفهام في اللغة العربية (المتوكل (1986)) و (1993)) حيث تناولنا من خلاله القضايا الإنجازية الكبرى التالية:

(1) يتحتم التمييز بين "النمط الجملي" (صيغة الجملة الصرفية- التركيبية) والقوة الإنجازية حيث إن نفس النمط الجملي يرد دالاً على القوة الإنجازية المتوقعة (السؤال) كما يمكن أن يرد دالاً على غيرها:

(99) أ - هل حضر كل الضيوف؟

ب - هل يستوي العالم والجاهل؟!

(2) القوة الإنجازية قوتان: قوة إنجازية "حرفية" كما في الجملة (99 أ) وقوة إنجازية "مستزمنة" كما في الجملة (99 ب).

لرصد الانتقال من القوة الإنجازية الأولى إلى القوة الإنجازية الثانية، اقترحنا (المتوكّل (1991) و(1993) مسطرة تأويلية قوامها سلسلة من قواعد الاستدلال مستوحاة مما هو وارد عند سورل (سورل (1979)) يَضْمَعُ بها القالب المنطقي. هذا النمط من قواعد الاستدلال هو الذي يمكن انخاضه من تأويل الجملة (99 ب) على أساس أنها خبر منفي لا سؤال محض.

(3) من غير النادر أن تتحجر القوة الإنجازية المستزمنة تحت ضغط الاستعمال وعن طريق فقدان الوسم فتصبح القوة الحرفية الوحيدة للعبارة ذلك ما يحصل عادة في العبارات الاستفهامية المنفية التي تفقد مدلول السؤال المحض وتتحجر في مدلول الخبر المثبت:

(100) أ - أم أسلمك كل ما أملك !

ب - لقد سلمتك كل ما أملك.

(4) قد يوارد مخصّص القوة الإنجازية لاحق إنجازي يوضحها أو يدققها أو يعدّها. ترد اللاحق الإنجازية إما مركبات اسمية (أو حرفية) أو جملاً وتأخذ، على الأرجح، الموقع الصدر في الجملة.

من أمثلة ذلك:

(101) أ - (ب) صراحة، لست واثقاً مما يقول هذا الرجل

ب - بجده، هل ستفي هند بوعدهما؟

ج - بما أنك تريد أن تعرف كل شيء، لقد قررت الإدارة عزلك.

(5) ينقسم الاستفهام من حيث حيزه إلى استفهام جزئي (أو استفهام مركب) واستفهام كلي (أو استفهام جملة).

مثال استفهام المركب:

(102) أ - أين ذهب خالد؟

ب - أ إلى فاس ذهب خالد (أم إلى مراكش)؟

ومثال استفهام الجملة:

(103) أ - هل سافرت هند؟

ب - أسافرت هند (أم لا)؟

(6) يتفاعل في التأشير للاستفهام في اللغة العربية وسيطان: وسيط الحيز ووسيط نوع البؤرة المسندة إلى المستفهم عنه.

يتحقق المركب الاسمي المستفهم عنه الحامل لبؤرة الجديده في شكل ضمير استفهام كما هو الشأن في الجملة (102 أ) مثلاً.

أما الأداة "هل" و"الهمزة" فقد تسنى لنا أن نرصد توزيعهما التكاملي كالتالي:

تستعمل الأداة "هل" حين ينصب الاستفهام على الجملة رمتها (أو القضية تحديداً) وتكون الجملة حاملة لبؤرة الجديده كما في (103 أ) في حين تستعمل الأداة "الهمزة" حين يحمل المستفهم عنه بؤرة المقابلة سواء أكان مركباً اسماً كما في الجملة (102 ب) أو جملة تامة كما في (103 ب).

توضح التوزيع التكاملي هاتين الأداةين الترسيمتان التاليتان:

(104) أ - [هل] [جملة] [بوجد]

ب - [همزة] [جملة] [بؤمقا]

أو
[همزة] [مركب] [بؤمقا]

دليل صحة الترسيم (104) أن الأداة "هل" لا ترد حين يكون المستفهم عنه مركبا اسميا، بؤرة جديد أو بؤرة مقابلة:

(105) أ - * هل ذهب خالد إلى فاس (بئر "فاس")؟
ب - * هل إلى فاس ذهب خالد (أم إلى مراكش)؟

كما يمتنع ورودها مع جملة حاملة لبؤرة المقابلة:

(106) * هل ذهب خالد إلى فاس (أم لا)؟

(ب) من إنجازات النموذج المعياري (ديك (1997)) إدماج طبقة تتوسط طبقتي القوة الإنجازية والحمل. دور هذه الطبقة التمثيل في البنية التحتية للسّمات الوجهية. بهذا الإدماج أصبحت البنية التحتية الثلاثية الطبقات كالتالي:

(106) [مخصص إنجازي] [مخصص وجهي] [حمل] [لاحق وجهي]
لاحق إنجازي]

أفردنا بدراسة خاصة (المتوكل (1995)) السّمات الوجهية من حيث طبيعتها وحيزها وكذلك من حيث الوسائل التي تسخرها اللغة العربية لتحقيقها. وأولينا في نفس الدراسة وفي كتابات أخرى (المتوكل (1999)) و(2005)) اهتماما خاصا لقضيتين عددناهما أساسيتين: أولا الفرق بين السّمات الإنجازية والسّمات الوجهية - مخصصات وتواحق - الذي لم يأخذ حقه من العناية في أطر نظرية أخرى وثانيا: طبيعة "التعجب" أهر نمط جملي أم قوة إنجازية أم وجه قضوي.

(1) التيسر الأمر في غالب المقاربات بين اللواحق التي من قبيل "فعلا" و"حقا" و"بالتأكيد" واللواحق التي من قبيل "صراحة" و"بصدق" وغيرهما حيث عدت جميعها "لواحق جملة" دون أي تمييز مع أن هاتين الفئتين من اللواحق تختلفان دلالة ووظيفة وتركيبا.

من أهم ما اقترحه لروز هذا الاختلاف؛ يمكن توارده لاحقاً من الفئة الأولى ولاحقاً من الفئة الثانية في حين يمنع التوارد بين لاحقين من نفس الفئة:

(107) أ - بصراحة، فعلاً، لم يوفق بكر في محاضراته
ب - بصدق، حقاً، ساء لي كلام بكر

(108) أ - * بصراحة، بصدق، لم يعجبني تدخل بكر
ب - * فعلاً، حقاً، لم يوفق بكر في محاضراته

يمكن أن يُستدل برائز التوارد وعدمه هذا على عدم التماثل الفئتين من التوافق إلى طبقة واحدة في بنية الجملة.

نفس الالتباس التطبيقي وقعنا فيه في دراسة سابقة (المشوكل (1986)) حين وضعنا، من حيث الموقع، أداتي الاستفهام "هل" و"ألمزة" وأدوات صدور أخرى مثل "إن" و"ليت" و"لعل" في زمرة واحدة على أساس أنها جميعها أدوات جملية تحتل الموقع المصدر مع أن الأدوات الأخيرة يمكن أن توارده أداة استفهام في نفس الجملة:

(109) أ - هل إن هنداً ستعود؟
ب - أ إن خالداً سيخطب هنداً؟

بفضل اقتراح النموذج المعيار توسيط قضية وجهية بين طبقتي الحمل والإنجاز تسنى التمييز بين الإنجاز والوجه والتمثيل هما التمثيل الملائم في البنية التحتية كما أتيح رصد الخصائص الصرفية-التركيبية ووسائل تحققها أدوات ولواحق. بذلك أصبح من الممكن القول إن الموقع المصدر في الجملة موقعان: موقع أول تحتله الأدوات أو اللواحق الإنجازية كأداتي الاستفهام وموقع ثانٍ مخصص لإيواء الأدوات واللواحق الوجهية كما توضح ذلك البنية الموقعية العامة التالية:

(110) (مكون خارجي، [م¹ Φ | فامف (ص)]، (مكون خارجي)

حيث م¹ = موقع الأدوات والنواحق الإنجازية

م⁰ = موقع الأدوات والنواحق الوجيهية.

(2) دأبت الأبحاث التمهيدية والأبحاث الحديثة بما فيها النحر الوظيفي (ديك (1997 ب)) على عند التعجب إماماً تمضاً جملياً يقابل الخبر والاستفهام والأمر أو قوة إنجازية قائمة الذات.

ما حاولنا التبرهنه عليه من خلال معطيات اللغة العربية فصحي ودوارج ولغات أخرى هو أن التعجب، بخلاف السؤال والخبر والأمر والوعد والوعيد وغير ذلك، ليس قوة إنجازية وإنما هو وجد من الوجوه الذاتية. مما احتججنا به هذه الأشرطة ما يلي:

أولاً: أن التراكيب التعجبية تحمل أصلاً قوة إنجازية معينة تكون في الغالب إماماً خبرياً:

(111) ما أجمل هنداً وهي ترتدي حمراً أسود!

أو استفهاماً:

(112) أليست هند رائعة في حمارها الأسود!

ثانياً: أن القوة الإنجازية تقيم علاقة بين المتكلم والمخاطب في حين أن التعجب، كباقي الوجوه، يقيم علاقة بين المتكلم وفحوى خطابيه. دليل ذلك أن للقوة الإنجازية أفعالاً مخصوصة فاعليها المتكلم ومفعولها "المباشر" (أو "غير المباشر") المخاطب بينما لا نجد للتعجب أفعالاً بهذه الخصائص:

(113) أ - أخبرك أن هنداً قادمة

ب - أقول لك إن هنداً قادمة

(114) أ - * أتعجب لك من أن هنداً رائعة!

ب - × استغرب لك أن زينب ستنجح!

لا يعني هذا أنه ليس للتعجب أفعال تعبر عنه إلا إن هذه الأفعال
تؤشر لسمة ووجهية شأنها في ذلك شأن اللواحق التعجبية:

(115) أ - استغرب أن تنجح هند !
ب - عجباً أن تنجح هند !

ثالثاً: مفهوم التعجب مفهوم متدرج في حين لا تدرج في القوة
الإيجازية:

(116) أ - هند جميلة !
ب - ما أجمل هنداً !
ج - أجمل بهند !
د - ألا ما أجمل هنداً !

(117) أ - أعجب لنجاح هند !
ب - أعجب غاية العجب لنجاح هند !

(118) أ - * أخيرك غاية الإخبار أن هنداً قادمة
ب - * أعدك غاية الوعد أنني سأعطيك ما طلبت.

رابعاً: تتحيز القوة الإيجازية في الجملة في حين يمكن أن ينصب
التعجب على الجملة أو على أحد مركباتها الاسمية أو على المحمول:

(119) أ - وأخيراً نجحت هند !
ب - أي فستان اشترت ابنتي !
ج - ما أطول ساعات الانتظار !

وقد دعمت أطروحة ووجهية التعجب بالمزيد من الاستدلال الدراسة
المضافة التي قاربت فيها نعيمة الزهري (الزهري (2002)) التراكيب
التعجبية في اللغة العربية من حيث خصائصها الدلالية والتداولية والصرفية-
التركيبية والتطريزية.

(ج) في إطار نحو اللغة العربية النواة، لم نحاوز ثنائية بؤرة الحديد / بؤرة المقابلة. وتبين بعد ذلك أن هذه الثنائية لا تفي برصد خصائص كل التراكيب البؤرية المتوافرة في اللغة العربية (وفي غيرها) ففرعنا بؤرة الحديد إلى "بؤرة طلب" و"بؤرة تسميم" للتفريق بين السؤال وجوابه:

(120) أ - من القادم؟

ب - القادم خالد

وميزنا داخل بؤرة المقابلة بين "بؤرة التثبيت" و"بؤرة الانتفاء" و"بؤرة التعويض" و"بؤرة المقصر" الواردة في التراكيب التي من قبيل:

(121) أ - التي عشقها قيس ليلي

ب - أ ليلي عشق قيس أم عزة؟

ج - ليلي عشق قيس لا عزة

د - ما عشق قيس إلا ليلي

في نفس الاتجاه، أعدنا النظر في مقارنة وظيفة المحور عنى أساس أن هذه الوظيفة فروعاً هي "المحور المعطى" و"المحور الجديد" و"المحور المعاد". بفضل هذا التفريع أتيح التمييز بين التراكيب التالية:

(122) أ - رأيت رجلاً واقفاً بباب العمارة (محور جديد)

ب - ... كان الرجل يحمل باقة ورد (محور معطى)

ج - ... نزلت فتاة من مصعد العمارة (محور جديد)

فسألني الرجل الذي يحمل باقة الورد (محور معاد) عن هويتها...

3.1.1.2.1.3 - الدلالة والتداول: من التوحد إلى الانشطار

تشكل البنية التحتية في النموذج المعيار بنية موحدة يمثل فيها للخصائص الدلالية والخصائص التداولية على السواء.

بعد ظهور مؤلف دينك (ديك (1997))، اقترحت مجموعة من الدراسات أن يتم الفصل بين الدلالة والتداول وأن يوكلا إلى قائلين

مستقلين وإن تعالقا (قيت (1998))، المتوكل (1999) و(2004))، هذا خلف (2004))، حسب هذا الاقتراح، تنشطر البنية الشحنية إلى مستويين اثنين بضطلع بصياغتهما قالبان مختلفان: المستوى التمثيلي الذي ترصد فيه الخصائص الحممية (سمات المحمول وسمات حدوده الموضوعات والنواحق) ومستوى علاقي يحدد السمات التداولية الإبحازية والنوجمية كما يحدد الوظائف التداولية الخورية والنورية.

من أهم نتائج الفصل بين الدلالة والتداول بالنظر إلى بناء الجهاز الواصف التتيحتان التاليان:

(أ) أعيد النظر في توزيع الوظائف حيث أخقت الوظائف التداولية بالنسوى العلاقي وأرجئت الوظائف التركيبية إلى مستوى البنية الصرفية التركيبية:

(ب) أتيحت إقامة علاقة مباشرة بين المستوى العلاقي والبنيتين الصرفية - التركيبية والصوتية حيث أصبح من الممكن أن تربط الخصائص التداولية بتحققها الصرفية - التركيبية والتطورية دون المرور بالدلالة. من مزايا هذا الربط المباشر أنه يمكن من رصد خصائص العبارات النغوية التي لا فحوى دلاليًا لها.

كانت أطروحة ورود الفصل بين الدلالة والتداول، بين المستوى التمثيلي والمستوى العلاقي، وراء صياغة النماذج التي تمت النموذج المعياري، خاصة نموذج نحو الطبقات القالي ونموذج نحو الخطاب الوظيفي اللذين تناولنا في إطارهما مجموعة من قضايا اللغة العربية كما سنرى في المباحث الموالية.

2.1.2.1.3 - البنية الصرفية - التركيبية

بعد التذكير ببعض المسائل العامة تخص الصرف في علاقته بكل من الاشتقاق والتركيب من جهة وعلاقة الصرف والتركيب والخصائص الدلالية والتداولية من جهة ثانية سنعرض في إبحاز لبعض القضايا الصرفية

التركيبية في اللغة العربية التي تتوالت عبر مسار نظرية النحو الوظيفي من النموذج المعياري إلى نموذجي نحو الطبقات القلبي ونحو الخطاب الوظيفي.

1.2.1.2.1.3 - مسائل عامة

(١) مرت علاقة الصرف والاشتقاق بمرحلتين اثنتين:

(1) في النموذج النواة، كانت قواعد الاشتقاق قواعد تكوين تولد مفردات فروعاً تضطلع بتحديد صيغ المفردات على أساس سماتها الوظيفية الدلالية والتداولية.

(2) أما في النموذج المعياري، فقد ظل الاشتقاق والصرف إواليين مستقلين لكنهما صارتا مترابطين بفضل ما أسماه ديك (ديك 1997) ((ب)) "المقاربة المعدلة". قوام هذه المقاربة إرجاء تحديد الصيغة النهائية للمفردة المشتقة إلى المستوى الصرفي بعد أن كان يتم تحديدها داخل القاعدة الاشتقاقية نفسها. بتعبير آخر، أصبح لقاعدة التكوين شقان: شق معجمي وشق صرفي حيث أصبح يُوشر لطبيعة المفردة (جمعية، انعكاسية...) بواسطة مخصص مجرد يتم تحقيقه الصيغي عن طريق قاعدة صرفية.

(ب) كان الصرف في النموذجين النواة والمعيار مستقلاً عن التركيب سابقاً له في مسلسل اشتقاق العبارة اللغوية باعتبار أن الصيغة الصرفية للمكونات يتم تحديدها التحديد الكامل قبل أن تتخذ مواقعها.

أثبتت بعد ذلك بعض الدراسات (باكر 2001)، هنجفلد (2004) ((، المتوكل (2005)) أن بعض الصيغ الصرفية لا يمكن أن تحدّد إلا بعد ترتيب المكونات حيث يسبق التركيب الصرف خلافاً للمعتقد الذي كان سائداً.

إسهاما في دعم هذه الأطروحة، احتججنا ببعض ظواهر اللغة العربية التي من قبيل مطابقة الفعل لفاعله من حيث العدد حيث تتم المطابقة بين هذين المكونين إذا تقدم الفاعل وتعدم في حال تأخره كما هو معهود:

(123) أ - الأطفال ناموا

ب - نام الأطفال

ج - *ناموا الأطفال

بناء على مثل هذه الملاحظات، أصبح الصرف والتركيب يشكلا مستوى واحدا.

(ج) مبدأ المبادئ في نظرية النحو الوظيفي (وفي كل النظريات ذات التوجه الوظيفي)، كما مر بنا، أن البنية تابعة للوظيفة وأن الخصائص الصرفية - التركيبية تتحدد صيغاً ومواقع على أساس ما يتوافر في البنية التحتية من سمات دلالية وتداولية. هذا المبدأ العام قائم في الغالب من الأحوال إلا أن قيامه لا يمنع من وجود ظواهر تختلف باختلاف اللغات تؤثر إلى أن للمستوى الصرفي - التركيبي بعض الاستقلال وأن بعض القواعد الصرفية التركيبية تجري في معزل عن المعلومات المتوافرة في البنية التحتية.

من مظاهر استقلال الصرف والتركيب في اللغة العربية تناولنا في دراسة خاصة (المتوكل 2004 ب) القضايا التالية:

(1) يمكن إيراد مطابقة الفعل للفاعل في اللغة العربية شاهداً كذلك على استقلال الصيغة الصرفية من السمات الدلالية التحتية حيث إن ما يتحكم في هذه المطابقة وسيط تركيبى محض (رتبة الفاعل بالنظر إلى الفعل).

(2) من الإعراب في اللغة العربية كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ما هو إعراب بنوي صرف تسنده أفعال مساعدة (روابط) أو أدوات مخصوصة أو بنيات معينة.

يندرج في هذا النمط من الإعراب نصب المحمول الاسمي أو الصفي مع الرابط "كان" وزمرته ونصب الفاعل مع الأداة الوجيهة "إن" وزمرتها وجر المضاف إليه.

(124) أ - كان خالد فرحاً البارحة
ب - أصبح بكراً أستاذاً للرياضيات

(125) أ - إن خالدًا قد نجح
ب - ليت هنذا تقدر التضحية

(126) لا أطرب لشعر المحدثين

ويمكن أن ندرج في نفس النمط الإعرابي نصب الفعل المضارع مع أداة النفي "لن" والأداة "أن" وجرمه بعد "لم" أو حين يرد في التراكيب الشرطية:

(127) أ - لن أخرج اليوم
ب - أتمنى أن تزورني هند!

(128) أ - لم تعد هند بعد
ب - إن تدخل هند يخرج خالد
ج - اشتغل يجد ثفلح

من الأدوات ما يمارس ضغطاً على المكون مربوطها فتنقله من رتبته الأصلية إلى الموقع الذي يليها مباشرة كما تفعل الأدوات "إن" (وزمرتها) و"هزة الاستفهام".

(129) أ - حاضر خالد بجامعة مراکش
ب - إن خالدًا حاضر بجامعة مراکش.
ج - *إن حاضر خالد بجامعة مراکش.

(130) أ - شربت هند شايًا
ب - أشايًا شربت هند أم قهوة؟
ج - *أشربت هند شايًا أم قهوة؟

2.2.1.2.1.3 - بنية المحمول

يجد القارئ في تناولنا للمحمول في اللغة العربية (المتوكل (1996)) مقارنة وظيفية لمختلف أمثاله وصيغه وبنيتيه الدلالية - التداولية والصرفية - التركيبية. وندتقي هنا من تلك الدراسة ثلاث قضايا مركزية هي: أولاً: الوزن والصيغة. وثانياً: المحمول المركب، وثالثاً: النفي.

(أ) تقوم بنية المحمول في اللغة العربية على ثلاثة عناصر أساسية: جذر صامت ثلاثي في غالب الأحيان ووزن وصيغة صرفية.

إذا كان مفهوم الجذر واضحاً لا إتكال فيه فإن مفهومي الوزن والصيغة قد يلتبسان لما بينهما من تقارب.

لإحراز مقارنة كافية ملائمة لبنية المحمول في اللغة العربية، يتحتم التمييز بين هذين المفهومين والفصل بينهما من حيث طبيعتهما ووظيفتهما على السواء:

(1) الوزن مفهوم معجمي في حين أن الصيغة مفهوم صرفي؛

(2) للوزن وظيفتان: أولاً: التأسيس إلى باب المحمول الفعلي إذا كان محمولاً أصلاً ("فعل"، "فعل"، "فعل") وثانياً: الاصطلاح باشتقاق المحمولات الفرعية من المحمولات الأصول. أما الصيغة فهي تحقق صرفي للسماة التحتية ("جهة"، "زمن"، "وجه...") بما فيها الوزن.

(3) الوزن والصيغة إوالتان تتسيان إلى نسقين من القواعد متميزين: قواعد تكوين المفردات وقواعد التعبير عنى التوالي:

(4) صيغ المحمول الفعلي في اللغة العربية ثلاث صيغ يسود الاصطلاح على تسميتها "الماضي" و"المضارع" و"الأمر".

مما يجدر التنبيه إليه هنا أن هذه المصطلحات تحيل عنى صيغ صرفية لا على سمات دلالية وإن كان الأمر يلتبس حين نتحدث عن "الماضي" خاصة. فصيغة "الماضي" مثلاً ترد للدلالة عنى الزمن السابق لزمن التكنم:

(131) رجّع خالده من السفر البارحة

لكنها ترد كذلك دألة على غير هذه التسمية الزمنية كما يحصل في التراكيب الشرطية أو الدعائية مثلاً:

(132) أ - إذا نجحت احتفلنا بنجاحك

ب - وقانا الله شر الحاسد!

درءاً للالتباس بين الصيغة والزمن، اقترحنا إطلاق تسمية "الماضي" على الصيغة وتسمية "المُضَيّ" على الزمن، وتعميماً لدرء كل التباس اقترحنا أن تعوّض مصطلحات "الماضي" و"المضارع" و"الأمر" بمصطلحات أكثر محايدة وهي "الصيغة اللاحقة" و"الصيغة السابقة" و"الصيغة الجذعية" على التوالي اعتباراً لورود اللاحقة أو عدمه وتخليل اللاحقة بالنظر إلى الجذع (لاحقة/سابقة).

(ب) صيغ المحول الفعلي التي عرضنا لها في الفقرة السابقة صيغ "بسيطة" إذا قيست بصيغ أكثر تعقيداً كالصيغ التالية:

(133) أ - ما زال خالد يهني أطروحته

ب - طفق خالد يحرّر أطروحته

ج - كاد خالد ينهي أطروحته

د - كانت هند تصفف شعرها أمام المرأة

تتضمن الجمل (133 أ-د) صيغاً مركبة تتكون من فعل "تام" وفعل مساعد. نقصد بالفعل "التام" في إطار نظرية النحو الوظيفي المحسول الحقيقي الذي ينفرد بالدلالة على الواقعة ("عمل"، "وضع"، "قوة"، "حالة") وبالفعل المساعد الذي تنحصر وظيفته في التحقيق العصري للسمات الزمنية كالفعل "كان" وزمرته واجهية كأفعال الشروع ("طفق" وزمرته) وأفعال الاستمرار ("ما زال" وزمرته) وأفعال المتاربة ("كاد" وزمرته).

الجدير بالتنبيه إليه هنا هو أن "التقصان" (أو "المساعدية") ليس مقصوراً على أفعال زمرة "كان" بل يتعداها إلى أفعال زمرة أخرى من السائد اعتبارها أفعالاً "تامة".

(ج) ما يحدد صيغة المحمول، بسيطة كانت أم مركبة، ليس السمات الزمنية والوجيهية فحسب بل كذلك السمات الوجهية والسمات الإنجازية. مثال ذلك أن صيغة المحمول "طلق بحرر" في الجملة (133 ب) ناتج تفاعل السمة الإنجازية "الإخبار" والسمة الوجهية "الإثبات" والسمة الجيهية "الشروع" والسمة الزمنية "المضي" كما يتبين من القاعدة (134).

(134) [حب] [تب] [شع] [مص] و[ا]؛ [ح.رر. فعل] {ف} [[[[[
 ← [طلق بحرر]

حيث: حب = إخبار؛ تب = إثبات؛
 شع = شروع؛ مض = مضي؛ و = واقعة.

أهم السمات الوجهية التي توأكب المحمول في اللغة العربية سمات أربع: الإثبات (ونقيضه النفي) والتوكيد والتعجب والدعاء. وتتحقق هذه السمات الوجهية في شكل أداة نفي (أو أداة - صفر بالنسبة للإثبات) ونون لاحقة (مخففة أو مشددة) وصيغة فعلية مخصوصة ("ما أفعل" أو "أفعل ب-") وصيغة الماضي غير دالة على الزمن المضي كما هو الشأن في التراكيب التالية:

(135) أ - بني خالد بيتاً في ضاحية مراکش
 ب - لم ين خالد بيتاً في ضاحية مراکش

(136) أ - أُخرُجَنَّ
 ب - والله لأحرمَنَّك مما كنت أعطيك

(137) أ - ما أعظم آثارنا !
 ب - أعظم بآثارنا !

(138) أ - حفظك الله من ألسنة السمّامين !

ب - لا بقي الرقيب ولا عيونه !

فيما يخص النفي، نعلم أن اللغة العربية تتميز بعنى ملحوظ في الوسائل التي تسخرها لتحقيقه. فننفي فيها أدوات عدة منها ما هو بسيط ومنها ما هو مركب.

قضيتان كبيرتان تستلزمان التصدي لهما في باب النفي في اللغة العربية: أولاً: حيز النفي وثانياً: التوزيع التكاملي لمختلف أدواته.

(1) يمكن أن ينصب النفي على الحمل بكامله أو على أحد مكوناته (المحمول أو أحد موضوعاته أو لواحقه) كما يمكن أن ينصب على الطبقة الوجيهة أو على الطبقة الإلحازية. من أمثلة ذلك التراكيب المنفية التالية:

(139) ما قابل خالد هذا اليوم (بل ظل في البيت)

(140) أ - لم ينجح بكر (بل رسب)

ب - لن يكتب خالد رسالته (بل سيرقنها)

(141) أ - لا رجل في بيتنا

ب - ما عزة عشق قيس (بل ليلي)

ج - ما غداً سأسافر (بل بعد غد)

(142) أ - لا أظن أن خالد سيأتي اليوم

ب - لا أشك في أن علياً سينجح.

(143) لا أخبرك بأني سأمنحك مالاً (بل أعدك بفعل ذلك)

إن جانب اختلاف حيز النفي باختلاف المفاصل التطبيقية للحملة ومكوناتها، يلاحظ أن ثمة عناصر معينة تستقطب النفي وتستأثر به دون باقي العناصر. اقترحنا أن نرجع سمات هذه العناصر إلى سمة أساسية واحدة هي سمة "البؤرية" وصغنا على أساس ذلك المبدأ العام التالي:

(144) "يشكل حيناً للنفي المكون الميار"

لنأخذ لتوضيح ذلك المثال التالي:

(145) أخالداً قابلت هند البارحة؟

(146) أ - ما أخالداً قابلت هند البارحة (بل بكرة)

ب - * ما هند قابلت أخالداً البارحة

ج - * ما البارحة قابلت هند أخالداً

د - * ما قابلت خالداً هنداً البارحة.

الجمس (146 أ-د) جمل سيمية في حد ذاتها لكن الجملة (146 أ) وحدها يمكن أن تعد، وفقاً للمبدأ (144)، جواباً طبعياً للجملة (145).

ويمكن تفسير استقطاب المكون الميار للنفي بأن النفي ينصب على ما هو "جديد" في العبارة النغوية أو ما هو مُجادل في وروده دون ما هو "معطى" أو "مسلم" بوروده". وذلك ما يفسر عدم انصابه على المكون الخور مثلاً.

ورد في أدبيات النحو التوليدي التحويني الأولى أن ثمة تعالفاً بين النفي والمكونات "المكسمة" (أو "المسورة") حيث تستأثر هذه المكونات بخيز النفي إذا تلت أدواته كما في التراكيب التي من قبيل (147):

(147) ما قرأت كل الكتب (بل بعضها)

بيناً (المتوكل (1993 أ)) أن استقطاب المكمم للنفي لا يحصل إلا إذا كان المكمم نفسه مياراً كما يفاد من المقارنة بين طرفي الزوج الجمعي التالي:

(148) أ - ما كل الأصدقاء قابلت في المنهى (بل بعضهم)

ب - ما في المنهى قابلت كل الأصدقاء (بل في المنكبة)

إذا صححت المعطيات الواردة في الجملتين (148 أ-ب): أمكن أن نرجع استقطاب الشكون المنكسر للنفي إلى المبدأ العام (144) باعتباره مظهراً من مظاهر توجه النفي إلى البؤرة.

(2) أمام تعدد أدوات النفي في اللغة العربية، وعدم إمكان تعاقبها لارتفاع الترادف بينها، حاولنا إرجاع الوسائط المتحركة في توزيعها التكاملي إلى الوسائط الأساسية التالية:

أولاً: الخيز الطبقي للنفي حيث تخصص الأدوات "لم" و"لن" بنفي المحمول أو الحمل كاملاً في حين يمكن أن تنفي الأدوات "ما" و"لا" الحمل أو أحد مركباته الاسمية؛

ثانياً: المقولة التركيبية التي ينتمي إليها المحمول حيث تخصص الأداة "ليس" بنفي المحمول غير الفعلي؛

ثالثاً: صيغة الفعل حيث لا تنفي الأدوات "لم" و"لن" و"لما" إلا الفعل المضارع:

(149) أ - لم يأت خالد

ب - * لم أتى خالد

(150) أ - لن يرسم خالد

ب - * لن رسم خالد

(151) أ - لما تعد هند

ب - * لما عادت هند

رابعاً: السمات الزمنية إذ تختلف الأدوات "لم" و"لا" و"لن" فتخصص الأداة الأولى بنفي الزمن الماضي في حين تستعمل الأداة الثانية والثالثة لنفي الحال والمستقبال على التوالي؛

خامساً: أمّا الفرق بين "لم" و"لما" فهو فرق في الجهة حيث ترد "لما"
لنفي الماضي المستمر كما يتبين من المقارنة بين الجملتين (149 أ) و (151 أ) مثلاً.

الأدوات النافية المركبة في اللغة العربية فئتان يمكن التمثيل
لتركيبتهما بالترسيمين التاليين:

(152) أ - "α ... إلّا / بل"
ب - "α ... أحد / قط / أبداً / شيئاً"
حيث α = أداة نفي ("لا" / "لم" / "لن"، "ما" ...)

وظيفة الفئة الأولى ليست في الواقع مجرد نفي وإنما هي تحقيق صرفي
- تركيبى لنوعين من بؤرة المقابلة: "بؤرة الحصر" و"بؤرة التعويض" كما
يفاد من التراكيب التالية:

(153) أ - ما قابلت إلا هندا
ب - ليس جزاء الإحسان إلا الإحسان

(154) أ - ما قابلت هندا بل زينب
ب - لم أقرأ كتاباً بل مقالة

الداعم لهذا الطرح أن نفس الوظيفة يمكن أن تؤدي بأدوات غير
أدوات النفي كأداة "إنما":

(155) أ - إنما قابلت هنداً
ب - إنما جزاء الإحسان الإحسان.

أما الفئة الثانية من أدوات النفي المركبة، فإن خاصيتها الأساسية أنها
تراكيب متحجرة يكمن تحجرها في السمات التالية:

(1) لم يعد بالإمكان أن يرد الاسم أو الظرف دون أداة نفي:

(156) أ - ما رأيت أحداً
ب - * رأيت أحداً

(157) أ - ما كذبت قط
ب - * كذبت قط

(157) أ - لن أدخن أبداً
ب - * سأدخن أبداً

(2) لا يسوغ تقديم الاسم أو الظرف:

(158) أ - هنذاً لا يقابل خالد
ب - * أحداً لا يقابل خالد

(159) أ - اليوم لم يخرج خالد
ب - قط لم يخرج خالد

(160) أ - هذه المرة لن أغامر
ب - * أبداً لن أغامر

(3) فيما يخص الاسم "شيء"، يلاحظ أنه أصبح مجرد لاصقة تنحوق
بالمحمول الذي تتقدمه أداة النفي في الدوائر العربية:

(161) دراجة مغربية

أ - ما مشيتيش مراكش
ب - خالد ما مريضش

(162) دراجة مصرية

أ - ما خطرتش عنى بالك يوم
ب - ما كانشي بنعز!

بل إنه أصبح في نفس الدوارج يكون مع حرف النفي أداة واحدة:

(163) أ - ماشي عادنتك هذي!

ب - مش ممكن أحيك!

3.2.1.2.1.3 - بنية الجملة

بعد نحو اللغة العربية النواة الذي عرضنا له في بحث سابق أعيد النظر في مقارنة الجملة من منظور نموذجين اثنين: نموذج نحو الطبقات القلبي (المتوكل (2003)) ونموذج نحو الخطاب الوظيفي (المتوكل (2005)) و(2006).

في إطار هذين النموذجين، تناولنا أربع قضايا مركزية: بنية الجملة المعيار ومتغيراتها النمطية ومتغيراتها التركيبية وإشكال القوة الإنجازية.

(أ) البنية المعيار بنية ذات مستويات ثلاثة: مستوى علاقي ومستوى تمثيلي ومستوى صرفي - تركيبية (بحال عليه غالباً بالمستوى البنيوي).

(1) ترصد في المستوى العلاقي الخصائص التداولية. ويتضمن هذا المستوى طبقتين اثنتين: طبقة الفعل الخطابي (ف خ 1) وطبقة الفحوى القضيوي (ف 1) التي تتضمن بدورها فعلاً حملياً (ح 1) وفعلاً إحالياً (إح 1) (كما يتبين من الترسيم العامة (164):

(164) (ف خ 1: [نج (ك) (ط) (ف 1: [ح 1) (إح 1) (ف 1))]
(ف خ 1)).

حيث: نج = قوة إنجازية؛ ك: متكلم؛ ط = مخاطب.

الجديد بالنسبة للمستوى العلاقي أمران:

أولاً: أصبحت الوظيفتان التداوليتان المحور والبيؤرة ترصدان في هذا المستوى حيث تسندان إلى الفعل الحسلي (ح 1) أو الفعل الإحالي (إح 1) بعد أن كان يرجأ إسنادهما إلى ما بعد إسناد الوظائف التركيبية؛

ثانياً: اقترحنا (المتوكل (2005)) نقل السمات الوجيهة من المستوى التمثيلي إلى المستوى العلاقي ورصدها كمخصص أو نواحق في طبقة الفحوى (ف1) على اعتبار أن طبقة الفحوى هي النحل الطبيعي والأنسب لرصد هذه الفئة من السمات.

(2) يضطلع المستوى التمثيلي برصد السمات الدلالية. ويتكون هذا المستوى حسب نحو الخطاب الوظيفي كما عدلناه (المتوكل (2005)) من ثلاث طبقات: طبقة التأخر وطبقة التسوير وطبقة الخاصية كما يبين من الترسيم (165) حيث و و كم و خ متغيرات الطبقات الثلاث:

(165) (... و1: كم1: |خ1|س1|) كم1| | و1|

(3) ثالث مستويات البنية المعيار هو المستوى الصرفي - التركيبي الذي يشكل خرجاً لقواعد التعبير المسؤولة عن نقل الخصائص المرصودة في المستويين العلاقي والتمثيلي إلى سمات صورية صرفية تركيبية.

تستمد هذه القواعد موادها من حزينة خاصة تمدّها بما تستلزمه من أطر تركيبية ومختصات ووظائف تركيبية.

يُعدّ الإطار التركيبي (166) إطاراً عاماً للجمل في اللغة العربية:

(166) ||صدر||بؤ/مح/وجه| م س|محمول||فاعل|| م س|ص|| جملة.

(ب) يمكن اعتبار البنية المعيار كما حددناها هنا ثابتاً إذا متغيرات تختلف حسب النمط الجملي ونمط التركيب والنمط الخطابي:

(1) حصرنا (المتوكل (2005)) أنماط الجمل في اللغة العربية في أربعة أنماط هي الجملة الخبرية والجملة الاستفهامية والجملة التعجبية واقترحنا إضافة نمط خامس اسمياد "شبه الجملة" وعرفناه على أساس أنه يشمل الجمل التي تشكل وحدة تواصلية وإن لم تكن لها بنية الجملة كما هو شأن التراكيب التي من قبيل (167 ب) و (168) مثلاً:

(167) أ - ماذا كتبت اليوم؟

- مقالاً.

(168) هنيئا !

واقترحنا أيضاً التمييز داخل نمط شبه الجملة بين العبارات التي تتضمن فحوى دلاليًا كالعبارة (167 ب) والعبارات التي لا فحوى دلاليًا لها مثل العبارة (168).

ثم متغيرات الأنماط الجملية مستويات البنية المعيار ثلاثتها باعتبار أن متغيرات المستوى الصرفي - التركيبي ناتجة عن متغيرات المستويين العلاقي والتمثيلي.

تنتقي الأطر التركيبية للجمل الخبرية والجمل الاستفهامية والجمل الأمرية عنى أساس قيمة المخصص الإبحازي المؤشر له في المستوى العلاقي والذي يحكم إدماج الأداة الصدر ("هل"/"الهمزة") وصيغة المضمول.

أما الإطار التركيبي للجمل التعجبية فيتم انتقاؤه بناءً على قيمة مخصص الوجه على اعتبار التعجب سمة وجهية لا قوة الجازية كما بينا.

فيما يخص أشباه الجمل، يتم اشتقاق الفئة الدالة منها وفقاً لنفس المسطرة المعتمدة في اشتقاق الأنماط الجملية الأربعة في حين تختزل هذه المسطرة حين يتعلق الأمر بأشبه الجمل غير الدالة.

ويستوجب هذا الاختزال الخصائص التالية:

أولاً: تنحصر البنية التحتية هذه الفئة من العبارات في المستوى العلاقي إذ لا فحوى دلاليًا لها يبرر المستوى التمثيلي؛

ثانياً: من أبرز سمات هذه الزمرة من العبارات أنها عبارات متحجرة يبلغ تحجرها منتهاه بثبوت خصائصها الصرفية - التركيبية في كل السياقات؛

ثالثاً: يعني تحجرها عن تشغيل قواعد التعبير فتدمج العبارة كما هي رأساً في المستوى العلاقي.

بناءً على هذا، يكون التمثيل للعبارة (168) مثلاً، على الشكل التالي:

(169) (ف خ 1: [تَهْنئة (كـ) (ط) (ف 1: هنيئاً] (ف 1))
(ف خ 1))

(2) تمت إعادة النظر في مقارنة الجملة المركبة حيث اقترحنا (المتركل (2005 أ)) تحديدها على أساس خصائص مستواها العلاقي بعد أن كان المستوى الصرفي - التركيبي المعيار في التمييز بين البسيط والمركب من الجمل . في هذا الاتجاه، صغنا تعريف الجملة المستقلة والعلاقات الممكن قيامها بين مكوناتها كالتالي:

(170) الجمل المستقلة

"تعد الجملة ج 2 مستقلة عن الجملة ج 1 إذا كانت البنيتان العلاقتان للجملتين ج 1 وج 2 متكافئتين".

(171) الجمل التابعة

"تعد الجملة ج 2 تابعة للجملة ج 1 إذا كانت الجملة ج 2 عنصراً من عناصر البنية العلاقية للجملة ج 1".

يترتب عن التعريفين (170) و(171) أن يعاد النظر في مفهوم الإدماج والتبعية كالتالي:

أولاً: قد تكون التبعية تبعية علقية (أي في المستوى العلاقي) دون أن يكون لها ما يُوْشِرُهَا في البنية الصرفية - التركيبية كما يفاد من المقارنة بين الجملتين (172 أ ب):

(172) أ - أقول: لن تعود هند قبل الصيف
ب - أقول إن هنداً لن تعود قبل الصيف.

ثانياً: في مقابل ذلك يمكن أن تكون الجملة مركبة من حيث بنيتها الصرفية - التركيبية لكنها بسيطة (جملة واحدة) بالنظر إلى بنيتها التحتية العلقية. أبرز أمثلة ذلك الجمل "المدحجة" في الأفعال الإيجازية أو الأفعال التوجيهية:

(173) أ - أعدك أنني سأتي غداً
ب - أضن أن خالداً سيعود اليوم.

لتراكيب التي من قبيل (173 أ-ب) صورة الجمل المركبة إلا أن الفعل "الرئيسي" فيها ليس إلا مؤشراً معجمياً لنقوة الإيجازية ("أعدك") أو للسمة الوجيهية ("أضن")؛

ثالثاً: فيما يخص تمييز الجمل المركبة، أصبح من المتاح، بفضل نقل معايير من المستوى الصرفي-التركيبى إلى المستوى العلاقي، تحديد محط الإدماج وطبيعة العنصر المدمج: فعل خطابي (بعد أفعال الإيجاز) أو فحوى (بعد الأفعال الوجيهية وأفعال الإرادة...) أو حمل أو عنصر من مكون إحالي (الجمل الموصولية).

ويتيح نفس المعيار العلاقي مقارنة أدق لتحمل الموصولية حيث يميز بين الجمل الموصولية التقييدية بوصفها فضلات لمكون إحالي داخل طبقة الفحوى والجمل الموصولية البديلية باعتبارها أفعالاً خطابية قائمة الذات تفرد بقوة إيجازية تغاير القوة الإيجازية المواكبة للجمله المركبة ككل كما يبين من المقارنة بين الجملتين التاليتين:

(174) أ - قابلت الرجل الذي تزوج جارتنا
ب - قابلت الرجل، من تزوج جارتنا

رابعاً: لا تتحقق إجرائية المعيار العلاقي في رصد الاستقلال والتبعية بين عناصر الجملة المركبة فحسب بل كذلك في رصدهما بين جمل نص كامل حيث يصبح من الممكن تقسيمه إلى وحدات خطابية تجمع ما بين الجمل (أو الفقرات) التابع بعضها لبعض.

(3) ينمط الخطابي دوره كذلك في تحديد بنية الجمل التي تشكل نصاً واحداً. مثال ذلك بنية الجملة في الخطاب السردي التي اقترحنا صوغ مستوياتها العلاقي والتمثيلي بالشكل التالي:

(175) أ - (سرد خ1: (ف خ1: [نخب (سارد) (مسرود له) (ف1):
[ح1) يؤعد (إح ن) [(ف1) [(ف خ1) [(خ1)]

ب - (مض/حض و 1: [(أن كم: 1) (تام فعل) (س ن)]
(كم: 1) (و 1)).

يُستخلص من البنية (175 أ) أن الجملة النمطية في الخطاب السردي
المصرف تحمل القوة الإنجازية الإخبار في حين تسند إلى طبقة الحمل فيها
الوظيفة بؤرة الجديده. ويفاد من البنية (175 ب) أن خصائص جمال هذا
النمط الخطابي الدلالية هي الزمن المضى أو الحاضر والجهتان الآتية والتسام
بالنسبة للطبقتين التسويرية والوصفية عنى التواني.

وتمثل للبنيتين (175 أ-ب) بالنص المرئجل البسيط التالي:

(176) "عاد خالد إلى بيته بعد سفر طويل... صعد إلى حجرته
حيث أخرج أمتعته من الخفية ثم خرج إلى الحديقة فتفقد أقمصاص ضيوره
قفصا قفصا..."

4.2.1.2.1.3 - بنية المركب الاسمي

لنتأمل المركبات الاسمية الواردة في الجمل التالية:

(177) عربية فصحي

أ - قابلت هذه الفتاة
ب - قابلت الفتاة هذه

(178) عربية فصحي

أ - كان المغفور له عمرو كريما
ب - عاد الملعون الجار القديم

(179) دراجة مصرية

أ - راحت فين مقصوفة الرقبة فوزية
ب - هو فين المنيل على عينه البواب

(180) عربية فصحي

أ - اشترت هند فستانا رائعا!
ب - أي فستان اشترت هند!

(181) دارجة مغربية

أ - عشا كينا !

ب - واحد العشا كلينا !

(182) دارجة مصرية

أ - شفت حنة بنت !

ب - شفت حنة بنت إنما إيه !

المركبات الاسمية في هذه الأمثلة عيّنات للمركبات الاسمية الموسومة تداولياً.

يعد المركب الاسمي "الفتاة هذه" في الجملة (177 ب) مثلاً لورود بقرّة المقابلة داخل المركب وإسنادها إلى مخصّص الإشارة وهو ما يبرّر تأخره عن الرأس ونبره. أمّا المركبات الواردة في الجمل (178-179) والجمل (180-182) فتتضمن وجها دعائياً ووجها تعجبياً على التوالي بحكم أن بنياهما الصرفية - التركيبية والتطريزية عنى السواء.

إن هذا الضرب من التراكيب يؤشر إلى أن لبنية المركب الاسمي كما لبنة الجملة مستويات ثلاثة، مستوى تمثلياً ومستوى علاقياً ومستوى صرفياً - تركيبياً عنى أساس أن المستويين الأول والثاني يتضافران في تحديد خصائص المستوى الثالث.

سنعود بمزيد من التفصيل إلى إسهامنا في صوغ بنية المركب الاسمي في أحد المباحث اللاحقة.

2.2.1.3 - المجال

أشار ديك (ديك 1978) منذ نشأة نظرية النحو الوظيفي إلى أن هذه النظرية كبقية النظريات الوظيفية تهدف إلى أن تكون نظرية لما

يتخاطب به مستعمنو اللغة الطبيعية فعلاً، أي نصوص كاملة لا مجرد جمل معزولة عن سياقها.

إلا أن هذا الهدف ظل "هدفاً برنامجياً" لمدة طويلة (ما يربو عن عقد من الزمن) حيث انصببت معظم الدراسات على الجملة إلى أن اتضح أن خصائص الجملة نفسها لا يمكن أن توصف وتفسر الوصف والتفسير الكافيين إلا إذا قوربت كوحدة من وحدات نص متكامل.

مرّ نقل نظرية النحو الوظيفي من نظرية جملة "إلى نظرية خطاب" مرحلتين اثنتين:

(أ) تم في أولاهما توسيع البنية التحتية وتمديدتها بإضافة طبقة عليا تقي برصد الخصائص النصية (كوفالي (1976)، المتوكل (1978)).

(ب) أما ثاني المرحلتين فتقسم باقتراح ثلاثة نماذج للخطاب: نموذج معيار (ديك 1997 ب)) يقوم أساساً على إسقاط بنية الجملة على بنية النص مكونات وعلاقات ونموذجين يجمعان بين الطبقات والقائبة هما "نحو الطبقات القالي" و"نحو الخطاب الوظيفي" اللذين فصلنا القول في معالهما في مبحث سابق.

فيما يخص اللغة العربية، شغل نحو الطبقات القالي نظراً لأسبقيته الزمنية في المغرب أكثر مما شغل نحو الخطاب الوظيفي في مجال مقارنة النصوص. مثالان اثنان هما أبرز أمثلة مقارنة النص العربي من منظور نحو الطبقات القالي:

(1) في إطار الدفاع عن أطروحة أن السمات الوَحيية المعرفية منها والإرادية والانفعالية لا تنحصر في الجملة ولا في المركب الاسمي بل يمكن أن تواكب خطاباً كاملاً (المتوكل (1999) و(2003))، برهنت الزهري (الزهري (2002)) من خلال عينات نصية فصحي ودارجة على أن التعجب بمختلف درجاته (المُدحية والقُدحية على السواء) يمكن أن يكون

خاصية لنص كامل عنى اعتبار أن مختلف جُمله تكتسب هذه السمة طبقاً لمبدأ "الإرث" (ديك (1997 ب)) كما يبين من الترسيم التالية:

(183) [حب [عج [نص:]حب [عج [جملة 1]]]...
[حب [عج [جملة 2]]]

حيث: حب = القوة الإنجازية الإخبار
عج = السمة الوجيهة التعجب

(2) تحويصاً لإجرائية ثنائية بؤرة الجديد/ بؤرة المقابنة (ديك (1997 أ)) و(المتوكل (1985 و(1993 ب)) توصل حدير (حدير (2006)) إلى رصد التوزيع التكاملي لأداتي الاستفهام وأسمائه في نص استنطقي ("ضحايا الفجر" لميلودي حمدوشي) يرد هذا التوزيع إلى السلمية الإحصائية (184):

(184) سلمية أدوات وأسماء الاستفهام

هل <كيف> من <ماذا> متى = أين <ما > أ <أي> <كم> <ماذا>.

حيث يفاد أن استعمال أدوات الاستفهام وأسمائه يساير مختلف محطات الاستنطاق إذ يغلب استعمال الأداة "هل" في مرحلة تجسيم المعلومات "الجديدة" عن الجريمة ككل ثم يبرز استعمال أسماء الاستفهام ("من"، "ماذا"، "متى" ... و"أين") في مرحلة التفصي عن الأدوات المشاركة فيه وعن ظروف وقوعها في حين يتواتر استعمال "الهمزة" في مرحلة المقابلة بين المعلومات المجمعة.

4 - اللغة العربية ونظرية النحو الوظيفي

ما كانت العلاقة بين اللغة العربية ونظرية النحو الوظيفي مجرد تطبيق إصار نظري معين في دراسة متن لغوي معين بل كانت علاقة إفادة متبادلة.

بفضل اعتماد نظرية النحو الوظيفي تسنى وضع نحو وظيفي متكامل
لغة العربية أثار جوانب جديدة عدة من هذه اللغة لم يكن من المتاح
الكشف عنها باعتماد النحو العربي القديم ولا باعتماد الأنحاء التصويرية
الحديثة البنوية منها والتوليديّة - التحويلية.

في المقابل، جاوزت الدراسات الوظيفية للغة العربية مستوى التطبيق
نحس إلى الإسهام في التنظير الوظيفي العام كانت له بصماته الواضحة في
المدف بالنظرية نحو إحراز الكفاية اللغوية والكفاية الإجرائية على السواء.

1.4 - إسهامات في الكفاية اللغوية

اصطلحنا، كما هو معنوم، على إطلاق تسمية "الكفاية اللغوية"
على مزاعم نظرية النحو الوظيفي الثلاثة: الكفاية التداولية والكفاية
النفسية والكفاية النمطية.

ما نريد تبيانه هنا هو أهم ما أسهم به المنحن الوظيفي العربي في
إغناء وتطوير كل من هذه الكفايات الثلاث طيلة العقود الثلاثة الأخيرة.

1.1.4 - في الكفاية التداولية

أول إسهامات الدراسات الوظيفية العربية كان في حقل التداول
وخصّ عناصره الأساسية الثلاثة: القوة الإنجازية والوظائف والسمات
الوجهية الذاتية.

(أ) كانت البنية التحتية في النموذج النواة (ديك (1978)) تنحصر
في حمل بسيط يتضمن المحمول وموضوعاته ولواحقه دون أي تأشير لما
يمكن أن يواكب الحمل من قوى إنجازية حرفية أو مستلزمة:

(185) البنية التحتية في النموذج النواة

[محمول] (موضوعات) (لواحق) [حمل]

اقترحنا في أواسط السنوات الثمانين (المتوكل (1986 أ) و(1986 ب)) تزويد البنية (185) بمخصص يمثل نقوة الإنجازية يأخذ في حيزه الحمل بأكمله:

(186) البنية التحتية المغناة

| π | (محمول) (موضوعات) (لواحق) | حمل |

اعتمد هذا الاقتراح منطلقاً من منطقتات الصياغة الكاملة للنبقة الإنجازية في النموذج المعياري.

في نفس مجال القوة الإنجازية، بينا بعد ذلك (المتوكل (1991)) أن الرصد الكافي لحمولة العبارات اللغوية الإنجازية يقتضي التمثيل أيضاً للقوة الإنجازية المستلزمة حين توافرها كما هو الشأن في الحمل التي من قبيل (187):

(187) هل تريد مصاحبتي إلى المسرح هذا المساء؟

حيث تتوارد قوتان إنجازيتان: السؤال كقوة حرفية والدعوة كقوة مستلزمة.

في هذا الصدد، اقترحنا إوالية تأويلية مستوحاة من سورل (سورل (1979)) ترصد السلسلة الاستدلالية التي تتيح للمخاطب الانتقال من القوة الإنجازية الحرفية إلى القوة الإنجازية المستلزمة. النموذج العام هذه الإوالية أمكن صوغه مبسطاً بالشكل التالي:

(188) القوة الإنجازية الحرفية

[سهـ] تريد مصاحبتي إلى المسرح هذا المساء.]]

(189) سلسلة الاستدلال

(1) "يعلم المتكلم الا مانع عندي في مصاحبته إلى المسرح؟"

(2) "بإمكان المتكلم أن يدفع ثمن انتدكرتين معاً؛"

(3) "إذن، لا يسألني المتكلم عما إذا كنت أريد مصاحبتك إلى المسرح بل يدعوني إلى ذلك".

(190) القوة الإنجازية المستلزمة

[دعوة مصاحبتي إلى المسرح هذا المساء]]

في إطار أحدث نماذج نظرية النحو الوظيفي، نحو الخطاب الوظيفي الذي يقترحه هنجفلد (هنجفلد (2004 أ) و(2004 ب))، عدلنا عن المقاربة التأويلية للمحمولة الإنجازية إلى مقاربة بديلة قوامها ما يني (المتوكّل (2005 أ)):

(1) تُحصّر الحمولة الإنجازية للجملة (187) في قولها الإنجازية المستلزمة "الدعوة" على أساس أنها القوة الإنجازية المراد تميرها؛

(2) يعد الاستفهام في هذه الحالة إطاراً تركيبياً لا قوة إنجازية قائمة لذات شأنه في ذلك شأن الأطر التركيبية الخبرية والأمرية والتعجبية؛

(3) للمتكلم أن يختار تميره القوة الإنجازية "الدعوة" بين طريقتين: طريق مباشر وطريق غير مباشر. إذا هو اختار الطريق المباشر، انتقى الإطار التركيبي الأمر فكانت العبارة اللغوية (191):

(191) صاحبتي إلى المسرح هذا المساء

أما إذا اختار الطريق غير المباشر - لأسباب مقامية معينة يرصدها انكون السياقي - فإنه ينتقى إطار الاستفهام فتكون وسيلة التعبير عن دعوته الجملة (187).

(ب) أبانت دراسة التراكيب البؤرية في اللغة العربية عن تعدد حدود التراكيب وتباين الأغراض التواصلية التي تؤديها حيث منها ما يحسب معبومة "جديدة":

(192) أ - متى سنسافر؟

ب - سنسافر غدا

ومنها ما يحمل معلومة تصحيحية في مقابل معلومة أخرى يعدها المتكلم غير واردة:

(193) أ - سنسافر اليوم

ب - غدا سنسافر (لا اليوم).

قادتنا ظاهرة تعدد الجنيات المبارة واختلاف أغراضها إلى تعويض وظيفة البؤرة الواحدة المعتمدة في النموذج الأول (ديك (1978) ببورتين: "بؤرة حديد" و "بؤرة مقابلة" (المتوكل (1984) و (1985) ترصد أولاهما التراكيب التي من قبيل (192 أ-ب) وثانيتها التراكيب الممثل لها هنا بأجملة (193 ب).

بعد اعتماد هذا الاقتراح في النموذج المعيار (ديك (1997 أ))، أضفنا (المتوكل (1993 ب)) داخل وظيفة بؤرة الحديد التمييز بين "بؤرة الظلب" و "بؤرة التتميم" الواردين في التراكيب التي من قبيل (192 أ) و (192 ب) على التوالي.

هذا الاقتراح بُني أيضاً في تسيط ديك (ديك (1997 أ)) للبؤرة من حيث طبيعتها ومحط إسنادها.

في مجال الوظائف التداولية نفسه، كان اقتراحنا (المتوكل (1985)) إضافة وظيفة الشادي إلى الوظيفتين الواردين في النموذج الأول منطلقاً نسقارية الشاملة لمختلف أصناف المكونات الخارجية ومختلف وظائفها الختامية (ديك (1997 أ)).

(ج) أما في مجال الخصائص الوجيهة، فقد تم إسهام البحث الوظيفي العربي في مرحلتينك أولاً: نقل التعجب من حيز القوة الإنجازية إلى حيز الوجه الذاتي بإضافة خانة ثالثة إلى فئة السمات الذاتية الواردة في

النموذج المعياري اصطلاحنا على تسميتها "الوجوه الانفعالية" (المتوكل) (1999) والزهرى (2002)) وثانيا: نقل صيغة التعجب إلى مستوى البنيوي باعتبارها إطاراً صرفياً - تركيبياً - تعريزيا يتقيد لتحقيق البنية العلاقية المتضمنة سمات انفعالية كالتعجب ذاته إضافة إلى سمات أخرى مثل "الانشراح" و"الارتياح" و"التوجع" (المتوكل (2005 أ)).

2.1.4 - في الكفاية النفسية

مر بنا أن النظرية اللسانية الوظيفية الساعية في تحصيل الكفاية النفسية هي النظرية التي تصوغ جهازها الواصف الصوغ الذي يكفل رصد إواليات عملية التوصل في شقيها الإنتاجي والتأويلي في كل من إنتاج الخطاب وفهمه. كما مر بنا كذلك أن تحصيل الكفاية النفسية بهذا المفهوم مضمح من المطامع الكبرى التي تسعى نظرية النحو الوظيفي في الوصول إليه.

إسهام المنحى الوظيفي العربي الحديث في استشراف تحقيق هذا المنضمح إسهامان:

(أ) التصور الذي اقترحه ديك (ديك (1989) و(1997 أ)) نموذج مستعملي اللغة الطبيعية ظل تصورا عاما لا يتعدى التنصيص على القوالب التي يتضمنها هذا النموذج (القالب النحوي والقالب المنطقي والقالب الاجتماعي والقالب المعرفي والقالب الإدراكي).

تتميمًا لهذا التصور اقترحت إضافة قالب سادس سمي القالب الشعري (المتوكل (1995)) أو "القالب التخيلي" (البوشيخي (1998)) في إطار الدفاع عن أطروحة أن الملكة "الإبداعية" ملكة من ملكات القدرة التواصلية العامة يتم تفعيلها بدرجات متفاوتة بين مستعملي اللغة الطبيعية. دور هذا القالب الإضافي هو رصد خصائص الخطاب الإبداعي في علاقته بالقوالب الأخرى.

وتدقيقًا لتفاعل القوالب السنة، وضع تصور ان افتراضيان (المتوكل)
1995) وانبوشيخي (1998)) ملكاة كل قالب داخل النموذج العام
ووظيفته و كيفية اشتغاله مع باقي القوالب.

(ب) ثاني الإسهامين اقتراحنا (المتوكل (2003)) نموذجاً عاماً بديلاً
عن النموذج المعيار يوحد بين النزوعين النظريين اللذين سادا في أواخر
سنوات 1990، نزوع التوسيع المتنامي لطبقات البنية ونزوع الثباتية
أسمناه بالنظر إلى هذه الخاصية "نحو الطبقات القالبية".

يتضمن هذا النموذج، للتذكير، بنية تحتية ذات مستويات ثلاثة،
مستوى بلاغي ومستوى علاقي ومستوى تمثيلي، وبنية صرفية - تركيبية
تحدد معلومات المستويات الثلاثة وينقلها المكون الصوتي إلى صورة
صوتية نهائية كما تبين ذلك الترسيم (17) الموردة في الفصل السابق.

ما يهمنا هنا هو استجابة نحو الطبقات القالبية لشرط الكفاية
النفسية التي تكمن في الأمور التالية:

(1) الفصل بين التداول والدلالة اللذين كانا يشكلان مستوى
واحداً في النموذج المعيار؛

(2) تقديم التداول (المستويين البلاغي والعلاقي) على الدلالة
(المستوى التمثيلي) باعتبار التداول يمثل المقصد الخطابي والدلالة لفحوى
الخطاب؛

(3) مطابقة اشتغال النموذج لإوانيات عملية إنتاج الخطاب
الثلاث: قصد ثم فحوى ثم نُطق؛

(4) اعتماد "افتراض التماثل المعتم" بين النص والجملة والمركب
الاسمي حيث تتوازي هذه الأقسام الخطابية الثلاثة من حيث خصائصها
التحتية وخصائصها الصرفية - التركيبية؛

(5) إمكان تعميم نحو الطبقات القائلي على عملية التواصل. بمختلف قنواته اللغوية وغير اللغوية وإمكان إدراجه بالتالي في نظرية التواصل الوظيفية العامة.

3.1.4 - في الكفاية النمطية

للكفاية النمطية، بوجه عام، جانبان متكاملان: جانب تمحيص انضائية النظرية على أكبر عدد ممكن من اللغات المتباينة الخصائص وجانب ترميز اللغات ووضع أنحاء لكل نمط مع رصد تطورها بالانتقال داخل النمط الواحد أو من نمط إلى نمط.

وقد تبنى للبحث الوظيفي العربي أن يعني الكفاية النمطية نظرية النحو الوظيفي في كلا جانبيها:

(أ) أمكن تثبيت ورود مبدئين من المبادئ العامة يخصان الإعراب والرتبة.

(1) مَحَصَّت معطيات اللغة العربية أطروحة أن لا وجود للإعراب إلا بالنسبة لفئة من اللغات معينة، اللغات التي يتحقق فيها الإعراب صرفياً، كاللغة العربية الفصحى، دون اللغات التي تخلو من علامات الإعراب. ومَحَصَّت معطيات نفس اللغة التمييز بين "الإعراب المنجرد" والإعراب المتحقق، بين "الحالة الإعرابية" و"العلامة الإعرابية" التي تتحقق بواسطتها.

وفي نفس السياق أمكن تثبيت مبدأ أن الإعراب تحدده الوظائف، خاصة الوظيفتان التركيبتان الفاعل والمفعول، باستثناء ما استثنى الإعراب المستقل الذي تسنده أدوات معينة (كالأداة "إن" وزمرتها مثلاً) والذي يحجب الإعراب الوظيفي الأصل.

(2) كان ترتيب المكونات في العربية الفصحى من أهم الشواهد على ورود مبدأ أن الرتبة محكومة تحددها الوظائف التداولية (أو التركيبية أو الدلالية) حتى في اللغات المعدودة "حرة الترتيب".

وكانت معطيات الترتيب في اللغة العربية من أهم مميزات أطروحة أن الشخال القبلي في الجملة لا يتضمن موقعا صدرا واحدا بل موقعين اثنين، موقعا للأدوات الصدور وموقعا لسكونات الشخار أو يؤر المقابلة كما يفاد من البنية العامة للجملة في اللغة العربية (166).

(ب) فصلنا القول في كتابنا (المؤكس (2003)) وفي مبحث سابق من هذا الفصل في ما أسميناه نحو الطبقات النقالبي وفي ما يوفره من إمكانات لتنميط اللغات ورصد تطورها نذكر هنا بإيجاز بأهمها:

(1) يمكن أن تعد البنية الخطائية النموذجية التي يقوم عليها هذا النحو أساساً لنحو وظيفي كلي؛

(2) عن هذا النحو الكلي يمكن تفريع أنحاء لأشاط اللغات على أساس تغليب أحد مستويات البنية النموذجية على باقي المستويات وما يترتب عن ذلك بالنسبة إلى البنية الصرفية - التركيبية؛

(3) على أساس نفس المبدأ، مبدأ تغليب مستوى على مستوى آخر، يمكن رصد انتقال لغة ما من نمط فرعي إلى نمط فرعي آخر أو انتقالها جذريا من نمط لغوي إلى نمط لغوي آخر.

وأمدت دراسة ظواهر اللغة العربية، فصحي ودوارج، نحو الطبقات النقالبي بدعم هام لمزاعمه عن تنميط اللغات ورصد تطورها.

من أمثلة هذا الدعم ما يلي:

أولاً: تتوسط الدوارج العربية بين النمطين القطبيين، نمط اللغات الموجهة تداولياً (المغلبة لمستويين البلاغي والعلاقي) ونمط اللغات الموجهة دلالياً (المغلبة لمستوى التمثيلي)؛ حيث يلاحظ نزوعها، بعد فقدانها الإعراب، إلى تحقيق الوظائف بواسطة الترتيب؛

ثانياً: ينسزع المكونات الخارجيات المبتدأ والذيل إلى أن يُمتصا داخل الجملة تحت الضغط التدريجي الذي يمارسه عليهما محمولها. عن امتصاص

المبتدأ نتج انتقال الجملة في اللغة العربية (بنكور (1987)، المتوكل (1993) 1993 ب)) من البنية الرتبية فعل - فاعل - مفعول إلى البنية الرتبية فاعل - فعل - مفعول حيث يسوغ عدد التراكيب التي من قبيل (194 ب) تطورا لتراكيب التي من قبيل (194 أ):

(194) أ - [مبتدأ، [فعل - ضمير فاعل] (مفعول)]
ب - [فاعل] (فعل - مطابقة) (مفعول)

وبامتصاص انكون الذيل أصبح الفعل يطابق الفاعل من حيث العدد حتى في حال تقدمه عنه في الدواجر العربية (المتوكل (1993) ب)) كما يفاد من المقارنة بين الترسيمتين التاليتين:

(195) أ - [[فعل - ضمير فاعل]، ذيل]
ب - [فعل - مطابقة] (فاعل)

ثالثا: ترصد بعض ظواهر التطور في الحقل العربي على أساس انتقال عنصر ما من طبقة إلى طبقة داخل نفس المستوى أو انتقاله من مستوى إلى مستوى آخر.

مثال الانتقال الأول (المتوكل (1996) أ): ناصر الإدريسي (2002) نزوح المحمول الفعل من الطبقة النواة في المستوى التمثيلي إلى الطبقة التأطيرية حيث يصبح فاعلا مساعدا (ثم مجرد أداة) يدل على سمة زمنية:

(196) عربية فصحي

راح خالد (ذهب وقت الرواح)

(197) دارجة مصرية

أ - راح أسافر بكره
ب - راح أسافر بكره

(198) عربية فصحي

غدا خالد (ذهب وقت الغد)

(199) دارجة مغربية

أ - غادي نساغروا دابا

ب - غ نساغروا دابا

ومن أمثلة الانتقال الثاني (المتوكل (2003)) نزوح العبارة الظرفية "جدا" من الطبقة الإنجازية من المستوى العلاقي إلى طبقة التكميم داخل المركب الاسمي:

(200) أ - (أقول) جداً، إن هذا الأكل لذيذ

ب - إن هذا الأكل لذيذ، جداً

ج - إن هذا الأكل لذيذ جداً

2.4 - إسهامات في الكفاية الإجرائية

كان من هواجس نظرية النحو الوظيفي، منذ بداياتها، ولوج حقول أخرى عبر التنظير اللساني وتطبيق نتائجه في وصف لغات متباينة الأنماط كحقلي الحاسوبيات والترجمة (ديك (1992)). إلا أن "الكفاية الإجرائية" كما حددناها هنا مفهوماً وما صدقنا وأرهننا لها في كتابات سابقة (المتوكل (2003) و(2005 ج)) لم تظهر إلا في الخطاب الوظيفي المغربي حيث انبرى باحثون جامعيون في تدريسهم وفي رسائلهم⁽⁶⁾ لتمحيص انطباقية نحو الطبقات القالي خاصة في قطاعات اجتماعية - اقتصادية كالتربية والتعليم اللغات والاضطرابات اللغوية وأنساق التواصل غير اللغوي.

1.2.4 - نحو الطبقات القالبي والترجمة

تقوم المسطرة العامة لترجمة في اقتراح ديك (ديك (1992) على العمليات الأساسية الثلاث التالية.

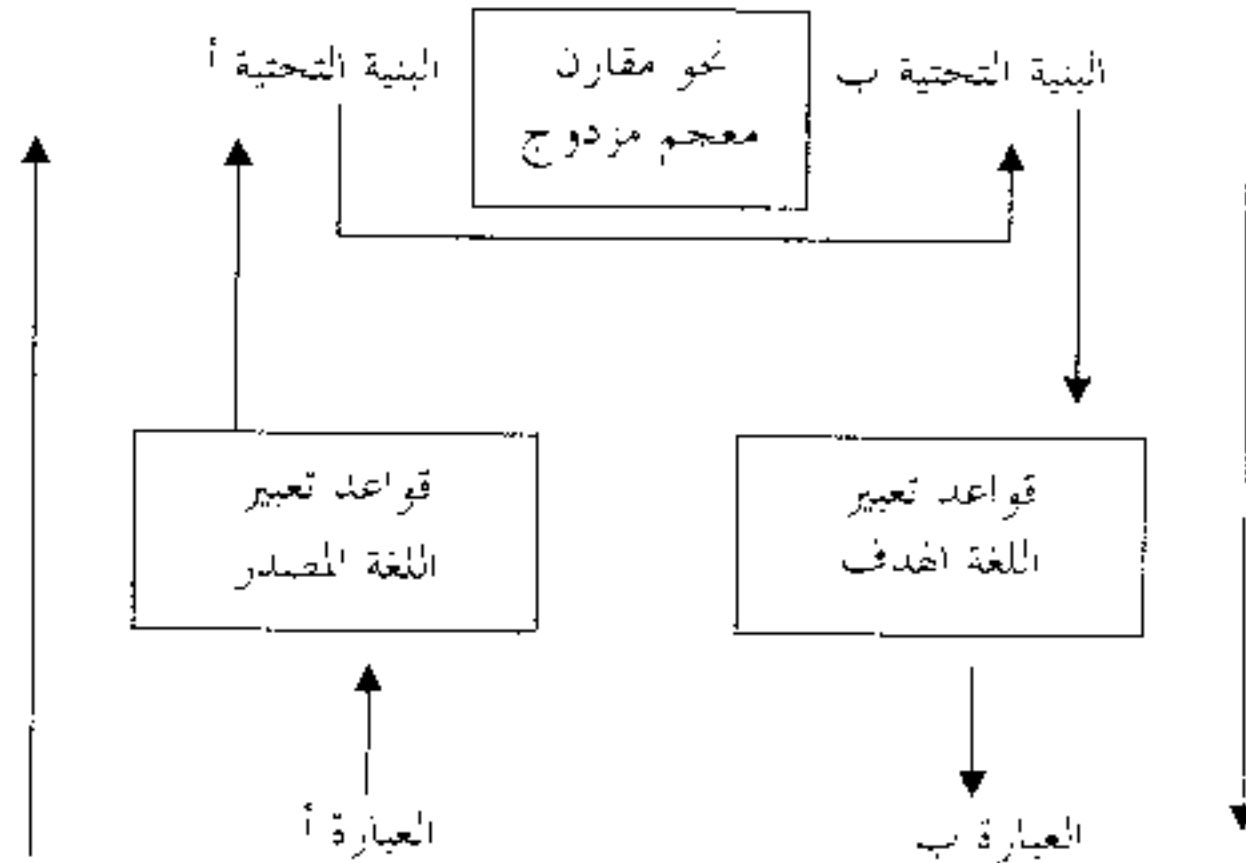
(أ) تحلل عبارة اللغة المصدر فتنقل إلى بنيتها التحتية بواسطة قواعد تعبير معكوسة؛

(ب) تنقل البنية التحتية بواسطة نحو مقارن ومعجم مزدوج إلى بنية تحتية لعلارة اللغة اهدف؛

(ج) تُستخر قواعد تعبير اللغة اهدف في نقل البنية التحتية الثانية إلى بنية سطحية تتحقق صوتياً في العبارة اهدف.

يمكن توضيح هذه المسطرة العامة بواسطة الترسمة التالية:

(201)



أهم ما يلفت الانتباه في هذه المسطرة أن عممية الترجمة تتم أساساً عبر البنية التحتية لا عبر البنية السطحية وفقاً للأطروحة الوظيفية المركزية القائلة بأن ما يؤولف بين اللغات وإن تعددت أتماطها وتباينت هو ما يتوافر في البنية التحتية على أساس أن هذه البنية تمثل نخصائص الدلالية والتداولية دون غيرها مما يشكل محط الاختلاف بين اللغات صرفاً وتركيباً.

اقترحت دروس وعروض انسلت العالي خلال السنتين الجامعتين (2002 2003) و(2003 2004) اعتماد هذه المسطرة بعد توسيعها وتدقيقها بما يتلاءم ونحو الصبغات القائي فكانت النتيجة كما يلي بالنسبة إلى ترجمة العبارة الانجليزية (202) إلى مقابلتها العربية (203) مثلاً:

(202) Unfortunately, the blond girls will leave

(203) مع الأسف، سترحل الفتيات الشقروات.

(أ) التحليل

(1) البنية الصرفية - التركيبية للعبارة (202):

(204) [[[Un fortunately] adv] [[The blond girls] NP subj] [[will leave v]] s

(2) البنية التحتية للعبارة (202):

المستوى العلاقي:

(205) | Ass : [REGR : | (xi) top] (unfortunately)] Foc]

المستوى التمشيني:

(206) (Fut ei : [leave_v (Def nx¹ : Girl_N : blond_A) Ag])

(ب) النقل:

المستوى العلاقي للعبارة (203):

(207) [حب] [سف]: [س1] [مع] [مع الأسف] [بؤ]

(2) المستوى التمثيلي للعبارة (203):

(208) (سقى وي: [ر.ح. فَعَلْ ف (ع ث س1]:

فتيات س: شقراوات ص (منف|)

(ج) التوليد

(209) البنية الصرفية التركيبية للعبارة (203):

[مع الأسف] [سترحل] ف [الفتيات الشقراوات] فا]

تستدعي مسطرة الترجمة هذه الملاحظات التالية:

(1) تستلزم عملية التحليل، أي الانتقال من البنية الصرفية التركيبية إلى البنية التحتية، أن يصاغ النحو بحيث يمكن تشغيله لا في اتجاه المقصد - النطق فحسب بل كذلك في اتجاه النطق - المقصد؛

(2) يقتضي نقل البنية التحتية للعبارة المصدر بشقيها العلاقي والتمثيلي إلى البنية التحتية للعبارة الهدف نحو طبقات قالبيا مقارنا يمكن من رصد الفروق التحتية - إن وجدت - بين العبارتين كالفروق بين المثالين (202) و(203) فيما يخص سمة الجنس التي تتحقق في العربية دون الإنجليزية.

(3) نفس النحو المقارن تستلزمه عملية التوليد حيث يجب رصد الفروق الصرفية - التركيبية بين العبارة المصدر والعبارة الهدف مثال ذلك الفرق في ترتيب المكونات بين الجملة (202) والجملة (203) المرجع إلى

التباين النمطي بين العربية والإنجليزية: بين لغة تصدّر الفعل ولغة تصدّر الفاعل، لغة تؤخر فصنة المركب الاسمي عن رأسه ولغة تفعل عكس ذلك.

نشر بالمناسبة إلى أن الترجمة بين لغتين من نفس النسب أيسر وأقل كلفة بالنظر إلى إياليات النحو المقارن منها بين لغتين من خطين مختلفين كالعربية الفصحى والإنجليزية.

(4) لا تنحصر إجمالية المسطرة التي يوفرها نحو الطبقات التالي في ترجمة الجمل بل يمكن أن تتعداها إلى ترجمة نصوص كاملة. آنذاك يزداد تشغيل المستوى البلاغي كذلك حيث يرصد نمط الخطاب وأسلوبه.

2.2.4 - نحو الطبقات القالي وتعليم اللغات

اعتنى باحثون من رجال التعليم ومفتشيه بمحاولة استثمار نتائج البحث الوظيفي المغربي في تعليم اللغة العربية بالسلك الثانوي. وجمت هذه العناية جانبيين أساسيين: جانب تقريب نظرية النحو الوظيفي مفاهيم وإياليات إلى أساتذة هذا السلك (أو شأن) وجانب تبسيط المقاربات الوظيفية لظواهر لغوية معينة كالعطف والاستفهام والاستلزام الحوارية والجمل المركبة وغير ذلك وإدراجها في فصول "الدرس اللغوي" من الكتاب المدرسي.

في نفس الاتجاه وضعنا (المثوكل (2005 ب)) خطاطة منهجية ديداكتيكية وظيفية عامة تقوم على المبادئ التالية:

(1) تتم عملية تعليم اللغات عن طريق مقابلة لغة المتلقن واللغة المراد تلقينها؛

(2) لا يكمن تلقين لغة ما في تدريس أبواب معينة من الصرف أو التراكيب بل في فحص ظواهر عامة (كظاهرة التبئير مثلا) تجمع بين خصائص وظيفية (دلالية وتداولية) وخصائص بنيوية على أساس تبعية الخصائص الثانية للخصائص الأولى؛

(3) انطلاقاً من استكشاف الخصائص الوظيفية للظاهرة المراد تلقينها، يوضع المتقن أمام الوسائل الصرفية - التركيبية - التطريزية التي تستعملها اللغة بهدف لتحقيق هذه الخصائص؛

(4) يتم تحسيس المتقن بما يؤلف وبما يخالف بين لغته واللغة التي يتعلمها من حيث الوسائل التي تسخرها اللغتان لتحقيق نفس الوظيفة (استخدام بنية التقدم في العربية الفصحى في مقابل استعمال بنية "الفعل" في اللغة الإنجليزية للتبشير مثلاً).

يمكن أن تنسب إلى منهجية كهذه إذا ما أثبتت التجربة جدواها المزايا التالية:

(أ) يُستخدم في تعليم اللغة نفس الجهاز الواصف (نحو الضيقات المقاني مثلاً) المستعمل في وصف اللغات وتمييزها ورصد تطورها؛

(ب) تعكس عملية تلقين اللغة، حسب المنهجية المقترحة، نفس المسطرة المعتمدة في الترجمة من لغة إلى لغة كما سبق أن بيناها؛

(ج) لا فرق يذكر بين عملية تلقين لغة ما وعملية الاكتساب التطري للغة بوجه عام حيث ينتقل في العمليتين معاً من وظيفة إلى بنية؛

(د) بفضل هذه المنهجية، يتمكن المتلقي لا من تعلم اللغة المراد تعليمها إياه بل كذلك من اقترايه من خصائص اللسان الطبيعي عامراً وما يتفرع عنه من أنماط ومن إواليات الانتقال من نمط إلى نمط (عبر الترجمة مثلاً).

(هـ) ولعل مزية هذه المزايا كلها أن المنهجية المقترحة لا تكلف اصطناع مفاهيم وإواليات غير ما يستخدم أصلاً في حقول أخرى كالوصف والتمييز ورصد التطور والترجمة وتحليل النصوص بمختلف أصنافها باعتبار أن هذه الحقول جميعها يضطلع بتأطير البحث فيها جهاز نظري واحد.

3.2.4 - نحو الطبقات القالي والاضطرابات اللغوية

وُجِّهت بعضُ أبحاثِ انسلك العاني في الجامعات المغربية إلى محاولة رصد وتفسير الاضطرابات اللغوية في إطار نحو الطبقات القالي. وشكّل متناً لهذه الأبحاث تسجيلات لبعض المرضى نفسياً (أو عقلياً) مكنت الباحثين من تصنيف تلك الاضطرابات حسب نوع الخلل ومحطه بالنظر إلى المستوى المحتمل (بلاغي، علاقي، تمثيلي) أو إلى إحدى طبقاته (إنجاز، وجه، وظائف تداولية) أو بالنظر إلى مقومات تناسق الخطاب.

من أمثلة الاضطرابات الواردة في النصوص المسجّنة انعدام وظيفة الخور أو وظيفة البؤرة أو انكسار السلسلة الخورية في خطاب معين بالانتقال غير المنبر من محور إلى آخر.

ما يُسعى في إحرازه من هذا الصنف من الأبحاث التي نرجو تكاثرها وتعميقها هدفان أساسيان اثنان:

(أ) الوصول إلى وضع تعالقات ثابتة بين صنف الاضطراب اللغوي وصنف الإصابة النفسية (أو العقلية) بحيث تتمكن الأبحاث الوظيفية من الإسهام في تشخيص الأمراض النفسية ومعالجتها في إطار التعاون بين الباحث اللساني والطبيب النفسي وهو أمر غير حاصل مع الأسف إلى حدّ الآن فيما نعلم؛

(ب) تحديد ما يميز الاضطراب اللغوي المرضي غير الإرادي عن "الإنزياح" الفني المقصود السليم.

4.2.4 - نحو الطبقات القالي والتواصل غير اللغوي

التواصل من حيث طبيعة أدياته ثلاثة أصناف كبرى: تواصل لغوي وتواصل غير لغوي (إشاري، صوتي، صوتي) وتواصل مركب يُضاهر بين أدوات متعددة لغوية وغير لغوية.

ما دافعنا عنه وما ندافع عنه (المتوكل (2003)) هو أطروحة أن نحو الطبقات الثقالي من حيث مكوناته والعلائق القائمة بينها وكيفية اشتغالها كقول قادر على أن يؤثر التواصل بمختلف فنونه وأصنافه.

في إطار تمحيص هذه الأطروحة بتطبيقها الفعلي أعدت رسالتان جامعتان بكلية الآداب بالرباط استهدفت إحداهما تحليل الحوار لغويًا وأخرهما استكشاف البنية الوظيفية للشريط السينمائي باعتباره نصًا يصل مخرجه، كمنطقه.

(أ) انصبت الدراسة الأولى (جمال (2003)) على كيفية التمييز بواسطة⁽⁹⁾ الموسيقى عن سمات الحوار الغنائي التداولية الإيجازية والوَجْهية والوظيفية. بتعبير أدق، كان هاجس الباحث في هذه الدراسة رصد البنية اللغوية في المخاوردة المغناة والبنية التحتية والعلاقة القائمة بين البنيتين، أي بين "المقامات" و"التغمات" و"الإيقاعات" وما تسخر لتأديته من قوى إيجازية ووجود ووظائف.

(ب) كان هدف الباحثة في ثانية الدراساتين (المدرسي (2003)) استكشاف مدى حضور البنية النموذجية للخطاب في مكونات الشريط السينمائي والعلاقات القائمة بينها. ويمكن القول إن الباحثة أحرزت قسطًا وافراً من هذا الهدف حيث استطاعت أن تثبت بالملاموس أن مختلف التقنيات السينمائية وسائل تؤدي بالصورة نفس السمات الإيجازية والوَجْهية ونفس الوظائف التداولية (محور، بؤرة حديد، بؤرة مقابلة...) التي يؤديها الصرف والتركيب والتطير في النص اللغوي⁽¹⁰⁾.

يظل البحث الوظيفي في القطاعات الاجتماعية - الاقتصادية في بداياته رغم ما توصل إليه ويرجى من الدراسات المقبلة أن تدفع به نحو تحقيق هدفين أساسيين: طرق حقول أخرى غير الحقول الأربعة المبحوث فيها من جهة وتوظيف نموذج "نحو الخطاب الوظيفي" الذي ما يزال إلى حد الآن حبيس الحقل اللغوي الخوض من جهة ثانية.

4-2-5- نحو الطبقات القالي واللغات المحلية

نقصد باللغات "المحلية" اللغات الخاصة المستعملة في كل قطر من أقطار العالم العربي. إذا كانت اللغة العربية الفصحى لغة عامة تغطي مجالات التعليم والإدارة والصحافة والأدب، فإن اللغات المحلية هي أداة التواصل اليومي وهي إلى ذلك حاملة وناقلة ثقافة هذه الأقطار "الشعبية" أدباً وفنوناً.

هذه الخاصية يمكن أن تُعدّ اللغات المحلية قطاعات اجتماعية-اقتصادية لا نقل أهمية عن غيرها، ويمكن أن تُعدّ دراستها، بالتالي، إسهاماً في التنمية الاجتماعية-الاقتصادية إلى جانب كونها إسهاماً في التنظير اللساني الصّرف.

عُنسي اللسانيون الوظيفيون المغاربة بالبحث في البيئة الصرفية والبنية التركيبية للغات المحلية داخل المغرب وخارجه.

من الأعمال التي أُجزت في هذا الاتجاه أبحاث في نسق المحمول سمات وصيغاً (الحمراوي (1990) وناصر الإدريسي (2002)) وأبحاث في رتبة المكونات وارتباطها بالوظائف التداولية (بنكور (1987) وبوخريص (1988) وأوسيكوم (2003)) وأبحاث أخرى تناولت تراكيب معينة كتركيب الاستفهام في اللغة المصرية (انشراف الكتالي (1994)).

خلاصة:

شكل إدخال نظرية النحو الوظيفي إلى المغرب ومنه إلى بلاد عربية أخرى انطلاقة منحى لساني يضاف إلى باقي المناحي اللسانية التقليدية والجديدة.

لم تقف أعمال الباحثين المنتمين إلى هذا المنحى عند تمحيص مزايا نظرية النحو الوظيفي في دراسة ظواهر اللغة العربية فصحاها ودوارجها

ولغات أخرى بل تعدت ذلك إلى الإسهام في تطعيم الجهاز النظري ذاته وتوسيع مجال انطباقه وإجرائته.

تمت إسهامات البحث اللساني الوظيفي العربي في ثلاثة مستويات:

أولاً: وضع نحو وظيفي متدرج للغة العربية يتطور بتطور النظرية العامة؛

ثانياً: المشاركة في التنظير العام بتعديل النماذج القائمة واقتراح نماذج جديدة؛

ثالثاً: فتح النظرية الوظيفية على مجالات وحقول اجتماعية - اقتصادية حيوية إلى جانب الدرس اللساني الصّرف.

المواهب

- (1) من الثابت أن لفظ الجذب وأسلوبه مثلاً دوراً هاماً في تحديد خصائص الخطاب التي نحفظ بوصفها اختلافياً من خصائص سرديتي في خطاب محدث أو خطاب إعلامي.
- (2) راجع (المبوكال 2003).
- (3) راجع التعريف من التفصيل في تدارك مفهوم التعيين والتشافية والتوكيد (2005 أ).
- (4) من أمثلة الاستعمال اللفظي لفظ "بعد" .
 - (أ) بعدت بالإنعزال غير مباحداً
- (5) من أمثلة أفعال المضروعة والانعكاس والانصهار لعبارة ثانية:
 - (أ) عاصفت هـ عاصفاً فـ عصف
 - ب - الحسب عاصفاً قبل الترم
 - ج - زبتت هـ شبرها (دجته بالزبت)
- (6) من الصعب هنا أن نجعل معنى جميع هذه الأفعال التي لم تنشر إلى الآن. ومين الفعول المكررة على فتهرس جامعة محمد الخامس بالرباط (وجامعات مغربية أخرى) حيث يوجد ثلثها
- (7) راجع الصياغة انعكاسية للتعريف مع أمثلة من اللغة العربية في (التوكيد 1995).
- (8) ينتشر المشتق من تركيب معين في لغة إلى سبة هذا التركيب لوظيفة (الدلاية - التداولية) ثم منها إلى تركيب سقاب في اللغة التي يتعدنا. مسطرة عملية شعسية. إذن، هي من حيث هيكلها أعاء نفس المسطرة متبعة في عملية الترجمة كما نلاحظها، نظرية أو نظرية.
- (9) شككت من هذه الدراسة المتجاوزة الأدبية المعروفة "يدي التعية المي ست فيه .. قني .. التي يغنيها محمد عبد الوهاب وبنين مراد.
- (10) أثبتت الدراسة أن نسبة الترم، مثلاً، تحقيق بصورة توظيفة البقرة.

الفصل الثالث

الوظيفية في التراث اللغوي
من الإسقاط إلى الإقسط

الفصل الثالث :

الوظيفة في التراث اللغوي من الإسقاط إلى الإقسط

0. مدخل:

مشروع المنحى الوظيفي في البحث اللساني العربي بالمغرب مشروع ذو شقين متلازمين تلازم تزامن وتكامل. فهالي جانب دراسة ظواهر اللغة العربية ومحاولة تفسيرها من منظور وظيفي سعى الباحثون الوظيفيون المغاربة (المتوكل (1977) و(1981) و(1982) و(1989)، الزهري (1998)) في إعادة قراءة التراث اللغوي العربي نحواً وبلاغة وأصول فقه وتفسيراً.

ما نستهدفه هنا هو إعادة النظر في المنهجية التي اقترحناها (المتوكل (1982)) لتعامل مع التراث عرضاً ومقارنة واستثماراً بتحديثها وتعديل بعض أسسها بما يكفل توفية الفكر اللغوي العربي القديم حقه بعيداً عن المحاباة أو الإجحاف.

1 - قراءة التراث: بعض الاقتراحات المنهجية

المنطلق في المنهجية التي نقترحها لقراءة التراث اللغوي العربي هو أن المفاهيم المعتمدة في "علوم اللغة العربية" تنسزع إلى التوحيد وإن تعددت هذه العلوم وإلى تشكيل إطار نظري يخلف الدراسات النحوية والبلاغية والأصولية والتفسيرية على حدّ سواء.

وتطمح هذه المنهجية إلى تمكين قارئ التراث من تلافي مترلقين: مترلق "المقصعة" ومترلق "الإسقاط".

1.1 - توحد المفهوم في تعدد "العلوم"

المقصود بعنوم اللغة العربية الدراسات اللغوية الواردة في الفكر اللغوي العربي القديم. أهم هذه الدراسات، كما هو معلوم، الدراسات المعجمية والدراسات التي يجدها في كتب النحو والبلاغة وأصول الفقه وفقه اللغة والتفسير.

هدفنا هنا ليس التعريف بهذه "العلوم" إذ إن التعريف بها في مضامها ذاتها وفي ما كتب عنها في الحديث وإنما هدفنا استكشاف النسب النظري العام الذي يوضرها جميعها ويؤلف بينها مهما اختلفت موضوعا ونهجاً.

لكل من هذه العلوم مادته التي تخصه كما له أدواته ومصطلحاته لكن لا يوجد مع ذلك فصل فاصل إذ إن ثمة، في مستوى معين من التجريد، جوامع توحد بينها نذكر منها هنا ما نراه الأهم:

(أ) تستهدق هذه العلوم على اختلافها فهم نص القرآن الكريم ودراسته واستخراج الأحكام الدينية منه باعتبار أنه أهم أدلة التشريع؛

(ب) تنزع المفاهيم الأساسية إلى الانتقال من علم إلى علم آخر. مثال ذلك مفاهيم "الاحتصاص" و"التخصيص" و"التقدم/التأخير" و"التوكيد" و"العناية والاهتمام" التي يجدها دارجة في كتب النحو والبلاغة والتفسير وغيرها.

(ج) قد تختلف المصطلحات من علم إلى علم والمفهوم واحد. من أمثلة ذلك المصطلح النحوي "خروج أسلوب إلى أسلوب والثنائية البلاغية" "الغرض الأصلي / الغرض الفرعي" والثنائية الأصولية "المنطوق / المفهوم" التي تحيل على ظاهرة واحدة. ظاهرة الانتقال بمعونة المقام من معنى حرفي إلى معنى ضمني كما هو الشأن في العبارة (1) الذائفة على سؤال والمتضمنة لاستبطاء:

(1) أ- أم تذهب بعد؟ !

ب- لماذا لم تذهب؟

ج- اذهب فقد أبطأت !

(2) من الجوامع الموحدة كذلك أن العلوم المعنية بالأمر متحت كلها، وإن على تفاوت، من نفس المصادر النحوية الأولى، خاصة "كتاب" سيويه، مادة ومفاهيم وتقييدا.

إن تضافر هذ الجوامع وغيرها يحتم على قارئ التراث أن يتناول علوم اللغة العربية لا على أساس أنها علوم مستقلة بل على أساس أنها مكونات مقارنة واحدة للخطاب (لا للجمل أو العبارات) تستمد مفاهيمها ومنهجها من جهاز نظري واحد عُنت كتب فقه اللغة على الخصوص برصده وتبيانها.

وجدير بالإشارة أن هذه المقاربة الشمولية لعلوم اللغة العربية باعتبارها مكونات لجهاز نظري واحد واردة عند المفكرين اللغويين العرب القدماء أنفسهم حيث تشكل قوام "نظرية النظم" للجرجاني و"نظرية الأدب" للسكاكي كما سنرى في مبحث لاحق.

2.1 - تطور لا قطيعة

يصدق مفهوم "القطيعة" على الفصل المعرفي التام بين فكرين ما من حيث المنطلقات والأهداف والمنهج. من أمثلة ذلك ما نجده حاصلا بين الفكر العلمي من جهة والفكر السحري أو الأسطوري من جهة ثانية.

فيما يخص الحقل اللغوي راجت في بعض الوقت في أدبيات اللسانيات البنوية خاصة فكرة أن اللسانيات الحديثة علم جديد يباين مياينة القطيعة المعرفية ما سبقه من دراسات نحوية تقليدية من ضمنها الفكر اللغوي العربي القديم. وساعد في رواج هذه الفكرة أمران متلازمان:

(أ) إحساس لسائبي تلك الحقبة بأنهم آتون، تبعاً لذي موسير،
بالجديد اجاب لما قبله؛

(ب) رد "هجمة" أنصار القديم النافين لجدة اللسانيات واعتبارها لا
تعنو أن تكون "بديلا مصطلحيا" للدرس اللغوي القديم ذي الكفاية الثابتة
على مدى العصور.

لكن فكرة القطيعة هذه لم تثبت أن فنتحها دراسات استمولوجية
لسانية (شومسكي (1966)، كورودا (1972)) وسيميائية (جرمانس (1966))
بينت باللموس أن اللسانيات الحديثة ليست إلا حقبة من حقبة
تطور فكر لغوي واحد بدأ حين بدأ الانسان يفكر في اللغة وسيمتد امتداد
التفكير في اللغة.

اعتماداً لأطروحة التطور (في مقابل أطروحة القطيعة) وفي ظلها
اقترحنا (المتوكل (1982)) قراءة للتفكير اللغوي العربي القديم في مراحل
ثلاث:

(أ) أولاً: استخلصنا من مختلف "علوه اللغة العربية" أهم مقومات
التنظير العربي القديم للدلالة؛

(ب) ثانياً: حددنا معالم منهجية عامة مقارنة النظرية الدلالية العربية
القديمة بالنظريات اللسانية الحديثة خاصة منها النظريات الموجهة تداولياً
مثل "نظرية الأفعال اللغوية" في ما يسمى "فلسفة اللغة العادية" ونموذج
"الفرضية الإبحازية" في النظرية التوليدية التحويلية ومختلف النظريات
الوظيفية بالتركيز على نظرية النحو الوظيفي؛

(ج) ثالثاً: حاولنا استكشاف إمكانات عقد حوار معرفي بين النظرية
الدلالية العربية المستخلصة والنظريات التي قورنت بها حيث بينا على
الخصوص مدى الاستثمار المتاح للنتاج اللغوي العربي القديم في التنظير
اللساني الحديث بوجه عام.

3.1 - إسقاطاً "للإسقاط"

من غير النادر أن يتهدّد مترنق "الإسقاط" القراءات الحديثة للتراث.

والإسقاط حسب فهمنا له في حق اللغويات هو قراءة نظرية ما من خلال نظرية أخرى. ويمكن تصنيف الإسقاط بالنظر إلى ثلاثة وسائط أساسية: نوعه ودرجاته واتجاهه.

(أ) الإسقاط من حيث نوعه إسقاطان: "إسقاط وجود" و"إسقاط تقويم":

(1) يمكن أن تُنسب إلى نظرية ما مفاهيم أو إوالات أو سمات منهجية متقدمة فيها موجودة في نظرية غيرها.

من أمثلة ذلك أن يقال إن "التحويلات" بالمفهوم التوليدي التحويلي موجودة بنفس الخصائص الصورية في النحو العربي القديم.

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن يقال إن البنية الصرفية - التركيبية في نظريات الحديثة هي بالحدّ الفير ما كان يسميه الخرجاني نظرية النظم". ومن إسقاط الوجود كذلك أن يقابل مفهوم "البؤرة" مقابلة مطابقة بمفهوم "العناية" الاهتمام" الوارد عند اللغويين العرب القدماء.

(2) أما إسقاط التقويم فإن تُنتقد نظرية ما سلباً أو إيجاباً انطلاقاً من نظرية أخرى.

مثال ذلك أن يُعاب على نظرية صورية أنها لا تعتمد الدلالة والتداول في رصد البنية الصرفية - التركيبية أو أن يعاب في المقابل على نظرية وظيفية الأخذ بمهذين البعدين في وصف وتفسير خصائص العبارات اللغوية.

(ب) الإسقاط درجات حيث منه ما يقف عند المنطوق حين يتحدث عن نظرية ما بمصطلحات نظرية أخرى حديثة أو قديمة ومنه ما يجاوز ذلك إلى المفاهيم ذاتها.

ويمكن القول إن الإسقاط خاص بين نظريتين مترامتين وإن اختلفتا فهون من الإسقاط الذي يحصل بين نظريتين منتميتين إلى حقبتين تاريخيتين متباعدتين.

(ج) أغلب أمط الإسقاط وأشهرها إسقاط نظرية حديثة على الفكر التراثي إسقاط وجود كما سبق أن بينا أو إسقاط تقويم كان يعاب على هذا الفكر لمجده في التبويب أو خلوه من أدوات الصورة المنطقية - الرياضية مثلاً.

إلا أنه من غير النادر أن يحصل العكس فيسقط الفكر التراثي على إحدى النظريات النسائية الحديثة. المثال المعروف لهذا النمط من الإسقاط ما نجده في القراءات المتعصبة للتراث التي تسعى في نفي المدرس النسائي الحديث باعتباره مجرد بديل مصطلحي لنحو والبلاغة القديمين.

كيف يمكن إذن أن نقرأ النظريات اللغوية وأن نقارن بينها بعيداً عن مترلق الإسقاط؟ أنجع السبل في رأينا إلى تلاقي الإسقاط (أو إسقاطه) سبيلان متكاملان هما:

أولاً: تحاشي الانطلاق من نظرية بعينها حديثة كانت أم قديمة؛

ثانياً: وضع "ميتانظرية" تعبر جميع النظريات وتشكل المرجع والحكم الوحيدين في القراءة والمقارنة معاً.

ولعل من البناءات النظرية التي تقرب من الميتانظرية المنشودة ما أسميناه "النظرية الوظيفية المثلى" التي شغلناها لتقويم النظريات الوظيفية الحديثة والتي نزعج أنه بالإمكان تشغيلها في قراءة الجانب الدلالي من التراث اللغوي العربي كذلك كما سنرى في مبحث لاحق.

2- الدلالة في التراث اللغوي العربي

نطلق هنا مصطلح "الدلالة" على جميع أقطاب المعنى التي نقترح أن نردّها إلى ثمّين عامين أساسيين: "المعنى المقصد" و"المعنى الفحوى"، نسبة المخاطب في خطابيه وفحوى الخطاب ذاته.

تنوّع هذان النمطان من المعنى في مختلف علوم اللغة العربية بإروايات وتحت مصطلحات مختلفة إلا أنه من الممكن القول إن التنظير هُما يكاد يكون واحداً.

هذا التوحيد في التنظير⁽²⁾ للدلالة هو ما سنحاول تبيانه في ثلاث مراحل:

أولاً: رصد المفاهيم الأساسية قوام التنظير؛

ثانياً: بلورة الجهاز الواصف وصياغته؛

ثالثاً: عرض أمثلة للظواهر الدلالية المقاربة.

سيلاحظ القارئ أن النهج الذي سنسلكه في هذا العرض نهج بنائي يجمع مقومات ما يمكن تسميته "النظرية الدلالية العربية القديمة" ويصوغها كما تصاغ النظريات عامة وذلك ما سيمكننا لاحقاً من تقويتها ومقارنتها بالنظريات الوظيفية الحديثة.

1.2- المفاهيم الأساسية

من الأقوال السائرة في ثقافتنا العربية قديماً وحديثاً القولة المعروفة "لكل مقام مقال". إن هذه القولة، إن جازت ظاهراً المثلي العام، تحترق الفلسفة التراثية في التنظير للدلالة. بناهاً على ذلك، نقترح بغية التبسيط والتوحيد معاً، أن نوظف مجموعة المفاهيم الأساسية الواردة في هذا الحقل داخل ثنائية "المقام / المقال".

1.1.2 - المقام:

ما صدق مفهوم المقام بمجموعة العناصر التي تتوافر في موقف تخاطبي معين وأهمها زمان التخاطب ومكانه وعلاقة المتكلم بالمخاطب وخاصة توضع التخاطبي القائم بينهما، أي مجموعة المعارف التي تشكل مخزون كل منهما أثناء عملية التخاطب.

إن هذا التعريف العام، يمكن أن تُرجع مختلف المصطلحات الواردة في علوم اللغة العربية كمصطلحي "مقتضى الحال" و"قرائن الأحوال" مثلاً.

قد انتبه اللغويون العرب القدماء، خاصة منهم علماء البلاغة، إلى أهمية العناصر المقامية بالنظر إلى المثال وتحديد خصائصه. ونورد هنا من مفتاح العلوم للسكاكي مثالين لذلك هما: أولاً: "خروج" الاستفهام من السؤال إلى غيره وثانياً: تصنيف الخبر إلى ثلاثة أضرب.

(أ) يحلل السكاكي الجملة الاستفهامية (2أ) على أساس أنها تفيد أصلاً السؤال الخفض وترادف الجملة (2ب) لكنها انتقلت من معنى السؤال إلى معنى الاستغاثة بواسطة ما يسميه "قرائن الأحوال" أي عدم وجود شفع في مقام التخاطب:

(2) أ - هل من شفع؟!

ب - هل يوجد شفع يشفع لي؟

(ب) تختلف الجمل (3 أ-ج)، في نظر السكاكي، في كون الأولى "خبراً ابتدائياً" والثانية "خبراً ظلياً" والثالثة "خبراً إنكارياً".

(3) أ - زيد قائم

ب - إن زيدا قائم

ج - إن زيد لقائم

ويقيم السككافي التمييز بين الخبر الابتدائي والخبر الطليي والخبر الإنكاري على اختلاف المقام والوضع التخابري عنى الخصوص حيث يُبنى الأول مخالي الذهن والثاني مسترَدَد والثالث للجاحد المنكر.

2.1.2 - المقال

1.2.1.2 - تعريف المقال

يمكن أن يُحدَّ المقال في مقابل المقام كالتالي:

(4) حدُّ المقال:

"المقال هو الخطاب المنطوق أو المكتوب الذي ينتجه المتكلم في زمان ومكان معينين تجاه مخاطب معين بالنظر إلى وضع تخابري معين".

2.2.1.2 - بُعدا المقال: اللفظ والمعنى

للمقال، كما حدّدناه أعلاه، شقان: لفظ ومعنى.

1.2.2.1.2 - اللفظ

ليس المقصود بمصطلح "اللفظ" في التراث اللغوي العربي الصورة الصوتية النهائية فحسب بل كذلك العلاقات النحوية (الصرفية - التركيبية) التي تثوي حلقها. هذا ما يفهم مثلا من حديث الجرجاني (دلائل الإعجاز) عن اللفظ. فاللفظ عند هذا العالم، في مقابل المعنى، هو ناتج "إعمال أحكام النحو" .. يمكن أن نستنتج، إذن، أن اللفظ في التراث هو البنية الصرفية - التركيبية للعبارة اللغوية المتحققة في سلسلة صوتية.

على هذا، يمكن أن تمثل نه صورة اللفظية للجملة (5):

(5) هل يستوي العالم والجاهل؟!

عنى الشكل التالي:

(6) / هل - يستوي - العالم - و - الجاهل /
[أداة - فعل - اسم فاعل - أداة - اسم فاعل].

2.2.2.1.2 - المعنى

لمفهوم "المعنى" في التراث حقن شاسع إلا أنه من الممكن حصره في ثنائية أساسية هي: "المعنى المقصد" / "المعنى الفحوى".

1.2.2.2.1.2 - المعنى الفحوى

يفيد هذا المصطلح معنى العبارة اللغوية ذاتها. وهو في الأغلب مجموع معاني مكوناتها مضموما بعضها إلى بعض ضمًا خطيًا.

المعنى الفحوى في الجملة (5)، مثلا، هو ما يقاد من الترسيم الثانية:

(7) [هل - يستوي - العالم - والجاهل]
"استفهام + معنى 1 + معنى 2 + عطف + معنى 3".

2.2.2.2.1.2 - المعنى المقصد

يستوجب في الغالب استعمال العبارات اللغوية عامة أن تُفَرِّق بين "معنى العبارة" كما حددناه في الفقرة السابقة و"معنى المتكلم"، بين الفحوى المعجمي - التركيبي للعبارة ذاتها والمقصد الذي يتوخى المتكلم تحقيقه حين ينتج العبارة.

ويشمل المقصد بدوره: "الغرض" و"النية".

(أ) يضع البلاغيون (المرجاني، السكاكي) والأصوليون (الأمدي) في مقابل "الكلام" "الغرض من الكلام" ويردّون مجموع الأغراض الكلامية إلى الثنائية المنطقية المعروفة التي تقابل بين "الخبر" و"الإشياء" (أو "النصب").

تقوم المقابلة بين هذين المفهومين في تراثنا على الأسس التالي:

(1) الخير هو ما يُحتمل الصدق والكذب في حين أن الإنشاء غير قابل لأي من هاتين القيستين.

فالجمله الخيرية (8) يمكن أن تكون "صادقة" كما يمكن أن تكون "كاذبة" حسب مطابقتها لواقع المخير عنه او عدم مطابقتها له:

(8) زيد في الدار

أما الجملتان الإنشائيتان (9) و(10) فلا يُقتضى أن تطابقا واقعا ولا تحتملان بالتالي صدقا أو كذبا:

(9) متى سيعود زيد؟

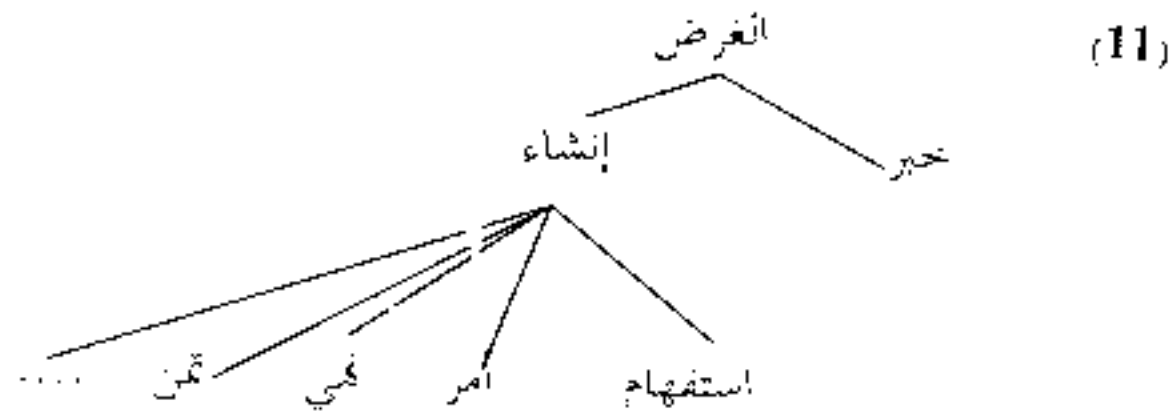
(10) اخرج إن أردت النجاة!

(2) الخير والواقع المخير عنه أمران متميزان مفصول بعضهما عن بعض يقوم كل منهما قيام الذات في حين أن مدلول الإنشاء يتحقق بمجرد المنطق به.

من الأمثلة المسوقة في هذا الباب العبارات الشرعية التي من قبيل "زوجتك ابنتي" والتي يسميها بعض اللغويين القدمات بحق "الألفاظ الأعمال" إذ إن التلفظ بها إنجاز مدلولها إنجازا لا يحتمل التراجع.

ويُدرج البلاغيون (كالكسكاكي مثلا) تحت الإنشاء معاني متعددة مثل الاستفهام والأمر والنهي والتمني.

يمكن أن نوضح ثنائية الخير / الإنشاء وما يتفرع عن الإنشاء بواسطة الترسيم التالية:



(ب) إذا كان مفهوم الغرض علاقة بالهدف من الخطاب فإن لفهمه "نية" علاقة بتنظيم الخطاب ذاته (أو "نظمه" بلغة الجرجاني) من حيث ترتيب مكوناته على الخصوص كأن يقدم ما هو في "نية" التأخير أو عكس ذلك.

إن المتكلم حين "يعمل أحكام النحو" في خطابه فإن نيته في ذلك تكون إما "عناية واهتمام" أو حصراً أو تخصيصاً أو توكيداً كما تبين ذلك الترسيمة (12):



2.1.2.1.2 - أغماط المقال

حفر استكشاف خصائص القرآن الكريم وما يميزه عن غيره اللغويين العرب القدماء على وضع تصنيف للمخطبات وكان انصافهم في هذا التصنيف ثلاثة معايير: أولاً: الفائدة، وثانياً: صيغة الخطاب (أو بعده) وثالثاً: مجاله.

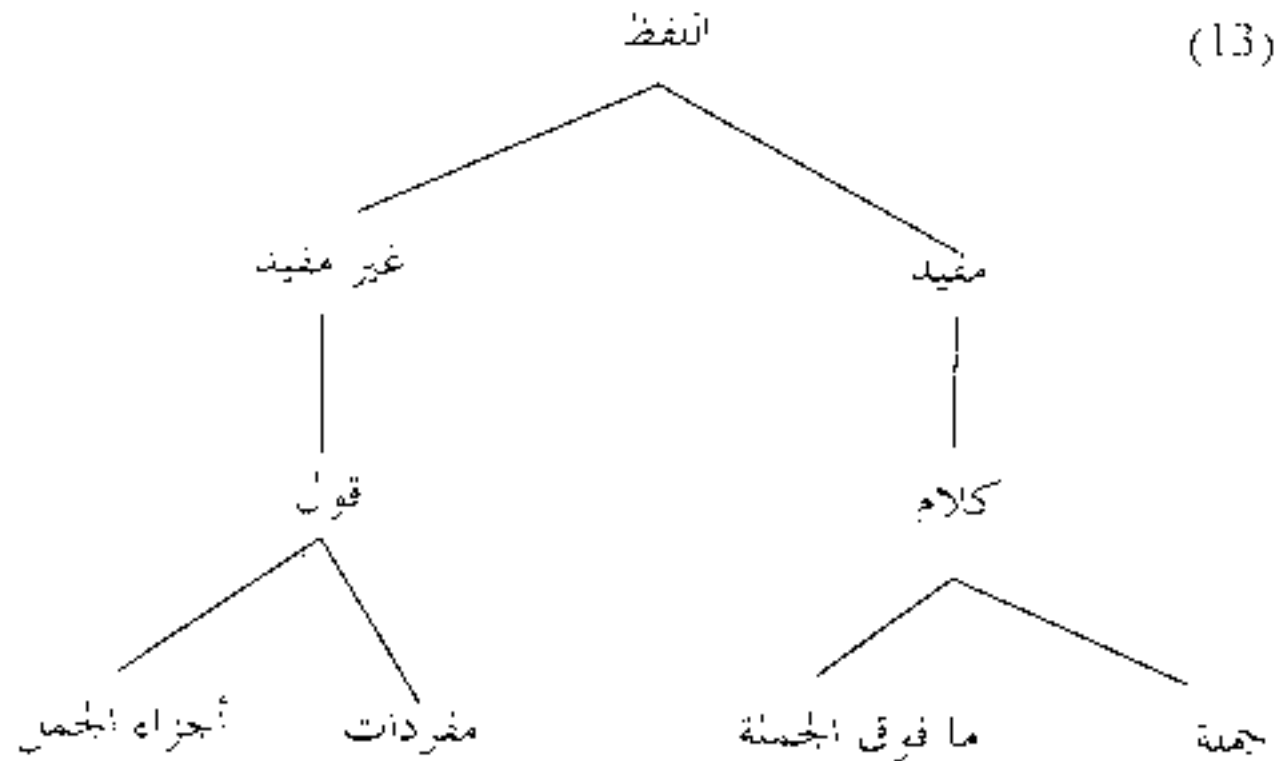
1.2.1.2.1.2 - الفائدة

يُميز انسكاكي (مفتاح العدم) بين الخطاب الحامل لفائدة أي معدومة غير متوافرة عند المخاطب والخطاب غير الحامل لفائدة. ويسمى التصنف الثاني من الخطاب "لفوا".

في نفس السياق، يميز ابن جني (الخصائص) بين القول و"الكلام" على أساس أن الأول لفظ غير مفيد والثاني لفظ ذو فائدة.

بتعبير أدق، "اللفظ" عند ابن جني مجموعة أصوات قد تحمل فائدة تامة في حد ذاته فتكون "كلاماً" وقد تخلو من فائدة فتكون مجرد "قول". حسب معيار "الإفادة التامة"، تُدرج المفردات المعزولة وأجزاء الجمل في "القول" في حين تعدّ كلاماً الجسنة وما يتعدى الجملة.

يمكن توضيح ثنائية "القول / الكلام" عند ابن جني عن طريق الترسيم التالية:



ملحوظة: مفهوم الإفادة عند السكاكي أعم منه عند ابن جني.

فاللفظ غير المفيد الأول ليس محصوراً في مفردات أو أجزاء جُمل بل إنه يشمل كل ما يحمل "جديداً" للمخاطب وإن كان جملة أو أكثر من جملة.

2.2.1.2.1.2 - طبيعة الخطاب

نقصد هنا بطبيعة الخطاب (أو بعده) ما كان يجيل عليه المصنف في التقديم "أقسام الكلم" إذا نحن اعتمدنا تعريف ابن جني للكلام على أنه اللفظ المفيد (في مقابل القول مفرداً أو جزء جملة) أمكننا القول إن النحاة والبلاغيين وفقهاء اللغة تجاوزوا ذلك وتصدروا لدراسة ما يتعدى الجملة والمفسرين وفقهاء اللغة تجاوزوا ذلك وتصدروا لدراسة ما يتعدى الجملة.

(أ) يعرف العسكري (الفروق في اللغة) "القطعة" بأنها سلسلة من الجمل المتوالية. ولجد عنده وعند ابن جني (الخصائص) مفهوم "الحديث" معرفاً في مقابل القطعة بخاصيتين: أولاً: كونه متوالية من الجمل وثانياً: كون هذه الجمل المتوالية يحكمها علاقات ترابط معينة.

بإضافة مفهومي "القطعة" و"الحديث"... يمكن أن تمثل لسنمية أقسام الكلام بواسطة الترسيم (14):

(14) كلام: جملة > قطعة / حديث.

(ب) بحكم تصديهم لدراسة القرآن الكريم لتفسيره واستخراج الأحكام الشرعية منه، كان لزاماً على المفسرين وعلماء أصول الفقه أن يجاوزوا مستوى الجملة إلى ما هو أعلى من الجملة: "آية" ثم "سورة" كما هو معنوم.

3.2.1.2.1.2 - المجال

م يُغيب عن اللغويين العرب القدماء أن الخطابات لا تختلف بالنظر إلى أبعادها فحسب بل كذلك بالنظر إلى مجالها.

في هذا الباب، ميزوا بين الخطاب الديني متمثلاً في القرآن الكريم والخطاب الشعري والخطاب الحجاجي والخطاب العنسي وحاولوا رصد خصائص كل من هذه الأنماط الخطابية كما سنبين في مبحث لاحق.

2.2 - المنهج

نقصد بالمنهج هنا الطريقة المعتمدة في مقارنة الظواهر اللغوية، وبالخصوص الظواهر الدلالية. للمنهج عامة جوانب عدة عرضنا لها بالتفصيل سابقاً (المتوكّل (1982)) ونختصر بالحديث منها جانباً أساسياً، جانب المسطرة المتبعة في بناء العبارة اللغوية إنتاجاً أو فهماً.

1.2.2 - اللفظ والمعنى: جدل السبق

تتألف النظريات اللغوية الحديث منها والقديم على اختلافاتها، في أنها تسعى جميعها في ربط شقي العبارة اللغوية الأساسيين: شق المعنى وشق اللفظ.

تتحدد طبيعة مسطرة تحليل العبارة اللغوية وفقاً للإجابة عن السؤالين الأساسيين التاليين:

أولاً: ما المقصود بالمعنى؟ ما هي العناصر التي يجب رصدها في هذه الحالة؟

ثانياً: كيف يتم الربط بين المعنى واللفظ؟ ما هو الاتجاه الذي يأخذه هذا الربط بالنظر لأيهما أسبق؟

(أ) تختلف النظريات اللسانية الحديثة اختلافاً بيناً، كما هو معلوم، في الحيز الذي تعطيه للمعنى وأيضاً في العناصر التي تجعلها مكونات له. فالنظرية التوليديّة التحويلية في نماذجها الكلاسيكية تحصر المعنى في ما تسميه "الدلالة اللغوية الصّرف" التي تكمن في محتوى العبارة ذاتها في

حين أن النظريات الموجهة تداوليا (أو وظيفيا) تصنيف إليه عناصر قصصية كالدلالة الإنجازية والدلالة الوجهية.

فيما يخص المعنى في التراث بيننا في المبحث السابق أنه معنيان: معنى المتكلم ومعنى العبارة، المعنى المقصد المتضمن للعرض وللنية والمعنى المفحوى الكامن في مجموع مدلول مكونات العبارة مضموما بعضها إلى بعض.

(ب) وتباين النظريات انسانية الحديثة كذلك من حيث أعضاء الأسبقية في تحليل العبارة لنفط على المعنى أو المعنى عنى اللفظ. فالنظريات التي تعتمد مبدأ استقلال التركيب تجعل من اللفظ المكون الأساس على أن يكون المعنى مكونا تابعا يكتفي بتأويل البنية الصرفية - التركيبية.

في المقابل، نجد المعنى في النظريات الأخرى كالدلالة التوليدية ويحمل النظريات الوظيفية سابقا لفظ محددًا خصائصه الصرفية والتركيبية والصوتية.

إن هذا الاختلاف راجع في الواقع، إلى أن من النظريات ما يستهدف وضع نموذج لمخاطب ومنها ما يرمي إلى وضع نموذج للمتكلم. ومن الطبيعي والمنطقي بالنظر إلى مراحل عملية التخاطب أن يتقدم اللفظ على المعنى في النظريات الأولى إذ يكون الأسبق في التلقي في حين يتقدم المعنى على اللفظ في النظريات الثانية إذ إنه السابق في إنتاج العبارة. توضيح هذا الفرق في الترميمية التالية:

$$(15) \left\{ \begin{array}{l} \text{إنتاج العبارة: معنى} \leftarrow \text{لفظ} \\ \text{تلقى العبارة: لفظ} \leftarrow \text{معنى} \end{array} \right.$$

أثار إشكال الأسمية هذا في التراث الجدل الشهير حول أسمية اللفظ عني المعنى أو العكس وتحكم السابق في اللاحق وهو جدل عام شغل كما هو معروف النقد الأدبي إلى جانب علوم اللغة.

منحصر الحديث عن هذه القضية الكبرى في الحقل اللغوي حيث يتواجد "الأتجاهان" معاً: اتجاه أسمية اللفظ عني المعنى ويتمثله السكاكبي (المفتاح) واتجاه أسمية المعنى عني اللفظ الذي يروده الجرجاني (الدلائل).

2.2.2 - اللفظ فالعنى: "علم الأدب"

يسقط السكاكبي في ثنايا كتابه "مفتاح العلوم" ما يسميه "علم الأدب". علم الأدب هذا يمكن أن يفهم عني أنه منهج لتحليل العبارات لغوية انطلاقاً من تغطيتها نحو معناها.

يقوم هذا المنهج عني التمييز بين ثلاثة مستويات يضطلع ببيانها ويربط بعضها ببعض ثلاثة أنساق من القواعد (أو "مكونات").

1.2.2.2 - مستوى "المفرد"

ينقسم مستوى "المفردات" إلى ثلاثة مستويات فرعية هي "الأصوات" و"الأينية" و"اللغة" يضطلع بتحديد ما عني الأصوات وعني الحروف والمعجم عني التوابع.

2.2.2.2 - مستوى "المركب"

بعد التحديد الصوتي - الصرفي لبنية مفردات العبارة وبعد التحديد المعجمي مداليلها المفردة تنقل هذه المفردات إلى مركبات (جمل، عظام) بواسطة المكون الموائى، مكون النحو، الذي يضطلع بتحديد البنية التركيبية للعبارة والعلاقات القائمة بين عناصرها.

من أهم العلاقات النحوية العلاقات الإعرابية التي تقوم على ثلاثة أركان: "فاعل" يُسند الإعراب و"أثر" هو الحالة الإعرابية (رفع أو نصب أو جر) و"قابل" معمول فيه يحمل الحالة الإعرابية المسندة.

3.2.2.2 - مستوى المطابقة

في هذا المستوى، يُحدّد مدى مطابقة المركب لمقتضى الحال وفيه يُسند المعنى "الأصني" للعبارة بمعونة "قرائن الأحوال" فيكون "استفهاماً" أو "أمراً" أو "نفيًا" أو "ثمناً". وقد يقتضي الحال (المقام) أن يُسند إلى العبارة معنى "فرعي" (أو "حالي" كما يسميه السكاكي) فيحال المعنى الأصلي "الأمر" مثلاً إلى "التماس" أو "دعاء" والمعنى الأصلي "الاستفهام" إلى "استبطاء" أو "زجر" كما مر بنا.

يتقاسم إسناد المعنى الأصلي والمعنى الحالي مكونان فيقوم "علم المعاني" بتحديد المعنى الأول و"علم البيان" بتحديد المعنى الثاني.

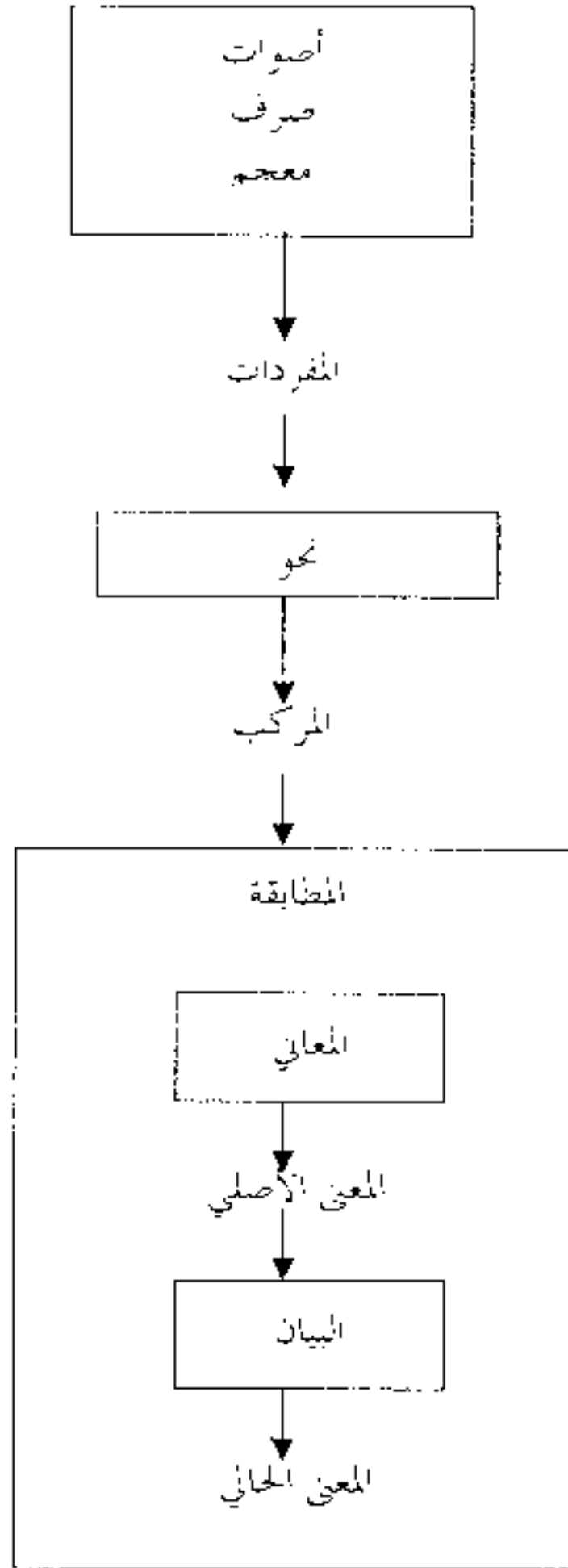
ملحوظة: يفترض السكاكي بين المستويات الثلاثة تراتبية منطقيّة قوامها أن المفردات سابقة للمركب وأن المركب سابق لمطابقته مقتضى الحال.

بموازاة ذلك يشتغل النحو بعد الأصوات والصرف والمعجم ويشتغل علمنا المعاني والبيان بعد النحو.

ثمة تراتبية إضافية يقيسها السكاكي داخل مكون المطابقة نفسه بين عممي المعاني والبيان على أساس أسبقية الأول عمي الثاني. ويُعدّ هذه الأسبقية بكون المعاني "المستنبطة" (موضوع علم البيان) تقتضي الانطلاق ضرورة من المعاني الأصول (موضوع علم المعاني).

نقترح أن نوضح المسطرة التي ينتهجها السكاكي في تحليل العبارة اللغوية بواسطة الترسيم (16):

(16)



3.2.2 - المعنى فاللفظ: "نظرية النظم"

فَرَّجَ المحدثون نقاداً وتغويين عمي إضلاق مصطلح "نظرية النظم".
لا تحاوزا، على الفكرة الأساسية التي يدفع عنها الجرجاني في كتابه
"دلائل الإعجاز".

خاصية هذه النظرية قيامها على أسبقية المعنى على اللفظ وانتهاج
منهج بناء العبارات اللغوية على أساس معناها.

1.3.2.2 - المعنى قبل اللفظ

إن فكرة أسبقية المعنى على اللفظ من موضوعات "دلائل الإعجاز"
الكبرى يوردها الجرجاني ويفصل فيها بالمخارج في غير موضع من كتابه.

يمكن إرجاع ما يحتج به الجرجاني لأسبقية المعنى إلى أمرين: أولاً:
مراحل عملية التخاطب وثانياً: تحكم المعنى في تحديد بنية الخطاب.

(أ) أهم شقي عملية التخاطب في رأي الجرجاني هو شق التكلم لا
شق السماع أو الفهم والعبارة أذن، في رأيه، في تحليل العبارة اللغوية
بكيفية بنائها لا بكيفية تلقيها.

يقول في هذا الباب (الدلائل: 273): "قد ترى أحدهم يعتبر حال
السامع فإذا رأى المعاني لا ترتب في نفسه إلا بترتب الألفاظ في سمعه حين
عند ذلك أن المعاني تبع للألفاظ وأن الترتب فيها مكتسب من الألفاظ
ومن ترتبها في نطق المتكلم وهذا ظن فاسد ممن يظنه فإن الاعتبار ينبغي
أن يكون بحال الواضع للكلام وانظرف له. وإن واجب أن ينظر إلى حال
المعاني معه لأمع السامع".

(ب) يميز الجرجاني كما هو معهود بين "النظم" و"النظم" عنى
أساس أن الأول مجرد وصف اعتباطي للألفاظ في حين أن الثاني إعمال
نقواعد التعليق بين الألفاظ مُقتضى إلى بنية صرفية - تركيبية معينة. بهذا

المفهوم لا يمكن أن تتم عملية "النظم" بين ألفاظ العبارة إلا إذا أخذ معناها بعين الاعتبار.

ولعل أوضح الإشارات إلى تبعية البنية اللفظية لمعنى الإشارة ثانياً: لا يتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه ولا أن تتوحي الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك. فإذا تم لك ذلك أتبعتهما الألفاظ وقوت بها آثارها؛ وأنت إذا فرغت من ترتيب المعاني في النفس لم تحتاج أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ بل تجد أنها تتركب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولا حقة بها" (الدلائل: 142).

2.3.2.2 - بناء العبارة اللغوية

على أساس أسبقية المعنى، ينتهج الجرجاني منهجاً في بناء العبارات اللغوية يقوم على التمييز بين مستويين، مستوى المعنى ومستوى اللفظ، يربط بينهما ربطاً تبعية نسق قواعد النظم.

1.2.3.2.2 - مستوى المعنى

يضع الجرجاني أساساً لإنتاج العبارة اللغوية ما يسميه "الكلام القائم بالنفس" المروم التعبير عنه.

الكلام القائم بالنفس، عند الجرجاني، (وفقاً لثنائية "القصد/المحوى" المعروض لها آتفاً)، شقان: "غرض" (خير، استفهام، أمر...) ومجموعة من الوحدات المعجمية حاملة مداليل معينة.

المعنى، إذن، غرض هو الدافع لإنتاج العبارة ومضمون يناسب الغرض المتوحي تحقيقه.

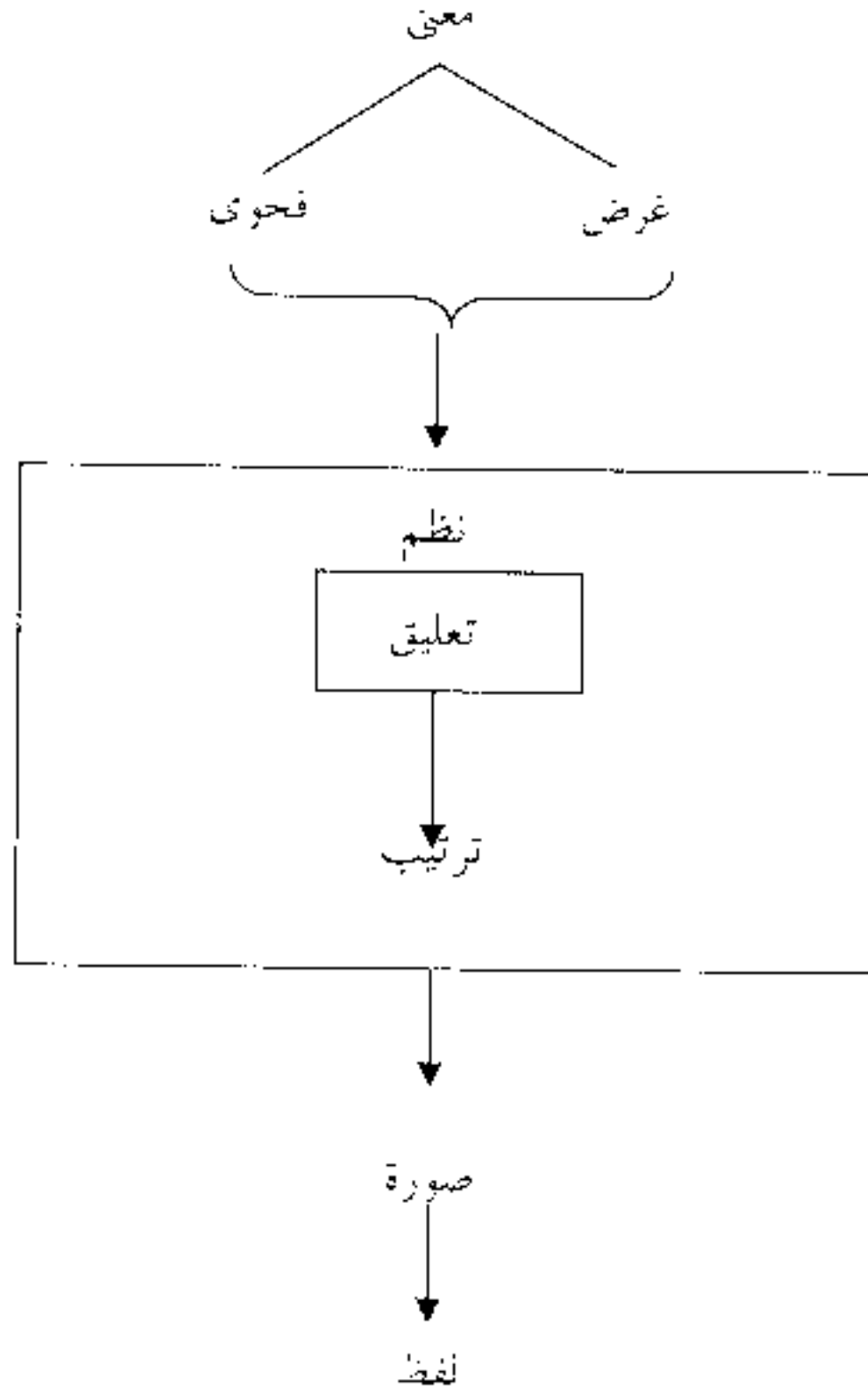
2.2.3.2.2 - مستوى اللفظ

ينقل مستوى المعنى بواسطة قواعد النظم إلى مستوى اللفظ حيث تجري قواعد تعييق المتردات بعضها ببعض وترتيب بعضها بالنظر إلى بعض طبقاً للغرض المنشود تحقيقه.

نتاج قواعد النظم بنية صرفية - تركيبية محددة (أو 'صورة' بلغة الجرجاني) جاهزة للتحقق صوتاً أو كتابة.

يمكن أن نوضح منهج الجرجاني في بناء العبارة اللغوية عن طريق الترسيم التالية:

(17)



3.2 - القضايا

في إطار المفاهيم الأساسية والمسائل المنهجية التي عرضنا لها في المبحثين السابقين، تناول اللغويون العرب المقدمات مجموعة من القضايا نتقي منها هنا أمثلة نقترح تبويبها كالتالي: أولاً: القضايا التي تتعلق بالمعنى المقصد وثانياً: القضايا المرتبطة بالمعنى الفحوى وثالثاً: قضايا تسيط الخطابات ورصد خصائص كل نمط.

1.3.2 - المقصد والتركيب

سبق أن بينا أن المقصد في التنظير الثلاثي للدلالة قصدان: "غرض" له علاقة بصيغة العبارة (أو "أسلوبها") و"نية" هي المحدد الأساسي للرتبة.

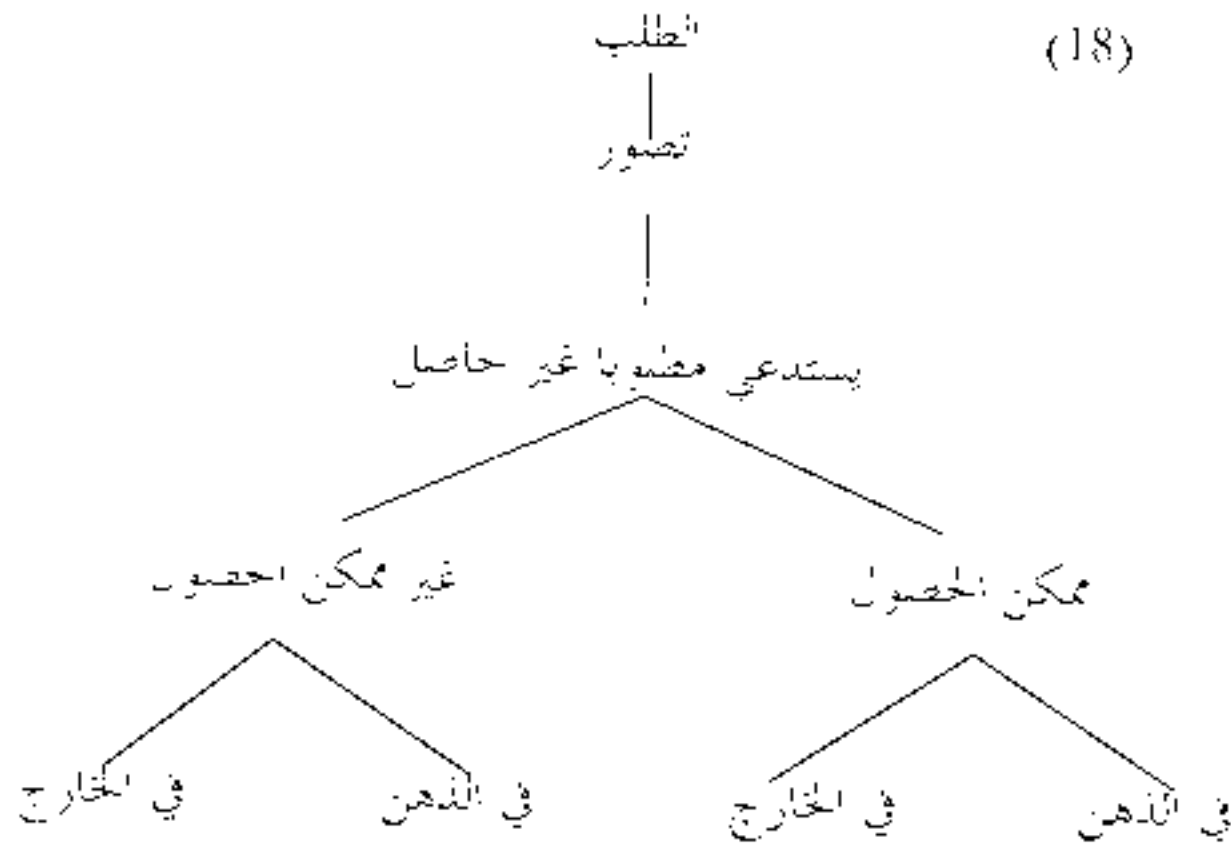
1.1.3.2 - الغرض الأصلي / الغرض الفرعي

بيننا أن السكاكي يميز داخل "المطلب" (أي الإنشاء) بين الغرض الأصلي الذي يدخل في علم المعاني والغرض الفرعي (أو الحائي) الذي يضطلع بتحديد علم البيان.

لتر الآن كيف يتم الانتقال من الغرض الأصلي إلى الغرض الفرعي وكيف يرصد السكاكي إشارات هذا الانتقال.

"المطلب" عند السكاكي خمسة أعراض أصلية هي الاستفهام والنداء والتسبيح والأمر والنهي. لكل من هذه الأعراض الخمسة قواعد (أو شروط) تعرفه وتضبط "إجراءاته على أصله" وإنجازها في المقام المناسب.

شروط الإجراءات هذه تشكل نسقاً متكاملًا تمثل له بالترسيمة التالية:



ثمة حالتان بالنظر لتحقيق هذا النسق من الشروط:

(أ) الحالة الأولى أن تُجرى أغراض الطلب الخمسة على أصلها بتحقيق شروط إجرائها فتكون العبارة حاملة للغرض الذي تدل عليه صيغتها كما هو الشأن في الجملة (18) حيث الاستفهام استفهام حقيقي "أي صب أمر غير حاصل وقت الطلب ممكن حصوله في الذهن:

(18) هل زرت عائداً اليوم؟

(ب) أما الحالة الثانية فإن تُجرى الأغراض الأصلية الخمسة في مقامات غير مطابقة لشروط إجرائها على الأصل.

في هذه الحالة يحصل الانتقال من الغرض الأصلي إلى غرض فرعي يتطابق مقتضى الحال. ويتم ذلك في مرحلتين:

أولاهما: أن يؤدي عدم المطابقة المقامية إلى تحرق أحد شروط الإجراء على الأصل فيمتنع إجراء معنى الأصلي:

ثانيهما: أن يتولد عن حرق شرط المعنى الأصحي والمنتاج إجرائه
معنى آخر قد يكون من المعاني الخمسة أو من غيرها.

نسق مثلاً من مفتاح العلوم نفسه عن الاستفهام و"مولداته".
يقول السكاكي (المفتاح: 146): "إذا قلت من تراه يؤدي الأب أتفعل
هنا؟" امتنع توجه الاستفهام إلى فعل الأذى لعلمك بحاله وتوجه إلى ما لا
تعلم مما يلابسه من نحو "أستحسن" وولد الإنكار والوجوه".

2.1.3.2 - الغرض وتراكيب العطف

يخضع العطف في رأي اللغويين العرب القداماء لشرط أساسي هو
شرط "المناسبة" القاصي بأن تكون الجملتان المعطوف بينهما جملتين
متماثلتين.

والمناسبة نوعان: مناسبة فحوى ومناسبة غرض.

في باب المناسبة من حيث الفحوى يقول الجرجاني (الدلائل: 156):

"لا نقول زيد قائم وعمرو قاعد" حتى يكون عمرو بسبب من
زيد وحتى يكونا كالنظرين أو الشريكين وبحيث إذا عرف السامع حال
الأول عناه أن يعرف حال الثاني...

ومن هنا عابوا أبا تمام في قوله:

"لا والذي هو عالم أن النوى

صبر وأن أبا الحسين كريم

وذلك لأنه لا مناسبة بين كريم أبي الحسين ومرارة النوى...

واعلم أنه كما يجب أن اتخذت عنه في إحدى الجملتين بسبب من
أخذت عنه في الأخرى كذلك ينبغي أن يكون الخبر عن الثاني مما يجري
بحرى الشبيه والنظير أو النقيض للخبر عن الأول، فهو قلت "زيد طويل
القامة وعمرو شاعر" كان خلفاً لأنه لا مشاكلة ولا تعلق بين طول القامة

وبين الشعر وإنما الواجب أن يقال: "زيد كاتب وعمرو شاعر و"زيد طوي
القامة وعمرو قصير".

(ب) أمّا شرط المناسبة من حيث الغرض فإن تكون الجملتان
المعطوف بينهما كلتاهما جمعتين خبريتين:

(19) "زيد شاعر وعمرو كاتب

أو جمعتين استفهاميتين:

(20) متى قدم زيد ومتى ذهب عمرو؟

أو جمعتين أمريتين:

(21) كدوا واشربوا!

تناول النحويون العرب القدماء والبلاغيون خاصة الجمل التي لا
تستجيب لشرط مناسبة الغرض كما هو الشأن في الآية الكريمة:

(22) "ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك"

حيث عُصِفَتْ جملة خبرية على جملة استفهامية.

وعللوا جواز العطف في مثل هذه الحالات بأن المسوّغ له هو أن
الجملة المعطوف عليها جملة خبرية من حيث الغرض الفرعي وإن كانت
استفهامية من حيث الصيغة.

3.1.3.2 - النية والترتبة

كما ميزنا بين "معنى العبارة" و"معنى المتكلم" يمكن أن نميز أيضاً
بين "رتبة العبارة" و"رتبة المتكلم".

نقصد برتبة العبارة الترتيب الذي تحدده علاقات النحو وهو فعل -
فاعل - مفعول في الجملة الفعلية ومخبر عنه - مخبر به في غيرها.

أما المقصود برتبة المتكلم فالترتيب الذي تمتصيه نية المتكلم حين يقدم ما حكمه (الفحوى) التأخير قاصداً التوكيد أو التخصيص أو الخصر أو رفع التوهم والشك وغير ذلك.

في باب تقديم الاسم على الفعل يقول الخرجاني (الدلائل: 94):

"فإذا عمدت إلى الذي أردت أن تحدث عنه فقدمت ذكره ثم بنيت الفعل عليه فقلت "زيد قد فعل" ... اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل. إلا أن المعنى في هذا القصد ينقسم قسمين:

أحدهما... أن يكون الفعل فعلاً قد أردت أن تنص فيه عنى واحد فتجعله له وترغم أنه فاعله دون واحد آخر أو دون كل أحد...

والقسم الثاني ألا يكون القصد عنى هذا المعنى ولكن عنى أنك أردت أن تحقق عنى السامع أنه قد فعل وتمنعه من الشك فأنت لذلك تبدأ بذكره... لكي تباعده بذلك من الشبهة وتمنعه من الإنكار...

وفي معرض الحديث عن "التخصيص" كمقصد يستوجب التقديم يكتب السكاكي (المفتاح: 112):

"إذا قلت "زيد بررت" أفاد أن سامعك كان يعتقد مرورك بغير زيد فأزلت عنه الخطأ مخصصاً مرورك بزيد دون غيره. والتخصيص لازم للتقديم ولذلك نسمع أئمة علم المعاني في معنى "إياك نعبد وإياك نستعين" يقولون نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك ونخصك بالاستعانة منك لا نستعين أحداً سواك".

2.3.2 - من قضايا المعنى - الفحوى

بعد قضايا المعنى - المقصد، آن لنا أن نعرض لقضايا المعنى - الفحوى.

من قضايا المعنى الفحوى التي درست في التراث اللغوي ثلاث قضايا كبرى هي: أولاً: عملية الدلالة نفسها وأركانها، وثانياً: وجود الدلالة بين "صريح" و"ضمني" وثالثاً: الالتباس بمختلف أنواعه ودرجاته. تنوعت هذه القضايا في علوم التراث عامة لكنها نالت النصيب الأوفر في المعاجم وفي كتب فقه اللغة وأصول الفقه والمنطق والتفسير.

1.2.3.2 – أركان الدلالة

تقوم عملية الدلالة، في منظور المناطقة والأصويين، على أربعة أركان هي:

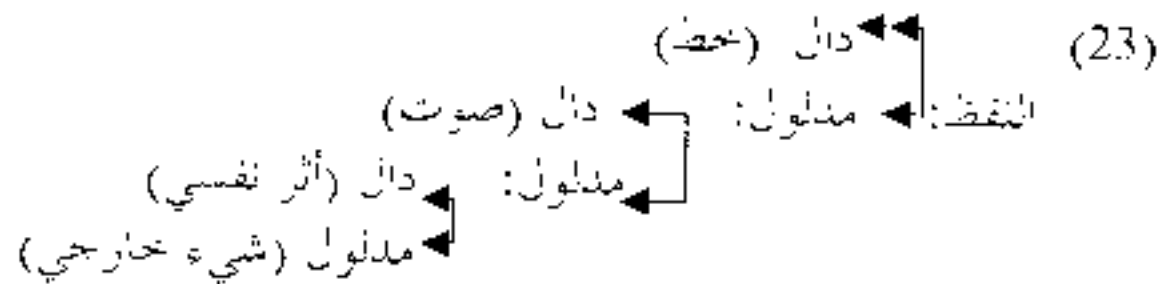
أولاً: "أشياء" العنم الخارجي مثل "الفرس" و"السيف" وغيرهما؛

ثانياً: "المعاني الذهنية" (أو الآثار النفسية للأشياء الخارجية)؛

ثالثاً ورابعاً: الدالان الصوتي والخطي.

وتتم عملية الدلالة على أساس ما يقوم من علاقات بين الأركان الأربعة. فالمعاني الذهنية تدل على الأشياء باعتبارها آثاراً نفسية لها والدال الصوتي يدل على المعنى الذهني في حين أن الدال الخطي يدل على الدال الصوتي.

حسب هذا التصور، يشكّل اللفظ، أي لفظاً، عبارة مركبة مكونة من نفسها دلائل قائمة الذات: فمدلول الدال الخطي دليل صوتي مدلوله دليل ذهني مدلوله الشيء القائم في الخارج كما يفاد من الترسيم (23):



عنى أساس هذه الطبيعة "التراكيبية" لعملية التبدل يصنف المناطقة
والأصوليون المعاني صنفين:

(1) معاني كلية وهي المعاني الناتجة عن دلالة الأثر النفسي (أو المعنى
الذهني) على الشيء؛

(2) ومعاني خاصة وهي ما ينتج عن دلالة الصوت على الأثر
النفسي ودلالة الخط على الصوت.

ملحوظة: ينقل إلينا السيوطي (المزهر: 42)، الخصومة حول
الشيء بين من يقول بوروده وبين من ينفيه. نحتاج من يقول بعدم وروده
بأن الدلالة الفعلية هي بين الصوت والأثر النفسي لا بينه وبين الشيء وبأن
الشيء لا يمكن أن يوجد إلا في الذهن كما هو الشأن بالنسبة للأسماء
المجردة. ويدافع القائلون بوروده بأن الدلالة قد تكمن بين الصوت والشيء،
دون أثر نفسي كما يحصل في الألفاظ الدال صوتها على الحدث مثل
الخرير" و"الوشوشة" وغير ذلك.

2.2.3.2 - وجوه الدلالة

يصنف علماء أصول الفقه خاصة الدلالة من حيث وجوهها إلى
"دلالة صريحة" ودلالة ضمنية" مع تقسيم الوجه الثاني إلى عدة وجوه
فرعية.

1.2.2.3.2 - الدلالة الصريحة

يطلق مصطلح الدلالة الصريحة وأشهر منه مصطلح "دلالة
المنطوق" على المعنى المستخلص من صيغة العبارة "وفقا لتعريف اللغوي".

من هذا التعريف يفهم أن الدلالة الصريحة هي معنى العبارة "الخرفي"
مجموع مداخل وحداتها المعجمية.

مثان ذلك أن الدلالة التفسيرية للجملة (24) هي الإخبار بحدث
انقراض الواقع من زيد على عمرو:

(24) قتل زيد عمراً

2.2.2.3.2 - الدلالة الضمنية

تعرف "الدلالة الضمنية" في كتب أصول الفقه بأنها الدلالة التي لا
تُستخلص من صيغة العبارة وفقاً لعرف اللغوي.

والدلالة الضمنية ثلاثة أنواع: "دلالة مفهوم" و"دلالة اقتضاء"
و"دلالة إيماء".

(أ) دلالة المفهوم هي الدلالة التي يمكن أن تستنتج، عن طريق
الاستدلال من المعنى الحرفي لعبارة.

وهي نوعان: "دلالة موافقة" و"دلالة مخالفة".

(1) يكون المفهوم مفهوم موافقة حين لا يتعارض مع دلالة المنطوق
كما هو الشأن في الآية الكريمة (25) التي تعني ضمناً "أحسن إلى
الوالدين":

(25) "ولا تقل حسماً أف"

(2) ونكون أمام "مفهوم مخالفة" حين يتعارض المعنى المستنبط مع
دلالة المنطوق.

(ب) "دلالة الاقتضاء" مفهوم منطقي مرتبط بمفهوم الصدق /
الكذب.

تشكل دلالة الاقتضاء أساس الحكم على العبارة بالصدق أو
الكذب.

مثال ذلك أن صدق العبارة (26) يقتضي صدق العبارة (26ب) إذا لا طلاق بدون سابق زواج:

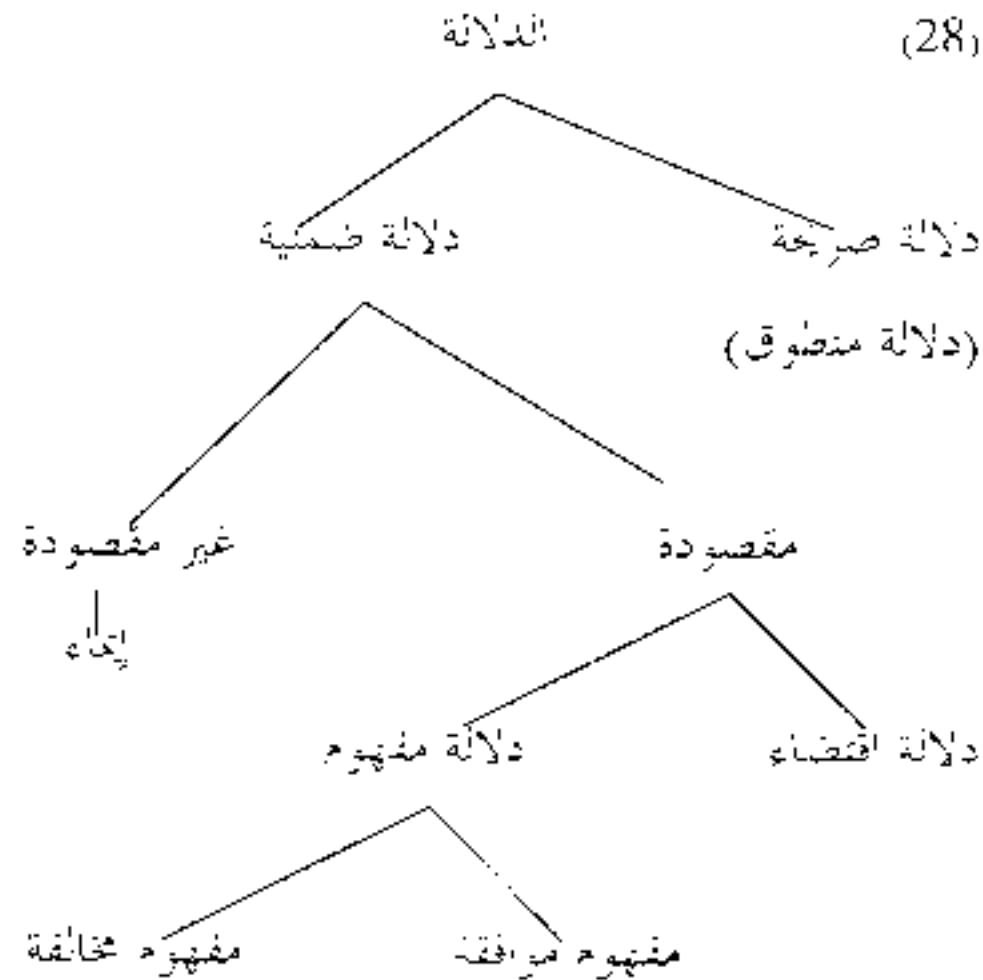
(26) أ طلق عمرو هندا
ب - عمرو زوج هندا

(ج) تشترك دلالة المفهوم بشقيها الموافق والمخالف ودلالة الاقتضاء في كونها دلالتي مقصودتين بخلاف "دلالة الإيماء" التي تستنتج من معنى العبارة ذاتها دون أن يكون المتكلم يعنيه أو يروم تمريرها.

مثال ذلك أن يستنتج من العبارة (27): إذا قيلت سنة 2006، أن هندا وُلدت سنة 1960:

(27) بلغت هندا الآن السادسة والأربعين.

يمكن أن نوضح وجوه الدلالة وفروعها بواسطة الترميزية التالية:



3.2.3.2 – الالتباس: أغماطه ودرجاته

يقال عن خطاب ما (جملة أو أكثر من جملة) إنه خطاب ملتبس حين يحتمل قراءتين (أو تأويلين) أو أكثر من قراءتين.

درس اللغويون العرب القدماء الالتباس دراسة ضافية صنّفوه فيها صنفين من حيث مكمنه ورصدوا درجاته من حيث قوته.

1.3.2.3.2 – غمط الالتباس: دلالة وإحالة

الالتباس، في الواقع، كما نبه إلى ذلك السيوطي (الإتقان)، يمكن أن يكون كامناً في انصرف والتركيب إضافة إلى المعنى. إلا أننا لن نعرض هنا إلا للصنف الثاني من الالتباس.

الالتباس من حيث الفحوى إما أن يكون دلالياً أو أن يكون إحالياً.

1.1.3.2.3.2 – الالتباس الدلالي

يُنعت الخطاب بالملتبس دلالياً حين يكون التباسه في معناه أي في مجموع معاني ألفاظه مضموماً بعضها إلى بعض. مصدر الالتباس الدلالي بوجه عام تضمن الخطاب لفظ من قبيل "المشترك" حامل لأكثر من معنى واحد.

يُميز علماء أصول الفقه في هذا الباب بين الخطاب "المجمل" والخطاب "المفصل" على أساس أن المجمل كل خطاب محتمل لمعنيين (أو لأكثر من معنيين) "وضعيين" ليس أحدهما معنى مجازياً.

من الأمثلة الموردة في باب المجمل الآية الكريمة (29) المحتملة لمعنيين مصدرهما اشتراك لفظ "اليد" (إلى المعصم أو إلى المرفق):

(29) "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما" (قرآن كريم).

2.1.3.2.3.2 - الالتباس الإحالي

الإحالة عموماً هي العلاقة التي تقوم بين اللفظ والذات التي يحيل عليها في الخارج. في إطار هذه العلاقة ميز علماء الأصول بين اللفظ الخاص واللفظ العام من جهة وبين اللفظ المنقيد واللفظ المنطلق من جهة ثانية.

يعرف الأصوليون اللفظ العام بأنه "اللفظ الذي يقع على شيتين فأكثر" في مقابل اللفظ الخاص الذي لا يحتمل مدلوله أن يشترك فيه أكثر من شيء واحد.

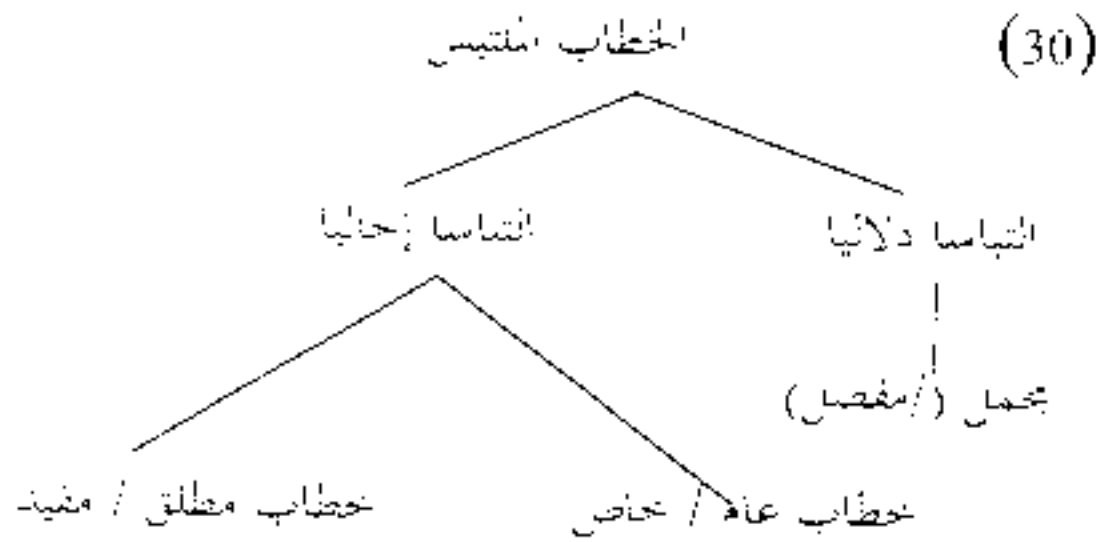
وأحصى الأصوليون الألفاظ العامة فوضعوا لها قائمة تشمل أسماء الاستفهام وأسماء الجنس وأسماء الجمع معرفة أو منكرة والأسوار الكمية مثل "كل" و"جميع".

أما ثنائية المطلق / المنقيد فيحدد طرفها الأول بأنه اللفظ غير المعين وطرفها الثاني بأنه اللفظ "الذي يتمكن المخاطب من تحيل ما يحيل عليه"، أي اللفظ الذي يدل على شيء يعرفه المخاطب ويميزه عن غيره.

الألفاظ المطلقة كما أحصاها الأصوليون بمجموع الأسماء المنكرة في حين تشمل الألفاظ المنقيدة أسماء الأعلام والضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة و"النادى المقصود".

لا تعني قائمة العام والمطلق وما يقابلها أن العموم / الخصوص والإطلاق / التقييد خصائص مقصورة على اللفظ المفرد، إذ إنهما تصدق كذلك على الجمل بل على ما يفوق الجمل. في هذا الباب يشير الشاطبي (الموافقات) إلى أن العموم عمومان: "عموم إفرادي" وعموم كلامي.

يمكن الآن أن تمثل الألفاظ الالتباسية بالترسيمية (30):



2.3.2.3.2 - درجات الالتباس

انتبه علماء أصول الفقه إلى أن الالتباس، كماً في العموم أم في الإطلاق، ليس واحداً بل هو درجات.

فوضعوا سلمية للالتباس المتنامي تتراوح عناصرها بين قطبين: قطب "الظاهر" وقطب "الخفي":

$$(31) \left\{ \begin{array}{l} \text{الظاهر} \\ \text{الخفي} \end{array} \right\} > \text{المحتمل} > \text{المحمّل} > \text{الخفي}$$

يحد هذه السلمية طرفان، طرف الخطاب الظاهر (أو "النص") الذي يعرف بأنه الخطاب الذي يحتمل تأويلاً واحداً وطرف الخطاب الخفي (أو "المتشابه") الذي هو الخطاب غير الممكن تأويله على الإطلاق.

بين هذين الطرفين القطبين، درجتا الخطاب "المحتمل" الذي يقبل تأويلين اثنين والخطاب "المحمّل" الذي يحتمل أكثر من تأويلين ولا مرجح.

3.3.2 – الخطاب: أنماطه وخصائصه

أشرنا سابقاً إلى أن النغويين العرب القدماء لم يفتروا في دراستهم لفظ "التقيد" (بمعة ابن جني) عند الجملة بل تعدوها إلى ما يفوقها بحكم أن هدفهم الأسمى كان فهم القرآن الكريم باعتباره نصاً متكاملًا.

من نتائج دراستهم للخطاب الذي يفوق خمسة ثلاث نتائج هامة: أولاً: التمييز بين القدرة اللغوية والقدرة الخطابية، وثانياً: تسيبهم لخطابات حسب معايير معينة وثالثاً: رصد خصائص مختلف الأنماط الخطابية.

1.3.3.2 – القدرة الخطابية

ما يمكن المتكلم من التواصل باللغة معرفته لأوضاعها معجماً وقواعد. دون معرفة أوضاع اللغة لا يستطيع المتكلم أن ينتج أي خطاب. هذا ما يشير إليه الجرجاني (الدلائل: 264) حين يقول:

‘يبغي لنا أن ننظر إلى المتكلم أن يزيد من عند نفسه في اللفظ شيئاً ليس هو نه في اللغة... كيف وهو إن فعل ذلك أفسد على نفسه وأبطل أن يكون متكلماً، لأنه لا يكون متكلماً حتى يستعمل أوضاع لغة على ما وضعت هي عليه.’

إلا أن القدرة اللغوية المنبثقة في معرفة أوضاع اللغة ليست كافية لإنتاج خطاب "فصيح". فإنتاج الخطاب المنسق يقتضي قدرة خطابية ("فصاحة") تجاوز معرفة أوضاع اللغة إلى معرفة تنظيم الخطاب وإحكام بنيته بما يناسب الغرض المتوخى. يقول الجرجاني (الدلائل: 263) في تعريف هذه القدرة الخطابية:

"ثم إنا نعلم أن المزية المطلوبة في هذا الباب (باب الفصاحة) مزية فيما طريقه الفكر والنظر من غير شبهة... ومن هنا لم يجوز إذا عُدَّ الوجود التي تظهر بها المزية أن يعد فيها الإعراب وذلك أن العلم بالإعراب مشترك بين العرب كمنهم وليس هو مما يُستتبط بالفكر ويستعان عليه بالروية... ومن ثم لا يجوز لنا أن نعتد في شأننا هذا بأن يكون المتكلم قد استعمل من اللغتين في الشيء لما يقال إنه أفصحهما، وبأن يكون قد تحفظ مما تخطئ فيه العامة؛ ولا بأن يكون قد استعمل الغريب لأن العلم بجميع ذلك لا يعدو أن يكون علماً باللغة... وبما طريقه طريق الحفظ دون ما يستعان عليه بالنظر ويوصل إليه بأعمال الفكر."

2.3.3.2 - تنميط الخطابات

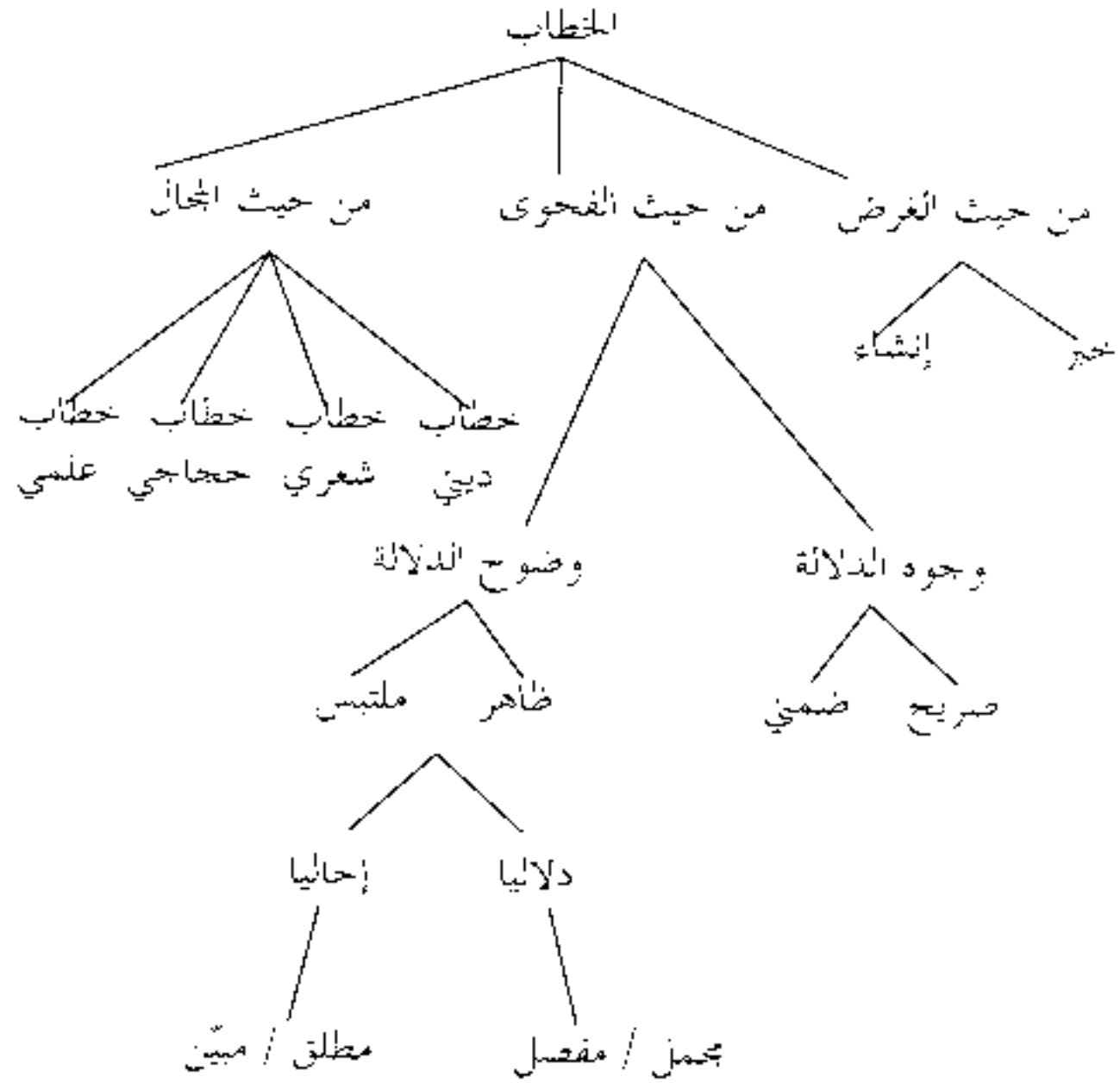
انطلق اللغويون العرب القدماء في تصنيفهم للمخطابات من نفس المفاهيم الأساسية التي توطر تحليلاً لهم للعبارات اللغوية فاعتمدوا في ذلك ثلاثة معايير أساسية هي: معيار الغرض ومعيار الفحوى ومعيار المجال.

(أ) ميزوا، من حيث الغرض، بين الخطاب الخيري المحتمل للمصدق والكذب والخطاب الإنشائي غير المحتمل هاتين القيمتين.

(ب) وصنفوا الخطابات من حيث فحواها إلى خطاب دال دلالة صريحة وخطاب دال دلالة ضمنية وأقاموا انطلاقاً من نفس معيار الفحوى سلسلة التباس دلالي وإحائي ترتب الخطابات حسب ابتعادها أو دنوها من قطبي "الظهور" (أو "النصيحة") و"الختفاء".

(ج) أما معيار المجال فكان فاصلاً لديهم بين الخطاب الديني (القرآن الكريم خاصة) والخطاب العلمي والخطاب الحجاجي والخطاب الشعري.

نقترح توضيح تنميط اللغويين العرب القدماء لمخطابات من حيث المعايير الثلاثة بواسطة الترسيم التالية:



3.3.3.2 - بنية الخطاب

تصدى البلاغيون وعلماء أصول الفقه والمفسرون لاستكشاف خصائص الخطاب الأدبي والخطاب الخجاجي والخطاب الديني كما انبرى الفلاسفة والمناطقة لرصد مميزات الخطاب العلمي.

سنقتصر هنا على ما ورد عن الخطاب الديني متمثلاً في النص الأسبي، نص القرآن الكريم، من حيث مكوناته والعلاقات الرابطة بين مكوناته ومقوماته المتساقفة.

1.3.3.3.2 - المكونات

قُسم نص القرآن الكريم من حيث تكوينه إلى مجموعتي سور كبيرين: سور مكية وسور مدنية. وقسمت السور بدورها إلى آيات يرتبط بعضها ببعض.

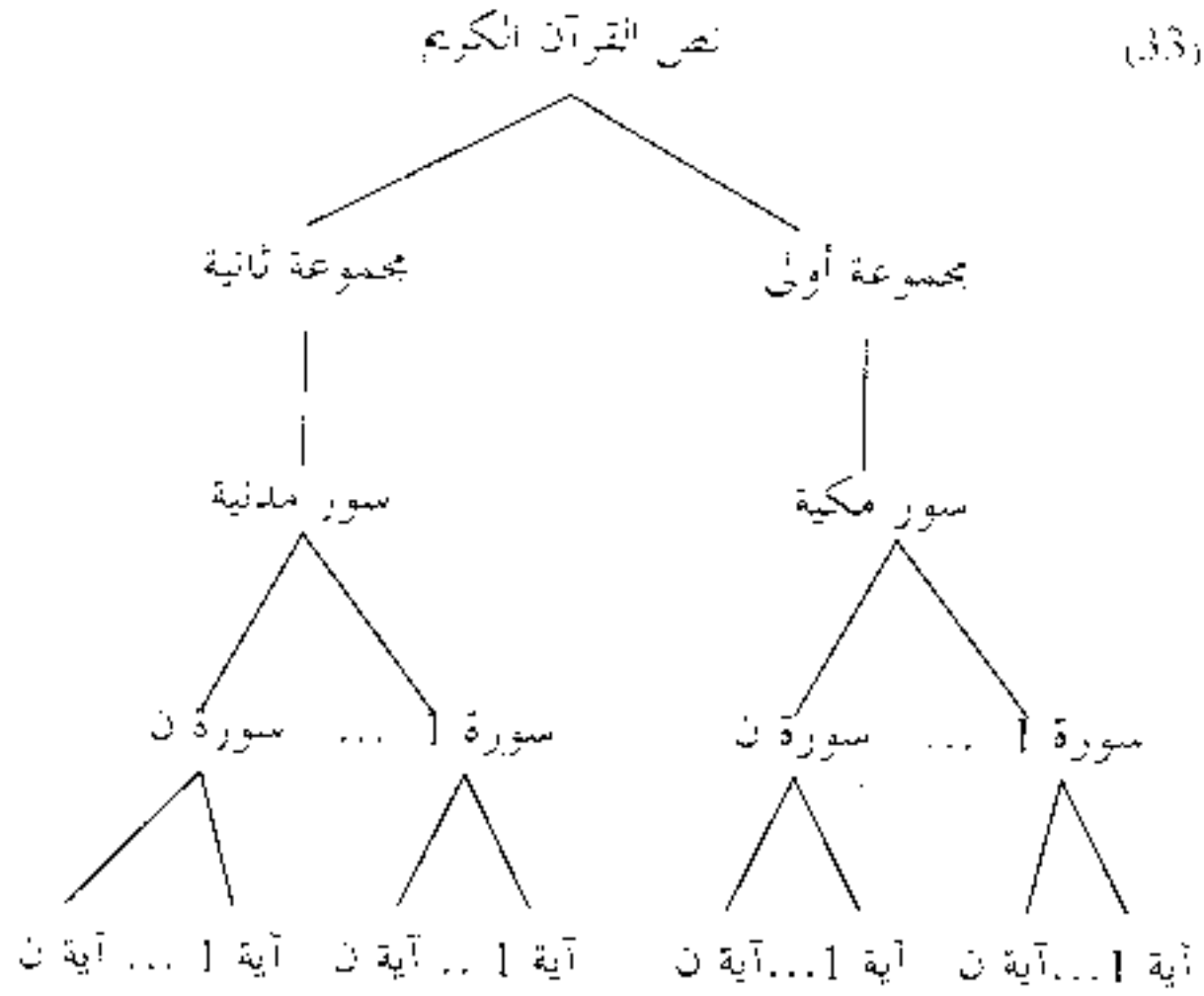
اللافت للانتباه في هذا التقسيم أن المعايير التي اعتمدت في إجرائه، سواء على مستوى السور أو على مستوى الآيات، معايير دلالية كما كان متوقفاً بحكم المبدأ العام، مبدأ أسبقية المعنى.

بتعبير أدق، نجد وراء منهج رصد مكونات النص القرآني نفس المفاهيم الأساسية، خاصة مفهومي الغرض والفحوى.

يقول الشاطبي (الموافقات) إن تقسيم القرآن خاضع لثلاثين معيار المعنى (أو "الموضوع") ومعيار "سبب النزول".

هذان المعياران واردان في تقسيم نص القرآن إلى مجموعتي سور مكية والمدنية وورودهما في تقسيم السور إلى آيات. فالسور المكية في رأي الشاطبي يجمع بينها جامع الموضوع الواحد، موضوع الدعوة في حين أن السور المدنية تتألف في كونها تُرسي الشريعة الإسلامية.

تقسيم القرآن الكريم حسب هذين المعيارين يعطينا الترسيم التالية:



2.3.3.2 - العلاقات

يقوم مفهوم "البنية"، كما نعلم، على عنصرين أساسيين مثلًا زمين متكاملين: مكونات وعلاقات تربط المكونات وتجعل منها وحدة تامة.

فيما يخص نص القرآن الكريم ميز الأصوليون (الشاطبي خاصة) بين ثلاثة أصناف من العلاقات: علاقات صورية وعلاقات دلالية وعلاقات "بنوية".

(أ) من أهم الروابط الصورية ما يسمى "التعلق اللفظي" وهو أن يعاد ذكر لفظ ما بين آيتين، إما فاتحاً للآية أو خاتماً لها.

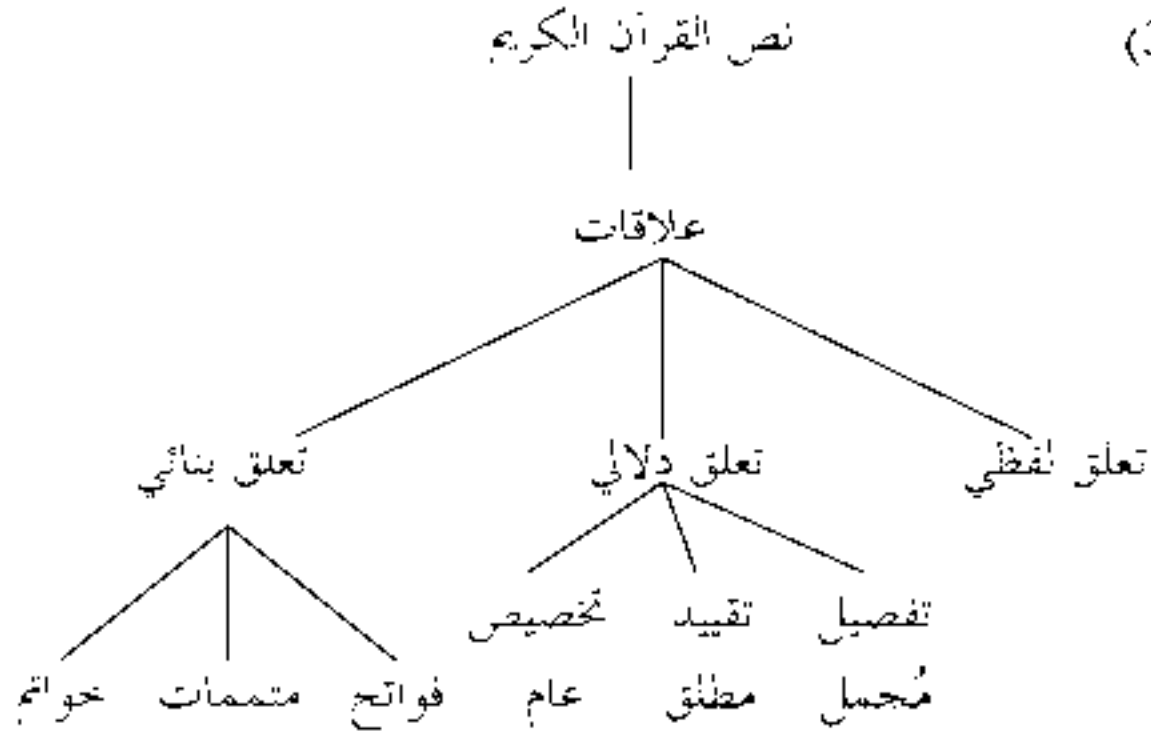
(ب) تتفرع العلاقات الدلالية بين الآيات أو بين السور عن مبدأ عام يصوغه الشاطبي (الموافقات) كالتالي: "التأخر مبني على المتقدم".

من هذا الضرب من العلاقات علاقة "تفصيل المحمل" وعلاقة "تبين المطلق" وعلاقة "تخصيص العام" الذي تقوم بين متأخر ومتقدم.

هذه العلاقات من حيث حيزها نوعان: علاقات "متصلة" تقوم بين آيتين متواليتين تخصص أو تبين أو تفصل ثانيتهما الأولى وعلاقات "منفصلة" تقوم لنفس الأغراض بين آيتين متباعدتين (أو مجموعتين من السور) متباعدتين.

(ج) أما علاقات الصنف الثالث فإنها العلاقات التي تم النص باعتبار بنائه العام وتنظيم أجزائه. إنما العلاقات التي تجعل من بعض الآيات "فواتح" ومن بعضها "متممات" ومن بعضها الآخر "خواتم".

توضع الترسيم التالية للعلاقات بين مكونات نص القرآن الكريم:



3- التراث اللغوي والدرس الوظيفي الحديث

كان عرضنا للتنظير الدلالي في التراث عرضاً حاولنا فيه جهداً أن ننظر إليه من داخله وأن نضل ملتصقين به مضموناً وشكلاً ما وسعنا الالتصاق.

نريد الآن أن نبتعد عنه وأن ننظر إليه بعين العصر لإدراك ما يصننا به واستكشاف ما يمكننا أن نقيده منه.

في هذا التوجه، سنحاول الإجابة عن سؤالين أساسيين اثنين:

أولاً: ما طبيعة ووضع هذا التنظير إذا نحن قمنا بمفاهيم ومنهجنا ومقاربه بما تتطلبه وتقتضيه النظرية الوظيفية التي حددنا معالمها في الفصل الأول من هذا البحث؟

ثانياً: ما الوضع الذي يمكن أن يتخذه التراث اللغوي بالنظر إلى الدرس الوظيفي الحديث عمارة والدرس الوظيفي العربي خاصة وما الدور

الذي يمكن أن يقوم به باعتباره إسهما هاما في المقاربة الوظيفية لغة وإن كان ينتمي إلى حقبة زمنية أخرى؟

1.3 - التراث والنظرية الوظيفية المثلى

لندكر بأن من المبادئ المنهجية التي نعتمدها هنا في التعامل مع التراث أن نقرأه وأن نحكم عليه من خلال ميتا-نظرية عامة تتجاوز النظريات اللسانية القدية منها والحديث وهي ما أسماها النظرية الوظيفية المثلى". في إطار هذه النظرية، سنحاول في هذا المبحث أن نثبت وظيفية التراث أولا وأن نرصد مداها ثانيا.

1.1.3 - وظيفية التراث

وفقا لمبدأ الانسجام، يتعين أن تثبت وظيفية التراث الدلالي العربي في كل من المفاهيم الأساسية والمنهج والمقاربة.

1.1.1.3 - من حيث المفاهيم

يمكننا القول دون تردد إن الأطروحة التي تخلف التنظير التراثي للدلالة وتحكمه مفاهيم ومنهجاً ومقاربة لضواهر هي أطروحة أن وظيفة اللسان هي وظيفة إتاحة التواصل بين البشر.

1.1.1.1.3 - اللغة وأصلها

نجد أطروحة وظيفية اللغة منصوصاً عليها بوضوح في تعاريف اللغة نفسها:

يقول ابن جني (الخصائص: 40) في تعريف اللغة: "أحد اللغة أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم".

نفس فكرة ارتباط اللغة بأعراض مستعملتها بخدها معبراً عنها بمفهوم "الاحتياج" إلى التواصل في أدبيات أصل اللغة. يقول الأمدي (الإحكام: 30) في هذا الباب ما مفاده أنه، بما أن لا أحد يستطيع أن يعرف على الأشياء وحده دون معرفة غيره، احتيج إلى خلق "دلائل" تتيح لكل معرفة ما في ضمير غيره من جهة وتعيينه على تحقيق أغراضه من جهة ثانية، دلائل مؤلفة من أصوات خص الله بها الكائنات البشرية.

2.1.1.1.3 - أركان التخاطب

لم يتخذ المفكرون العرب القدماء العبارة اللغوية موضوع دراسة مجرداً مقصوداً عما يلابسه بل ركنا من أركان عملية تواصل تامة تتضمن مقاماً ومتخاطبين بالإضافة إلى المقال نفسه.

(أ) يُدحَّ جُلَّ هؤلاء المفكرين على أن المقام لا ينحصر في العناصر المتواجدة والمتفاعلة أثناء عملية التخاطب بل يشمل كذلك ظروف الإنتاج العامة. المقام لديهم، إذن، مقامان: مقام "مباشر" بمعناه الضيق ومقام "غير مباشر" بمعناه الأوسع.

يؤكد الشاذلي (الموافقات: 229) على ضرورة الأخذ بعين الاعتبار، في تفسير سور القرآن الكريم، لعادات العرب اللغوية منها والاجتماعية والخصائص التاريخية لحقبة نزول السور.

ويشير العزالي (المستقصى: 325) إلى نفس الضرورة حين ينبه إلى أهمية الانتفات إلى "عادات المتكلم ومقاصده".

(ب) يقوم المتكلم بنور هام تبرز مركزيته في أن المقصد ("الغرض وائنية") الذي يتوخى تحقيقه يشكل ركنا خاصاً من أركان معنى المقال بحكم فحوى العبارة ومعناها معاً.

تبلغ أطروحة مركزية المتكلم منتهها عند بعض المفكرين العرب القدماء الذي يعزون كل عناصر بنية العبارة إلى المتكلم بما في ذلك الإعراب نفسه.

3.1.1.1.3 - وسيلة التخاطب

من البين أن التخاطب، في رأي اللغويين العرب القدماء، لا يتم بواسطة مفردات أو جمل بل بواسطة نصوص باعتبار النص وحدة تواصلية متكاملة ينتظم أجزائها موضوع وغرض وتقوم أجزاؤها بدور الفواتح والمنتزمات والخواتم كما تقوم بتخصيص وتقييد وتفصيل بعضها البعض كما سبق أن بينا.

دليل اعتبار النص الوسيلة الطبيعية المثلى للتخاطب أن مفكرينا ميزوا بين القدرة الخطابية والقدرة اللغوية العامة وأنهم تصدّوا لاستكشاف خصائص الخطابات وتنميطها على أساس خصائصها.

4.1.1.1.3 - ضوابط التخاطب

يستلزم "نجاح" عملية التخاطب، كما نعلم، أن يخضع الخطاب إلى مجموعة من الضوابط إن اختلت أدى اختلالها إلى "تشويش" أو اخفاق تام.

يمكن أن نرجع هذه الضوابط في الفكر اللغوي التراثي إلى ضابطين أساسيين هما ضابط "الإفادة" وضابط "الوضوح".

(أ) يكتب السكاكي (المفتاح: 81) عن شروط نجاح الخطاب الحامل للخبر:

"من المعلوم أن حكم العقل حال إطلاق اللسان هو أن يفرغ المتكلم في قالب الإفادة ما ينطق به تحاشيا عن وصمة اللاغمية فإذا اندفع

في الكلام مخيراً نزم أن يكون قصده في حكمه بالمنسند للمسند إليه في
عبارة ذلك إفادته للمخاطب متعاطياً مناصها بقدر الافتقار".

يفاد من هذا النص أن شجاع الخطاب آيل إلى تحقق شرطين؛ أولاً:
شرط الإفادة نفسها وثانياً: شرط كمية الإفادة وهو ما يعبر عنه السكائي
بالإفادة بقدر الافتقار.

يتمم هذا النص، بالنظر إلى الشرط الثاني، نص سبق أن أوردناه يميز
فيه السكائي بين ثلاثة أوضاع للمخاطب: وضع "خالي" "الذهن" ووضع
التردد ووضع الشاك أو المنكر.

تقدم أن المفكرين العرب القدماء وعلماء الأصول على الخصوص
وضعوا سلمية للخطابات على أساس مفهوم الوضوح تتراوح درجاتها
بين الخطاب "الظاهر" والخطاب "الخفي" باعتبار الخطاب "الظاهر" أجمع
الوسائل للتواصل يُسعى في تحقيقه بواسطة إواليات تخصيص عامة وتقييد
مطلقه وتفصيل محمله.

2.1.3 - من حيث المنهج

سبق أن بينا أن طرق تحليل العبارة اللغوية في التراث يمكن أن تُرجع
إلى منهجين اثنين، منهج الجرجاني ومنهج السكائي، منهج ينطلق من
المعنى إلى اللفظ عبر قواعد النظم ومنهج ينطلق في المقابل، من اللفظ
مفرداً فمركباً، نحو المعنى.

من الجلي الذي لا يحتاج إلى بيان أن هذين المنهجين يعكسان شقي
عملية التواصل حيث يعد منهج الجرجاني "نموذجاً" لإنتاج العبارة ومنهج
السكائي "نموذجاً" لفهم والتأويل.

يمكن القول إذن إن وظيفة التواصل في عمق الفكر اللغوي العربي
انقدم تحكم منهج تحليل العبارات اللغوية حكمها للمفاهيم وحكمها
لمقاربة الظواهر اللغوية كما سنرى في الفقرة الموالية.

3.1.3 - من حيث المقاربة

تناول اللغويون العرب القدماء مختلف ظواهر اللغة العربية دلالية
وصرفية - صوتية وتركيبية.

وظيفة هذا التناول تكمن في أمرين: طبيعة الظواهر المقاربة وتحكم
المعنى في اللفظ.

(أ) الظواهر اللغوية التي درست ظواهر متعددة الأبعاد تجمع بين
الدلالة والصرف والتركيب وأحياناً الصوت. ذلك شأن ظواهر التوكيد
والتحصيص والقصير مثلاً.

فظاهرة التحصيص مثلاً تجمع بين معنى وبنية، بين معنى حصر
خاصية ما في ذات ما وتقديم (تصدير) المكون محط الحصر. هذا ما يعنيه
السكاكي بعبارته المعروفة "والتحصيص لازم التقديم".

(ب) تُنوّلت هذه الظواهر على أساس المبدأ العام، مبدأ تبعية البنية
للوظيفة (أو تبعية اللفظ المعنى).

بتعبير أدق، عولجت هذه الظواهر في إطار تلازمين، تلازم الصيغة
والعرض وتلازم الرتبة والنية.

ففي إطار التلازم الأول درست الأساليب (من استفهام وأمر وثمن)
في ترابطها مع الأغراض التي تعبر عنها في حين درست في إطار التلازم
الثاني ظواهر التقديم والتأخير تبعاً لنوايا المتكلم في تنظيم خطابه.

ولعل أبلغ نص في باب التقديم والتأخير نص الجرجاني (الدلائل: 44) الذي يقول فيه: "وما يجب إحكامه... الفرق بين قولنا حروف منظومة وكنم منظومة وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق وليس نظمها بمتقضى عن معنى. فلو أن واضع اللغة كان قد قال ربض مكان "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد. وأما نظم الکنم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتضي في نظمها آثار المعنى وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء وأنفق".

4.1.3 - وظيفة التراث ومعايير النظرية المثلى

بعد أن ثبت لدينا وظيفة التنظير التراثي للدلالة من حيث المفاهيم الأساس ومن حيث المنهج ومن حيث المقاربة، يمكن أن نتساءل عن مدى إحراز هذا التنظير لما تقتضيه النظرية الوظيفية المثلى مضموناً وشكلاً.

أياً كان البحث في هذا الاتجاه يتعين أن يتخذ منطلقاً له احترازان ضابطان اثنان:

(أ) يجب ألا يخضع التراث إلى مقاييس التنظير اللساني الحديث بل يجب أن يقوم ويحكم عليه بالنظر إلى المناخ الفكري الذي أنتجه. فمن الخيف أن نصائب التراث ولید حقبة تاريخية أخرى بأن يستجيب إلى شروط البساطة والاقتصاد والصورة والقابلية للحسوبة، شروط لا يمكن أن تستوفيها إلا النظريات اللسانية الحديثة.

(ب) يمكن أن نقارن إذا شئنا بين التراث اللغوي والنظريات اللسانية الحديثة بمجرد المقارنة لكن إذا أزمعنا المفاضلة فلنكن المفاضلة في

إطار النظرية الوظيفية المثلى من جهة وبينه وبين النظريات القديمة التي عاصرتة وكانت نتاج نفس الحقبة ونفس المناخ الفكري من جهة ثانية.

إذا نحن انطلقنا من هذين الاحترازين كانت نتيجة تفويهما للتراث اللغوي العربي، ولذجانب الدلالي منه خاصة، نتيجة واحدة هي النتيجة الثانية:

أولاً: التنظير التراثي للدلالة تنظير وظيفي مفاهيمي ومنهجا ومقاربة يُحرز من مقتضيات النظرية الوظيفية المثلى ما يُتيح إحرازه المحيط الفكري الذي أفرزه؛

ثانياً: ليس التراث اللغوي العربي، رغم وظيفيته، نظرية لسانية وظيفية بالمفهوم الحديث وإنما هو فكر وليد حقبة معينة من تطور الفكر اللغوي يمكن أن يفاضل بينه وبين إنتاجات لغوية أخرى تعاصره.

2.3 - التراث: ماضٍ مُتد

السؤال الهاجس بالنسبة إلى اللساني الوظيفي العربي هو السؤال التالي: ما الذي تستطيع أن تفعله بهذا الإنتاج اللغوي الضخم العظيم إلى جانب اعتزازنا به كفكر إنساني يستحق فعلاً أن نعتز به؟

يمكن أن يأخذ التنظير التراثي للدلالة كما عرضنا له في المباحث السابقة أوضاعاً ثلاثة:

أولاً: يمكن أن يعد تاريخاً للفكر اللساني الوظيفي؛

ثانياً: يمكن أن يُعتمد مرجعاً حين البرهنة والحجاج؛

ثالثاً: يمكن أن يكون مصدراً يُمتح منه كلما دعت الحاجة إلى

ذلك.

1.2.3 - التراث تاريخياً

لا ندري إذا كان للمدرس اللساني الوظيفي الحديث نشأة وتطوراً صلة بالتراث اللغوي العربي. لا ندري، بتعبير آخر، إذا كانت هذا المدرس جذور عربية إلا أنه من الممكن في جميع الأحوال أن ننظر إلى التراث، بحكم مفاهيمه ومنطقاته وأهدافه، على أنه حقبة هامة من تطور الفكر اللغوي الإنساني في توجيهه الوظيفي. فيما يخص البحث اللساني الوظيفي العربي، نعلم جميعاً أن التراث اللغوي يشغل حيزاً معيناً من معرفة كل لساني عربي بل كل مثقف عربي.

هذا المخزون يحصل التعامل معه في اتجاهين:

(أ) إما أن يكون حاضراً في تحصيل المعارف اللسانية الحديثة؛

(ب) أو أن يُرجع إليه بمعنى سبيل تأصيل ما اكتسب من هذه المعارف.

صلة التراث اللغوي بالنسبة للوظيفيين العرب، إذن، صلة مباشرة سواء أكانت أصلاً أم نتيجة تأصيل.

2.2.3 - التراث مرجعاً

يُستز، كما هو معلوم، في الاحتجاج لنظرية لسانية معينة أو لمقاربة (تقترحها) بين نمطين من الحجج: "الحجة الداخلية" و"الحجة الخارجية".

(أ) تُستقى الحجة الداخلية من النظرية نفسها طبقاً لمبادئها ومنهجها وطرق الاستدلال المعتمدة فيها.

فحين نقارب تصدير مكون ما في إطار نظرية النحو الوظيفي، مثلاً، على أنه مكون مبرر فإن حجتنا في ذلك أن الوظائف التداولية في هذه النظرية هي التي تحدد ترتيب المكونات داخل الجملة في اللغات العربية، أي في اللغات التي تعبر عن الوظائف النحوية بواسطة الإعراب.

(ب) تدعو الحاجة أحيانا إلى دعم الحجّة الداعية بحجة خارجية تُستمدّ من نظرية لسانية أخرى يُستحسن أن تكون من نفس الفصيلة.

مثال ذلك أن يُؤتى لدعم تحليل ما لظاهرة ما في إطار نظرية النحو الوظيفي بتحليل لنفس الظاهرة تقترحه نظرية وظيفية أخرى كـنظرية "النسقية" أو نظرية "التركيبيات الوظيفية" أو غيرهما.

ولا يمتنع أن تُستمدّ الحجّة الخارجية من نظرية لغوية قديمة. في هذا الاتجاه، يمكن أن نسوق لدعم تحليلنا لظاهرة التصدير آراء بلاغيينا في باب التقديم والتأخير.

ويمكن ألا نقف عند حد الاحتجاج لمقاربة وظيفية حديثة لإحدى ظواهر اللغة العربية بمقاربة تراثية لنفس الظاهرة حيث نستطيع أن نقدم حجة لورود المنحى الوظيفي عامة كونه غير آت من عدم بل له جذوره الضاربة في تاريخ الفكر اللغوي تسنده وتبرّر تبنيه.

3.2.3 - التراث مصدراً

اتخاذ التراث مرجعاً في البحث الوظيفي العربي الحديث مرحلة أولى في "تفعيه" يمكن أن تتلوها مرحلة أقوى هي مرحلة توظيفه واستثماره بالأخذ منه كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

وقد ذهب فعلا في هذا الاتجاه عدد من اللسانيين لدراسة اللغة العربية (الزهري والبوشنجي والمتوكل ضمن آخرين).

على نقيض ما يُعتقد عادة، يكتب الأستاذ جون ماكنزي استحسانا لتوظيف الفكر اللغوي العربي التراثي في نظرية النحو الوظيفي وترحيبا به:

"يستهدف كتاب الأستاذ المتوكل (المتوكل (1989)) تطبيق النحو الوظيفي كما يقترحه سيمون ديك (ديك (1978)) في تحليل ظواهر "اللغة العربية الحديثة المعيار... وللكتاب أهمية إضافية يستمدتها من محاولته إدماج مقترحات الفكر اللغوي العربي القديم في نظرية النحو الوظيفي بطريقة تغني الطرفين".

لم نتوقف، منذ تشغيلنا لنظرية النحو الوظيفي في دراسة اللغة العربية، عن إقامة حوار مثمر بينها وبين تراثنا اللغوي، حوار يُسوّغه ويسره التآسر بينهما من حيث المفاهيم والمنطلقات المنهجية. ولهذا الحوار أمثلة كثيرة في ما كتبناه وفي ما كتبه زملاؤنا ورفاقنا في مسيرة وضع نحو وظيفي للغة العربية نتقي منها ما يلي:

(أ) لم يكن يتعدى عدد "المكونات الخارجية" مكونين اثنين: المبتدأ والذيل. واحتججنا استناداً للتراث لإضافة مكون خارجي ثالث: المكون "المنادي".

كانت هذه الإضافة انطلاقة للبحث، بالنسبة إلى ديك (ديك (1987))، عن مكونات خارجية أخرى وإعادة النظر في وظائفها الخطائية.

عُين للمكون الحامل لوظيفة المخور في النموذج الأول (ديك (1978)) موقع واحد هو الموقع السابق لموقع الفعل.

وأوحى لنا تحليل الجرجاني (الدلائل) لتعبيرات التي من قبيل (35) بأن نصيف للمحور موقعا آخر، الموقع الذي يتوسط الفعل والفاعل فأمكننا بذلك أن نميز بين التقديم الداخلي المفيد للسحورية⁽⁶⁾ والتقديم الخارجي الذي نجده في تراكيب مثل (36) والذي يفيد البورية:

(35) قتل الخارجي زيد

(36) الخارجي قتل زيد

(ج) استيحاء لما ورد عند الجرجاني (الدلائل) والسكاكي (المفتاح) عن العطف وشروطه أتيج لنا أن نعني المقاربة الوظيفية لهذه الظاهرة بقيود إضافية منها ما يهتم الفحوى ومنها ما يهتم القصد فمنع من إنتاج تراكيب من قبيل (37) و(37ب) على التوالي:

(37) أ - *كتب السكاكي كتاباً وشربت شيئاً

ب * - هل جاء زيد وذهب أنت !

(د) كانت مقارنة السكاكي (المفتاح) للعبارة المجازية مثل (38) التي تعني "زيد كريم" أساساً للتحليل الاستدلالي الذي اقترحه للمعبارات المتحجرة باعتبار معناها المجازي ناتجاً عن معناها الحرفي عبر قواعد استدلالية وموضوعاً، بالتالي، من موضوعات القالب المنطقي:

(38) زيد كثير الرماد

نظن أن هذا الحوار سيظل قائماً ما قام البحث اللساني الوظيفي العربي وأنه سيسفر عن أمثلة أخرى لإسهام التراث اللغوي العربي في تطوير نظرية النحو الوظيفي أو في دعم ما يطرأ عليه من تطوير.

خلاصة: التنظير الدلالي في علوم اللغة العربية، منظوراً إليه في مجمله، تنظير وظيفي في العمق قائم على المبدأ الوظيفي الأساس، مبدأ أسبقية الوظيفة على البنية وتبعية الثانية للأولى، يحرز من مقتضيات النظرية الوظيفية المنني ما يؤهله لإحرازه المحيط الفكري المنتج له.

هذا الفكر الدلالي أصل من أصول المنحى الوظيفي في الدرس اللساني العربي الحديث يُمكن أن يكون كذلك مرجع احتجاج له ومصدراً من مصادر إغنائه وتطويره إذا ما تُعمل معه على أساس منهجية علمية واضحة المعالم تبتد القضيعة والإسقاط على حد سواء.

الهوامش:

- (1) ليس هذا، إلا تخصصاً مقتضياً، أمرد، لاقتضاب لغوي (شوكي (1982))، ليصحح في هذا، فكر التعري العربي القديم، بريد، أن نلت نظر، مع ذلك، إن أفت غيرنا عدداً من آراء ومواقف، في هذا باب تعري، يمكن نقاري أن يستشفه من المقارنة.
- (2) يستعمل مصطلح "تنظير" هنا عوضاً عن مصطلح "النظرية" الذي يُحاديث في وروده حتى بتعلق الأمر بتتبع فكري قديم.
- (3) أصبح المصطلحات العربية القديمة ما يوجد إليه ما هم مصطلحات، التي نستعمله بشيء من التوسع في مفهومه الأصلي.
- (4) نظر المرید، من التفصيل في العرض الذي قدمه (شوكي (1982))، سطر الفكرة، في عرب التدماء لينة وحضائض الحضان العصي.
- (5) تكون المقارنة في أدق درجات التعاضد حين تتم مع نظريات، توام العرب من حيث المنطق، وأخاف، والشبه كالتنظير، بوجه تدوياً، والنظريات، مرهفية النظر، متلاً عند العرب من المقارنات في كتابا (شوكي (1982)).
- (6) يقول الجرحاني (المشلائي: 82) "قد يكون من أعراض الناس في فعل ما إن، ذم، يفسد، بعينه ولا يبطلون من أوقعه كمثل ما نعلم من حاله في حال الجرحي يخرج فيعوث وبسمة ويكثر منه لأذى أله، يريدون قتله ولا يبطلون من كان لقتل منه ولا يعينهم منه شيء، فإذا قتل وأراد مرید الإخبار بذلك فإنه يقدم ذكر الجرحي فيقول "قتل الجرحي زيد" ولا يقول "قتل زيد الجرحي" لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعينهم أن القاتل به زيد جندوي وفائدة فيعيرهم ذكره وبهمهم".

خاتمة

خاتمة

نأمل أن نكون قد حققنا بعضاً مما رمنا بتحقيقه.

نأمل أن نكون قد وفّقنا بعض التوفيق في رسم معالم النظرية الوظيفية المثلى بما يكفل تأهيلها لتكون الحكم في مقارنة النظريات اللسانية ذات التوجه الوظيفي والمفاضلة بينها من حيث مدى إحرازها لمقتضيات وشروط النظرية الحكم.

ونتمنى على الخصوص أن يكون صوغ هذه النظرية الوظيفية المثلى قد مكّنتنا من إثبات وظيفية التنظير التراثي للدلالة إثباتاً يتعد ما أمكن الابتعاد عن الإسقاط والتعسف والإجحاف ومن التعامل معه تعاملاً يُنصفه ويُنصف غيره ويتيح تفعيله أصلاً ومرجعاً ومصدر استثمار.

وعسانا بعد هذا وذاك أن نكون قد أفلحنا في رسم صورة للمنحى الوظيفي العربي، ماضيه وحاضره، تكشف عن منجزاته وصبواته في الحقلين اللغوي والاجتماعي على السواء.

يظل هذا البحث رغم ما احرزناه فيه - أو نظن أننا احرزناه فيه - ينتظر أبحاثاً تتسمه إضافات وتعديلاً وتصحيحاً وأبحاثاً أخرى تكشف عمّا حققه اللسانيون الوظيفيون العرب في وضع أنحاء أو أجزاء من أنحاء لغات أخرى غير اللغة العربية.

أسمى آمالنا أن تُتخذ حصيلة هذا البحث منطلقاً وحافزاً للمضي في المنحى الوظيفي لإغناء الدرس اللساني العربي وربط حاضره بماضيه وربطهما معاً ربطاً يتجاوز والتلاقح بالفكر اللغوي الإنساني.